كيف نودّع القرن العشرين

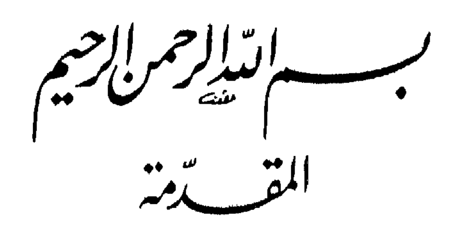
د. ابراهيم يحيى الشّهابي

دار الامل الجديد

كيف نودّع القرن العشرين

الطبعة الأولى

1424 من ميلاد الرسول ﷺ 1995 أفرنجي



المقدّمة

دخل القرن العشرون على أمتنا العربية الإسلامية وهو يحمل معاول الهدم لهذه الأمة ، من تقسيمات جغرافية ، وغزو بشري ، وأيديولوجي ، وتفكيك لعناصر الشخصية العربية واستغلال لموارد الأمة الطبيعية لصالح أعدائها وغزاتها ، وحرمان أبنائها من ثمرات هذه الموارد ، وغير ذلك من أساليب نجحت إلى حد كبير في تحقيق أهدافها .

ومع اقتراب انتهاء هذا القرن ، عقدتُ العزم بعد التوكل على الله العلي القدير ، على تأليف كتاب يستعرض أهم الأحداث التي وقعت في القرن وكان لها أثر مباشر أو غير مباشر على أمتنا العربية خاصة والأمة الإسلامية عامة ، وما أسفرت عنه هذه المؤثرات من وهن ، جعلنا نقبل باحتلال أراضينا من قبل الصهيونية العالمية والاعتراف بكيان أقامته على أرضنا المقدسة . والأدهى من ذلك أننا وصلنا إلى درجة السعي للتصالح مع ذلك الكيان والتسابق لكسب رضاه .

ثم أبين في هذا الكتاب نوعية القلاع التي ينبغي أن نعيد بناءها وتحصينها وكيفية ذلك كي نتمكن من توديع القرن العشرين وما زالت فينا بقية من أمل في النهوض واستعادة الحقوق العربية المغتصبة والكرامة الإسلامية المهدورة في جميع أنحاء العالم ، ولكي نتمكن ، أيضاً من استقبال القرن الواحد والعشرين وقد بدأنا نخطو على طريق النصر واستعادة الكرامة العربية والعزة الإسلامية ، ورفع رايات الإستقلال الحقيقي فوق ربوعنا .

وكان توجُّهي في إعداد هذا الكتاب أن أعتمد على ما خبرته بنفسي

وشهدته ، أكثر من اعتمادي على المصادر المطبوعة التي لا غنى عنها في أمور كثيرة ، مُتَّبِعاً في ذلك الإيجاز والبساطة في العرض ومستخدماً لغة يسيرة على الفهم لدى الصغار والكبار ، عسى أن يفيد من هذاالكتاب حكماؤنا وقادتنا وأبناؤنا الذين سيتحملون عبء الأيام القادمة وبذلك تكتمل حلقة الإعداد والعمل للمستقبل جامعةً خبرة الكبار وحنكتهم ، واندفاع الشباب وحماستهم ، وأمل الصغار وتطلعاتهم ، ولن أنسى ذكر عدد من المصادر والمراجع لمن يرغب من القراء في التوسع في بعض الأفكار الواردة ، والاستزادة من المعلومات .

ولا بد من ملاحظة أن هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ بقدرما هو كتاب يأخذ العبرمن التاريخ ، لذلك لم أعمد إلى استيفاء كل الأحداث التاريخية بل أخذت أمثلة تفيد فيما نريد استخلاصه من دروس . فإذا كان هناك نقص في الأحداث ، فليس ذلك من قبل إهمالها ولعدم أهميتها بل لأن الأمثلة التي أوردتها كافية .

أرجو أن يوفقني الله إلى ما فيه خير أمتنا ، وأن يكتبني مع المجاهدين ، فالجهاد باب من أبواب الجنة : جنة الخلد في السماء ، وجنة الحياة في الأرض ، والجهاد ليس قتالاً بالسيف أو بالمدفع فحسب بل هو عقيدة راسخة وعمل دؤوب ، وبناء حصين ، إنه حضارة وعمران ، لذلك كان باباً من أبواب الجنة كما قال الإمام علي بن ابي طالب (كرم الله وجهه) مستنداً في قوله هذا إلى كتاب الله عَزَّ وجل ، القرآن الكريم ، الذي هو نورنا ودليلنا إلى النّصر والعزة والكرامة .

9/ شباط/ 1995 م/ الموافق لـ 9/ شباط 1424/ مولد الرسول ﷺ .

الفصل الأول
القرن العشرون وما حمل معه

1 ـ الحرب العالمية الأولى ، والثورة العربية الكبرى .

أطل علينا القرن العشرون وكانت الإمبراطورية العثمانية الإسلامية تعاني من مرض عضال بسبب تسلل عناصر يهود الدونمة إلى السلطة فيها عن طريق جمعية تركيا الفتاة التي كانت تدعو إلى تتريك كل الشعوب التي تشملها الإمبراطورية العثمانية ، كانت تلك الشعوب وخاصة العربية منها ، قابلة الانضواء تحت راية الدولة العثمانية انطلاقاً من أن هذه الدولة إسلامية ، والإسلام لا يفرق بين عربي وأعجمي ، بل يصهر كل الشعوب في بوتقة واحدة ليجعل منها أمة واحدة بالمفهوم القرآني ، وشخصية حضارية واحدة بالمفهوم الحديث ، الذي لا يختلف عن المفهوم القرآني من حيث عناصر تكوين الأمة ، إذ إن الأمة في القرآن الكريم تتكون من مجموعة بشرية تؤمن بفكر واحد وتتفاعل مع هذا الفكر من خلال لغة أساسية واحدة .

وكذلك الشخصية الحضارية لمجموعة بشرية معينة تتكون من فكر معين تؤمن به هذه المجموعة وتتفاعل معه خلال لغة أساسية واحدة .

ولكن عندما أخذ ذوو السلطان في الدولة العثمانية يدعون إلى التتريك مثيرين بذلك النزعة القومية العنصرية التي تعاظمت في أوربا وانتقلت نيرانها وعدواها إلى منطقتنا ، أخذت الشعوب المنضوية تحت لواء الدولة العثمانية تتحرك للانفصال عنها، بدوافع قومية رداً على النزعة القومية الطورانية التي

أثارها قادة الدولة وعلى رأسهم كمال أتاتورك بعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد ، الذي رفض مساومة اليهود على فلسطين . ومن الشعوب التي تحركت للانفصال عن الدولة العثمانية ، الشعب العربي ؛ فكانت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين بن علي شريف مكة المكرمة حينذاك . ولكن الثورة وقعت فريسة أعداء العرب والمسلمين ، إذ تحالفت الثورة العربية مع الدول التي حاربت الدولة العثمانية التي كان يطلق عليها حينذاك اسم « الرجل المريض » ويعدون أنفسهم ورثته . ولهذا تآمروا فيما بينهم على اقتسام تركة ذلك الرجل بعد موته ، وكان التركيز على أكثر ممتلكاته قيمة وغنىً ، تلك هي البلدان العربية ، وخصوصاً دول الخليج العربي بما فيها العراق ، ودول بلاد الشام بما فيها فلسطين ، وذلك بهدف الاستيلاء على موارد النفط ، وإقطاع فلسطين لليهود .

والدرس الجوهري الذي ينبغي استخلاصه من هذا الحدث التاريخي البارز هو أن تحالف العرب والمسلمين مع أعداء الإسلام ، واعتمادهم على من لا يكنون لهم أساساً نوايا الخير والوفاء ، فإن النتيجة سوف تكون وبالاً على العرب والمسلمين ، إذ رأينا أن تحالف الثورة العربية مع الحلفاء الغربين كان مآله الخراب والدمار والتمزيق لأمتنا ، وضياع فلسطين وإسكندرون وكيليكيا وغيرها من الأراضي العربية ؛ كما أن اعتمادنا على السوفيات فيما بعد أدى إلى ترسيخ الكيان الصهيوني وإلى عدم قدرتنا على التحرير ، وهكذا نستخلص أنه لا بد من الاعتماد على الذات ، والإفادة بحنكة وفطنة من تجارب العالم في مختلف مناحي الحياة ، وخصوصاً العلمية والتقنية للوصول إلى القوة التي تحتوي عناصر النصر والتي دعانا إليها الله عزَّ وجل في كتابه الكريم إذ قال : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوَّ الله وعدوكم . . .** ﴾ (الأنفال : 60) .

أما الوسيلة التي توصلهم إلى غاياتهم ، وتحقق لهم أهدافهم فهي إضعاف

العرب وتمزيقهم عن طريق تفكيك الشخصية العربية الحضارية وتحليلها إلى عنصريها : العروبة والإسلام » وخلق صراع بين هذين العنصرين ، وتسعير خلافات بين المسلمين بعد تفتيتهم وإثارة النعرات الطائفية بينهم ، ثم تحريض المجموعات العرقية التي كانت مندمجة في إطار الشخصية العربية على الانفصال والتمرد ، وإشعال نيران الحروب الأهلية ، وتسليط أنظمة دكتاتورية قهرية على الشعب العربي تحرمه من الحريات الأساسية ، وتكبته وتزجه في متاهات المذلة والاستكانة والخضوع .

لذلك حاك الغرب بالاتفاق مع اليهودية العالمية مؤامرة تقسيم الوطن العربي من وراء ظهر الشريف حسين ، فوقعوا اتفاقية سايكس بيكو بين بريطانيا وفرنسا عام 1916 م = 1345 م .ر(*) ، أي قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى ، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى اللذين وقعا الوثيقة ممثلين عن حكومتي بلديهما وهما السير مارك سايكس ، أمين سر مجلس الوزراء البريطاني ، وم . جورج بيكو ، مبعوث سياسي فرنسي مطلق الصلاحية ، تقاسما بموجبها بلاد الشام ، فكانت سورية ولبنان من نصيب فرنسا ، وفلسطين ، (غرب الأردن) ، وشرق الأردن والعراق من نصييب بريطانيا ، إضافة إلى اقتسام الشمال الإفريقي العربي ، فكانت مصر والسودان من نصيب بريطانيا ، وليبيا من نصيب إيطاليا ، والمغرب والجزائر وتونس وموريتانيا من نصيب فرنسا . . . أما الخليج العربي فقد قُسِّم إلى إمارات صغيرة المساحة قليلة السكان غنية الموارد ، ووضعت كلها تحت الحماية البريطانية مع عدن (جنوب اليمن) ، حتى الدول العربية التي كانت ظاهرياً مستقلة ، كانت في حقيقة الأمر خاضعة للنفوذ الأجنبي ، وبذلك حقق الغرب هدف تفتيت الوطن العربي جغرافياً وبشرياً وثروات ، بحيث أصبحت أكثر المناطق فقراً أوسعها دولاً وأكثفها

(*) حسب هذا التأريخ الجديد يطرح 571 ، وهو تاريخ مولد الرسول ﷺ من التاريخ الميلادي المسيحي الشمسي 1916 ـ 571 = 1345 م .ر .

سكاناً ، وأكثر المناطق ثراء أصغرها دولاً وأقلها سكاناً ، وذلك كيلا تستطيع أية دولة أن تنهض أو تقوى على مواجهة مثل هذه المخططات وإحباطها .

وفي عام 1917 م = 1346 م .ر. وهو العام الذي حطت الحرب العالمية الأولى فيه أوزارها بهزيمة تركيا وألمانيا وانتصار بريطانيا وفرنسا وحلفائهما ، صدر في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) من ذلك العام وعد عرف باسم وعد بلفور ، على صيغة رسالة موجهة من السيد بلفور(*) ، وزير خارجية بريطانيا حينذاك ، إلى اللورد اليهودي البريطاني ، روتشلد ، وقد نشرت هذه الرسالة لأول مرّة في صحيفة جويش كرونيكل Jewish Chronicle ، والصحيفة العربية المصرية « المقطّم » في 9/ تشرين الثاني (نوفمبر) 1917 م = 1346 م . ر ؛ وأعلن عنها رسمياً لأول مرّة في فلسطين أثناء حفل دعا إليه الجنرال بولز Bols في بيته في فلسطين ، وضم أعياناً ورجال دين فلسطينيين ، وذلك في 20/ 2/ 1920 م = 1349 م . ر . منحت بريطانيا بموجب هذه الرسالة التي عرفت بـ« وعد بلفور » فلسطين لليهود ليُنشئوا فيها وطناً قومياً يهودياً ، بهدف إقامة دولة يهودية خالصة في النهاية ، وطمس اسم فلسطين ومحوه من الخارطة الجغرافية العالمية (وقد حدث ذلك فعلاً طيلة المدة السابقة للقرار الأردني بفك الارتباط مع الضفة الغربية ، وإعلان دولة فلسطين حيث خلت القواميس والخرائط من اسم فلسطين وحل محلها ، « إسرائيل » والمملكة الأردنية الهاشمية) ، وكان ذلك الوعد جزءاً من مخطط شامل وضعه استراتيجيو أوربا باسم « توصيات بانرمان » التي صدرت نتيجة مؤتمر دعا إلى عقده عام 1905 م = 1334 م . ر ، حزب المحافظين البريطاني ، وقدم توصياته عام 1907 م = 1336 م . ر . إلى كامبل بانرمان ، وعرف التقرير باسمه ، وربما يتساءل امرؤ مستغرباً : هل من المعقول أن يستمر مؤتمر في أعماله كل هذه

(*) Khalidi, Walid: «From Haven To . Conquest» The Institution for Palestine Studies, Beirut

المدة ؟ نعم . لأنه لم يكن مؤتمراً بالمعنى التقليدي للكلمة ، حيث يلتقي عدد من الشخصيات التي تمثل دولاً أو أحزاباً أو هيئات أو مجالات اختصاص في مكان محدد ولفترة محددة ولغاية مقرّة سلفاً ؛ لا . بل كان ذلك المؤتمر فريداً من نوعه ، إذ وُجهت الدعوة إلى كبار علماء ذلك العصر من جميع الاختصاصات : في التاريخ والاجتماع ، والزراعة ، والبترول ، والجغرافيا ، والاقتصاد . . . الخ . ومن جميع الجنسيات الأوربية خصوصاً أولئك التابعين لرعاية الإمبراطوريات الاستعمارية حينذاك ، ليس إلى الاجتماع في مكان معين ولزمان محدد ، بل لإعداد أبحا ث ودراسات حول الأوضاع الراهنة لأوربا وإمبراطورياتها ، وحول مستقبلها ، وكيف يمكن أن تتلافى هذه الإمبراطوريات السقوط ، وكيف تتابع نموها ونهوضها ، وغير ذلك مماله علاقة بهذا الهدف مثل دراسة مناطق العالم الأخرى في آسيا وأفريقيا ، ومختلف بلدان العالم القديم ، لَبّى هؤلاء العلماء الدعوة واستجابوا لذلك الطلب ، ومن بينهم جيمس ، مؤلف كتاب « سقوط الإمبراطورية الرومانية » ، ولوي مادلين ، مؤلف كتاب « نشوء إمبراطورية نابليون وسقوطها » ، والبروفسور ليستر ويْسنْغ ، وغيرهم .

لم ينشر النص الكامل لهذا التقرير بما فيه من توصيات حتى الآن ، على الرغم من أن القانون البريطاني يفرج عن الوثائق السرية بعد مرور خمسين عاماً ، إلا أن الكثير من فقراته قد تسرَّبت ونشرت ، نقتطف منها فقرتين فيما يلي :

الفقرة الأولى تقول : « إن إقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط أوروبا بالعالم القديم ، ويربطهما معاً بالبحر الأبيض المتوسط بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة عدوّة لشعب المنطقة وصديقة للدول الأوربية ومصالحها ، هو التنفيذ العملي العاجل للوسائل والسُّبُل المقترحة . » أما الفقرة الثانية فتقول : « هناك خطر مُهَدِّدٌ

يكمن في البحر الأبيض المتوسط بالذات ، لكونه همزة وصل بين الشرق والغرب ، ويعيش على شواطئه الجنوبية والشرقية بصفة خاصة شعبٌ واحد تتوافر له وحدة التاريخ والدين واللغة ، وكل مقومات التجمع والترابط ، ذلك فضلاً عن نزعاته الثورية وثرواته الطبيعية الكبيرة . فماذا تكون النتيجة لو نقلت شعوب هذه المنطقة الوسائل المدنية ومكتسبات الثورة الصناعية الأوربية ، وانتشر في هذه المنطقة التعليم والثقافة ؟ إذا حدث ذلك فسوف تحل الضربة القاضية بالإمبراطوريات القائمة »(*) .

واضح تماماً من هاتين الفقرتين أن الغرب مصمم مسبقاً على منع الشعب الذي يمتلك أكثر من نصف حوض البحر الأبيض المتوسط ، وممسك بمفاتيح الاتصالات العالمية ، وخزائن الثروات من أن يتمكن من استثمار ما يتمتع به من خصائص وميزات ، وما وهبته الطبيعة من خيرات لصالحه أو لصالح الأرض التي يقيم عليها . كما تساعدنا هاتان الفقرتان على اكتشاف سر إصرار أمريكا والغرب على حرمان العراق وإيران وباكستان وكل من يمكن أن يكون ذا فاعلية في المجال العربي أو الإسلامي من الحصول على التقنية الحديثة ، أو من احتمال تطوير قوته الذاتية العلمية والعسكرية والاقتصادية ، علماً بأن أمريكا والغرب معها يفتحون الأبواب لإسرائيل على مصراعيها ، ونفهم كذلك من هاتين الفقرتين أن هناك سبلاً ووسائل قد رسمها الغرب لتحقيق سيطرته على هذه المنطقة وشعوبها وثرواتها ، كما ندرك أنهم وضعوا آلية للتنفيذ ، فكيف إذن يمكن أن يتحالفوا مع عربي مسلم مثل الشريف حسين بن علي ويوفوا معه بعهودهم ، أو يلتزموا بما وقعوا عليه معه من مواثيق ؟! وكيف نُصَدِّق أنهم يريدون لنا خيراً مهما كانت لغتهم مفعمة بعبارات الإصلاح والتقدم والحرية والخير ؟! . . إن ذلك كله لهم وليس لنا ولو كان ظاهر النصوص يشير إلى منطقتنا ، فالخير والتقدم والحرية التي يريدونها لمنطقتنا إنما هو الخير

(*) وثائق التدخل الأجنبي في الوطن العربي : مكتب الثقافة والدراسات والإعداد الحزبي ، حزب البعث العربي الاشتراكي ، دمشق .

والتقدم والحرية التي يعود عليهم نفعها ، أما إذا كان لصالحنا فينقلب شراً ورجعية وإرهاباً ؛ تماماً كما يفعل شمعون بيريز ، وزير خارجية « إسرائيل » وغيره من قادة الأعداء السياسيين والمفكرين والاقتصاديين عندما يطرحون مشاريع استثمارية وسياحية وصناعية وزراعية في المنطقة تحت شعار تطوير « شرق أوسط جديد » .

باختصار يمكن تلخيص أهداف الغرب في منطقتنا العربية الإسلامية فيما يلي :

آ ـ المنطقة تشكل وحدة جغرافية : إذن ينبغي تقسيمها بطريقة يستحيل معها التوحيد الجغرافي والسياسي ثانية . كيف ؟ تقول الفقرة الأولى من توصيات بانرمان بضرورة إقامة حاجز بشري قوي قرب قناة السويس (ليس فقط من أجل السيطرة على هذا الممر البحري الهام ، بل أيضاً لأن تلك القناة تشكل فاصلاً بين مشرق الوطن العربي ومغربه أيضاً) يكون معادياً للعرب والمسلمين وصديقاً للغرب ومصالحه ، من أين يأتون بهذا الحاجز ؟ أية مجموعة بشرية تتوافر فيها هذه الشروط ؟!! الجواب هو « اليهود » بقيادة الحركة الصهيونية العالمية . فاليهود أعداء تاريخيون ودينيون للعرب والإسلام والمسلمين ، منذ أن نزلت أول آية من آيات القرآن الكريم على سيدنا محمد (ﷺ) إذ أخذوا يكيدون لهذا الدين وأتباعه منذ ذلك الحين .

وبذلك يلتقي أكبر هدف للصهيونية مع هدف الغرب وهو « تفكيك الشخصية العربية الحضارية » وهدمها تماماً عن طريق فصل الإسلام عن العروبة وخلق صراعات بينهما ؟ الأمر الذي إذا تحقق سوف يسفر تلقائياً عن التفكك الجغرافي والسياسي والفكري للأمة العربية ، ويسهل على الغرب والصهيونية العالمية إحكام السيطرة والهيمنة على شعب هذه المنطقة وثرواتها ومقدراتها ، أما المكان الذي سيغرس فيه هذا الحاجز البشري فقد حددته الفقرة ذاتها بأنه مجاور لقناة السويس ، أي في المنطقة التي يمكن أن تشكل فاصلاً غير قابل للاجتياز بين عرب إفريقيا وعرب آسيا ، ولا بد لهذا المكان أن يكون ذا صبغة

دينية تستغل لجذب ذلك الحاجز البشري إليه ولا تتوافر هذه المواصفات والمعطيات إلا في فلسطين ، التي هي هدف من أهداف الحركة الصهيونية كذلك . فكانت هي الضحية .

ب ـ المنطقة مأهولة بشعب واحد ، ولغة واحدة وتاريخ واحد ، ونمط حياة واحد ، يكاد يكون متطابقاً في جميع أنحائها ، والأهم من ذلك أن الفكر الذي يميز هذا الشعب هو الإسلام الذي بتفاعله مع العربية بنى شخصية حضارية ما زال العالم ينهل من منابعها حتى الآن على الرغم مما أصابها من تفكك وتحلل . إذن لا بد من هدم هذه الشخصية ، كما أسلفنا وهذا هدف يلتقي عنده الصهاينة والغربيون .

من أجل ذلك كله كانت اتفاقية سايكس ـ بيكو ، وكان وعد بلفور ، وكان قرار تقسيم فلسطين ، وكان كل ما نلحظه اليوم من تلاحم غير قابل للانفكاك في المدى المنظور بين القوى الاستعمارية والإمبريالية الغربية وبين دولة « إسرائيل » . ولا ننسى أيضاً ما كان لليهود من دور في تشجيع الشيوعية وقيادتها ، إذ كانت أكثرية اللجنة المركزية الأولى في موسكو من اليهود ، كما ينبغي الا ننسى أيضاً أنه كان لهم دور في انهيار الاتحاد السوفياتي(*) . وهذا يعني أن اليهود يستطيعون تحقيق أهدافهم ، ليس لأنهم أقوياء ولا لأنهم كثر ، بل لأنهم منظمون بدقة وملتزمون بشدة بأيديولوجية واحدة هي الأيديولوجية التوراتية ، ومنضبطون تماماً بتوجيهات قيادتهم ؛ إلا أن ذلك لا يعني أبداً أن إحباط مخططاتهم وإفشالها أمر عسير ، بل العكس هو الصحيح .

ولا يتطلب ذلك إلّا أن نفهم هذا العدو جيداً ، وأن ندرك مراميه ، وأن نلتزم بقرآننا (بالقدر الذي يلتزمون هم بتوراتهم على الأقل) الذي يهدي دائماً للتي هي أقوم .

(*) انظر جريدة تشرين السورية العدد الصادر يوم 5/ 9/ 1992 م = 1421 م . ر ، حوار مع السيدة نينا أندرينا ، أمين عام الحزب الشيوعي البلشفي لعموم روسيا ؛ أجرى الحوار السيد طالب قاضي أمين .

إذن أطل علينا القرن العشرون بويلات وكوارث منها : احتلال أجنبي فرنسي وإنكليزي وإيطالي ، ومن ثم أمريكي ، وغزوة صهيونية شرسة يعززها العالم بأسره تقريباً ، وتقسيم جغرافي وحملة تشكيك في فكرنا الإسلامي من قبل المحتلين والغزاة ، وخلق هوة بينه وبين النزعة القومية الوحدوية وإثارة صراع بينهما ، حتى إذا ما آن الأوان طالبونا بنسيان الدعوة القومية ومحو كلمة « العروبة » من أذهاننا ، لأنها أصبحت دعوة عنصرية متخلفة عن العصر الذي ينبغي أن يكون بنظرهم « شرق أوسط جديد » تكون فيه إسرائيل القطب الأقوى ، ثم تحريضنا على ضرب الإسلام والملتزمين به لأنهم أصبحوا ، أيضاً بنظرهم ، إرهابيين .

إلا أني سأركز فيما يلي على الغزوة الصهيونية لفلسطين ، لأنها من أخطر الأحداث التي وقعت في القرن العشرين والتي تؤثر على مصير الأمة العربية كلها وعلى الشعوب الإسلامية جميعها ؛ فهي غزوة استعمارية استيطانية توسعية عنصرية والمعركة ضدها معركة مصير ، إما نحن وإمّا هم ، في حين أن المعركة ضد الأشكال الأخرى من الاستعمار تتركز حول الاستقلال ، وليس هناك خطورة على الوجود والهوية ،

2 ـ احتلال بريطانيا لفلسطين وعهد الانتداب :

احتلت القوات البريطانية فلسطين إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وعملت عصبة الأمم حينذاك على تنفيذ قرار المجلس الأعلى للقوى المتحالفة الـذي اتخـذ فـي سـان ريمـو فـي 1920/4/25=1349م . ر .(*) بشـأن وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني من أجل تنفيذ وعد بلفور .

نص صك الانتداب صراحة على أن تعمل الدولة المنتدبة بكل الوسائل

(*) Cattan, Henry: "Palestine and the International Law" 2nd ed., 1976.

لتأمين إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين وعبارة « وطن قومي » لا تختلف من الناحية التطبيقية عن عبارة « دولة يهودية » ، إلا أنهم استخدموا العبارة الأولى تمويهاً من جهة ، وتخفيفاً للصدمة التي يمكن أن تحدثها العبارة الثانية عند العرب وعند غيرهم ممن لا يجدون أي مسوغ لمثل هذا التوجه .

أدرك الفلسطينيون خطورة الموقف ، وانطلقت الثورات ضد الانتداب وضد أطماع الصهيونية ، فتصدوا للهجرة اليهودية التي كانت تتم برعاية الحكومة البريطانية المنتدبة على فلسطين وبحمايتها ، وتصدوا لسياسة التمييز في القوانين والمعاملة ، والتعليم ، والزراعة ، وفي معظم مناحي الحياة بين العرب واليهود ، حيث كانت الوكالة اليهودية تقوم بدور حكومة داخل حكومة لها مناهجها التربوية ، وسياستها الاقتصادية الخاصة باليهود ، ولها قواتها العسكرية ومعسكرات تدريبية خاصة بها أيضاً ؛ في حين كان العرب محرومين من كل ذلك خاضعين بالقوة لما ترسمه حكومة الانتداب ، إضافة إلى أن حكومة الانتداب تفرض ضرائب عالية على الأراضي العربية ، وعلى منتجاتها ، وتفرض سياسة سعرية جائرة ، بحيث تجعل الفلاح العربي كأنه يفلح في الهواء ولا يحصد إلا هباء ، وفتحت أمام شباب الفلاحين العرب باب التوظيف في مجالات مثل الجيش الاحتياطي ، والبوليس الإضافي ، وقوة حدود عبر الأردن ، وغير ذلك من مجالات هي أشبه بما يسمى اليوم بالبطالة المقنّعَة ، وتدفع لهم رواتب عالية بهدف إقناعهم عملياً بعدم جدوى الأرض وبعبثية العمل فيها ، وبالتالي دفعهم إلىٰ التخلص منها وبيعها كي تنتقل بشكل أو بآخر إلى اليهود . ولكن الفلسطينيين تمسكوا بالأرض تمسكاً شديداً ، فشكلوا جهازين أحدهما مالي وهو « صندوق الأمة » . وكانت مهمته شراء أرض الفلاح الذي لم يعد قادراً على الاستمرار بفلاحة أرضه نتيجة السياسة البريطانية ، وإعطاءه ثمن تلك الأرض التي تسجل باسم « الأمة » (وكأنها عملية تأميم شعبية من نوع خاص) وتبقى الأرض بتصرف صاحبها ، ويقوم

الصندوق أيضاً بدعمه مالياً ليتمكن من الاستمرار باستثمار أرضه . أما الجهاز الثاني ، فهو عسكري عرف باسم (الكف الأسود) مهمته قتل من يثبت أنه باع ولو شبراً واحداً من الأرض إلى اليهود . وهكذا استطاع الفلسطينيون أن يمنعوا تسرب الأرض إلى اليهود ، أما الأراضي الشاسعة مثل مرج ابن عامر وغيره فقد تسربت إلى اليهود في أواخر العهد العثماني وأيام ما كان يعرف بـ« السفربرلك » عن طريق عائلات وأسر يمكن وصفها الآن بأنها سورية ولبنانية (ولكنها لم تكن توصف هكذا حينذاك لأنه لم يكن هناك كيان اسمه لبنان ولا كيان اسمه سوريا ، بل كانت المنطقة كلها تشكل ولاية واحدة هي ولاية دمشق ، أو بيروت ، أو القدس حسب التقسيمات الإدارية وما يجري عليها من تعديلات) ، وقد حصل ذلك عندما حاولت السلطات العثمانية تسجيل الأراضي في الدوائر العقارية لحصرها وإزالة شيوعها ، ظن الناس أن الحكومة العثمانية إنما تفعل ذلك لضبط الناس وحصرهم وسوقهم إلى الحرب الأمر الذي كان ذهاباً واختفاءً بلا عودة ، إضافة إلى أن العرب فقدوا ثقتهم في السلطة العثمانية بسبب سياسة التتريك ؛ ولأنهم كانوا يرون أن الحرب التي يساقون إليها مع الأتراك ليست حربهم ، فقد تهربوا من تسجيل الأراضي بأسمائهم كيلا يقعوا في مصيدة العسكرية ، كما كانوا يظنون . فاغتنمت بعض العائلات مثل آل سرسق ، وآل مدوّر وآل تويني ، وآل القوتلي ، وآل بيضون وغيرهم ذلك وسجلوا هذه الأراضي بأسمائهم ، وبما أن هؤلاء قد حصلوا على الأرض لقاء لا شيء استهانوا بها وأخذوا يبيعونها ، سواء مباشرة إلى اليهود أو إلى أناس غير يهود سرّبوها فيما بعد إلى اليهود(*) . أما الدعايات التي رافقت نكبة فلسطين والتي ما زال يصدقها حتى الآن بعض المثقفين والزعماء

(*) ASurvey of Palestine: prepared for the information of the Anglo American committee of Inquiry, printed by the Government printer, Palestine, 1946

السياسيين ورجال الدين من أن الفلسطينيين باعوا أرضهم لليهود ، ما هي إلا من صنع أجهزة الإعلام الصهيونية والغربية المؤيدة لها لتحقيق أكثر من هدف ، مثل تنفير العرب من إخوانهم الفلسطينيين ، والحيلولة دون تعاطفهم معهم ، أو لمنع نشوء ما يمكن أن يكون حماساً واندفاعاً للدفاع عن هؤلاء الإخوة المنكوبين ، الذين كانوا في واقع الأمر ضحية مؤامرة دولية كبرى .

استمرت الثورات الفلسطينية منذ الاحتلال البريطاني حتى يومنا هذا ؛ ولم تمنعهم الظروف القاسية التي يعيشونها كمشردين ولاجئين ، ولا تواطؤ العالم ضدهم من مواصلة الجهاد ، ومن إصرارهم على تحرير أرضهم والعودة إلى وطنهم مهما كلفهم ذلك من مرارة وعذاب وتضحيات .

ومن أبرز الثورات قبل العام 1948 م = 1377 م . ر ثورة الـ« 36 » ، وكانت هذه الثورة من الفرص التي لم يستطع العرب انتهازها وإحباط المشروع الصهيوني برمته من خلالها ، وسوف أتعرض لهذه الفرصة وغيرها في فقرة خاصة أبين فيها كيف أضاع العرب هذه الفرصة وسواها .

3 ـ الحرب العالمية الثانية :

اندلعت الحرب العالمية الثانية في 1/ 9/ 1939 م = 1368 م . ر . وانتهت في 10/ 8/ 1945 م = 1374 م . ر . وأسفرت الحرب مَرَّة أخرى عن انتصار الحلفاء ، الذين من أبرزهم بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي ، على دول المحور وهي ألمانيا وإيطاليا ومن ثم اليابان ، ومن نتائج الحرب :

آ ـ استسلام ألمانيا وتقسيمها إلى كتلتين : شرقية خاضعة لاحتلال الاتحاد السوفياتي الذي أقام فيها نظاماً شيوعياً على غرار جميع الدول الأوربية التي كانت من نصيب السوفيات بعد تقاسم غنائم الحرب ، وكتلة غربية تحت الاحتلال البريطاني والفرنسي والأمريكي الذين أقاموا فيها نظاماً رأسمالياً ليبرالياً .

ب ـ استسلام اليابان بعد ضربها بقنبلتين نوويتين إحداهما دمّرت مدينة هيروشيما والأخرى دَمَّرت مدينة ناغازاكي .

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن دول الغرب التي تتباكى اليوم على الإنسانية وتدعي أنها ضد استخدام الأسلحة الفتاكة ، النووية منها أو الكيماوية أو البيولوجية هي التي ابتكرتها وهي التي استخدمتها ضد الآمنين المدنيين كما فعلت في اليابان ، وفي حرب الخليج الثانية ، وما زالت على استعداد لاستخدامها إذا شعرت تلك الدول أن مصالحها قد تهدَّدت ، ودليل ذلك عدم قبول الولايات المتحدة الاعتذار عن ضرب هيروشيما وناغازاكي ، في حين أصرت على اليابان أن تعتذر هي عن عملياتها الانتحارية ضد الأسطول الأمريكي في الحرب ذاتها ؛ وعدم قبول أمريكا اليوم الضغط على « إسرائيل » كي توقع على معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية ، علماً أن توقيعها لن يغير من الأمر شيئاً لأن « إسرائيل » تمتلك الآن أكثر من مئتي رأس نووية ، كما أن أمريكا نفسها استخدمت الأسلحة الكيماوية في فيتنام(*) .

لقد أصيب الشعب العربي بخيبة أمل بسبب انهزام ألمانيا وحليفيها ، ليس لأن الألمان كانوا من أنصار العرب والمسلمين فالنازية الألمانية صَنَّفت العرب في آخر الشعوب ؛ ولكن لأن الألمان كانوا ضد اليهود لأن اليهود كانوا سبباً في هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ، كما يدعي المؤرخون الألمان ، ولأنهم كانوا يعملون على تخريب ألمانيا ، إضافة إلى أن اليهود اشتركوا بفيلق يهودي في القتال إلى جانب دول الحلفاء ضد ألمانيا في الحرب العالمية الثانية ، إذن كان تعاطف العرب مع ألمانيا وتمنيهم النصر للألمان من باب « عدوٌ عدوِك صاحبك » ، وأملاً في أن انتصار الألمان سوف يضع حداً لمطامع

(*) جريدة تشرين (السورية) ، العدد (6050) ، الثلاثاء / 10/ 1994 م ، ص6 .

اليهود في فلسطين ويسقط المشروع الصهيوني .

ومع ذلك لم يستطع العرب استثمار الحرب العالمية الثانية لتحقيق بعض المكاسب ، كما فعل اليهود ، وهذه أيضاً فرصة أخرى يمكن ضمها إلى الثورة الفلسطينية الكبرى (عام 1936 م = 1365 م . ر) لأنهما كانتا متزامنتين ، ولكنها ذهبت سدى .

4 ـ الأحداث التي حصلت في منطقتنا بعد الحرب العالمية الثانية :

أما أبرز الأحداث التي حصلت في منطقتنا العربية بعد الحرب العالمية الثانية والتي كان لها أثر في ما آلت إليه أمتنا ، فهي :

1 ـ تحويل إمارة شرق الأردن إلى مملكة باسم « المملكة الأردنية الهاشمية » وتتويج الأمير عبد الله بن الحسين بن علي الهاشمي ملكاً عليها عام 1946 م = 1375 م . ر .

2 ـ حصول سوريا ولبنان على الاستقلال بحيث أصبحت كل منهما دولة مستقلة ذات سيادة ، إذ تم الجلاء الفرنسي عن سوريا في 17/ 4/ 1946 م = 1375 م . ر .

3 ـ صدور قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين : يهودية ، وعربية ، عن الجمعية العمومية للأمم المتحدة في 29/ 11/ 1947 م = 1376 م . ر .

4 ـ انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في 15/ 5/ 1948 م = 1377 م . ر ، وفي اللحظة ذاتها أعلنت القيادة الصهيونية قيام دولة « إسرائيل » وأعلنت الدول العربية دخول الجيوش العربية إلى فلسطين لإحباط دولة « إسرائيل » وإسقاطها ، أي أن الحرب العربية ، الإسرائيلية الأولى قد بدأت ، إلا أن الوقائع والحقائق أثبتت أن الجيوش العربية قد دخلت لتنفيذ قرار التقسيم (وليتها فعلت ذلك حقاً) ، وللحيلولة دون انتشار شرارة الثورة الفلسطينية والحرب إلى البلدان العربية كما ذكر الأمين العام للجامعة العربية في

مذكرته التي رفعها إلى الأمين العام للأمم المتحدة : في 14/ 5/ 1948 م = 1377 م . ر[*] .

وليت الأمر اقتصر على ذلك ، إذ كثيراً ما كانت هذه الجيوش وخصوصاً الجيش الشعبي المعروف بجيش الإنقاذ ، تنهزم أمام الصهاينة تاركة الشعب العربي أمام خيارين : إما أن يكونوا فريسة للإرهاب الصهيوني الحاقد ، وإما أن يفروا بجلودهم ليصبحوا لاجئين مشردين ، الأمر الذي أدى إلى تشريد حوالي نصف مليون فلسطيني عربي غالبيتهم من المسلمين ، وإلى تعزيز دولة الكيان الصهيوني وتوسعها .

وهذه أيضاً واحدة من الفرص التي لم يعرف العرب كيف يتعاملون معها ويستثمرونها لصالحهم على المدى البعيد .

5 ـ بدء مرحلة الانقلابات في سوريا ، وبعض الأقطار العربية الأخرى بعد هزيمة العرب في أولى حروبهم ضد « إسرائيل » ، وحدوث نكبة فلسطين ، بحجة أن الحكام الذين كانوا يقودون الأمة في تلك المرحلة قد خانوا أو تهاونوا في القضية القومية .

6 ـ انقلاب مصر الذي أطاح بالملك فاروق وحوّل مصر إلى جمهورية عرفت باسم « الجمهورية المصرية » وكان ذلك في 22/ 7/ 1952 م = 1381 م . ر . قام بالانقلاب مجموعة من الضباط أطلقوا على أنفسهم اسم « الضباط الأحرار » برئاسة اللواء محمد نجيب الذي أُقصِيَ بعد فترة وجيزة ليحل محله في قيادة المجموعة وزعامة البلاد البكباشي جمال عبد الناصر ، تحوّل الانقلاب العسكري إلى ثورة قومية اجتماعية عرفت « بثورة يوليو »

(*) من التشرد إلى الدولة ، للمؤلف ، ص29 .

وانظر أيضاً : United Nations Library Documents, UN. 956. 9- A658

F. yahya: "the Palestine Question aud the Internationl Law", P.L.O.R.S. Beirut, June, 1950, PP. 43, 44.

وُضعت لها مبادئ وأسس وأهداف ضمن كتاب عنوانه : « فلسفة الثورة » تأليف جمال عبد الناصر .

في هذه المرحلة انفصل السودان عن مصر وأصبح دولة مستقلة ذات سيادة في حين كان حتى نهاية العهد الملكي جزءاً من وادي النيل حيث كان يُطلق على الملك فاروق لقب ملك مصر والسودان .

وهنا يفرض سؤالٌ نفسه : لماذا لم تبق مصر والسودان دولة واحدة ؟! بل لماذا لم تُعَزَّز تلك الوحدة التي كانت قائمة وتحوّل من وحدة شكلية (هذا إذا افترضنا أنها كانت شكلية فعلاً) إلى وحدة حقيقية ، خصوصاً أن ثورة يوليو وصفت نفسها بأنها ثورة قومية ووحدوية ذات أبعاد ثلاثة : البعد العربي ، والبعد الإفريقي ، والبعد الإسلامي .

7 ـ تأميم قناة السويس ، والعدوان الثلاثي . كان ذلك حدثاً بارزاً في تاريخ الأمة العربية الحديث ، إذ دفع بدولتين استعماريتين هما فرنسا وبريطانيا لغزو مصر متحالفتين مع « إسرائيل » عام 1956 م = 1385 م . ر . واحتلال قناة السويس ، ومدينتي السويس والإسماعيلية ، وكان سبب تأميم قناة السويس الذي أدى إلى هذا العدوان الثلاثي هو محاولة أمريكا منع مصر من بناء السد العالي على نهر النيل عن طريق سحب عرضها وإيقاف عرض البنك الدولي لتمويل هذا المشروع ، الأمر الذي جعل القيادة المصرية تؤمم قناة السويس لتأمين جزء من التمويل ، وعقدت اتفاقاً مع الاتحاد السوفياتي لبناء السد . وقد بُني السد فعلاً ، وقاوم الشعب العربي في مصر هذا العدوان بقيادة جمال عبد الناصر الذي أعلن استمرار القتال على صعيد شعبي ، فارتفعت أسهمه فاصبح زعيماً عربياً لا تُنقَضُ له كلمة ، وتعززت مكانته كزعيم عالمي ومؤسس لحركة عدم الانحياز بالاشتراك مع نهرو ، زعيم الهند ، وتيتو ، زعيم يوغسلافيا ، وسوكارنو ، زعيم أندونيسيا عام 1955 م = 1348 م . ر .

ومن الأسباب غير المباشرة لهذا العدوان الثلاثي على مصر تعاظم نشاط الفدائيين الفلسطينين الذين كانوا ينطلقون من قطاع غزة برعايةٍ ودعم من حاكم غزة حينذاك « مصطفى حافظ » وهو أحد رجالات ثورة يوليو ، عبر الضفة الغربية فيلجأون إلى سوريا أو إلى الأردن ثم يعودون إلى قطاع غزة عبر الضفة الغربية أيضاً وهم ينفذون عمليات ضد العدو الصهيوني ، ويحملون معهم الأدلة الواضحة على قيامهم بتلك العمليات وعلى نتائجها ؛ الأمر الذي جعل « إسرائيل » ترسل له رسالة مُمَوَّهة ومفخخة فانفجرت فيه وقتلته ، فكان شهيداً يستحق الإكبار .

أسفرت هذه المرحلة عن هزيمة بريطانيا وفرنسا وإسرائيل واضطرارهم إلى الانسحاب من جميع الأراضي التي احتلوها تحت ضغط المقاومة الشعبية العربية المصرية والفلسطينية ، وتحت ضغط الاتحاد السوفياتي حينذاك ، وتدخل الولايات المتحدة الأمريكية التي وجه رئيسها إنذاراً هاتفياً مقتضباً إلى حكومة « إسرائيل » بضرورة الانسحاب الفوري من المنطقة ، قائلاً : أريد أن أسمع غداً في نشرات الأخبار نبأ انسحابكم وأطبق سماعة الهاتف دون انتظار لأي جواب أو تعليق ، وبدأ ، فعلاً ، الانسحاب صبيحة اليوم التالي لهذه المكالمة .

لم يكن التدخل الأمريكي لسواد عيون مصر ، أو دعماً لها ، بل كان مدروساً ضمن خطة رسمتها الولايات المتحدة الأمريكية للدخول إلى المنطقة وفرض نفوذها فيها بدلاً من النفوذ البريطاني والفرنسي التقليدي ، ولهذا اتبعت الولايات المتحدة انسحاب التحالف الثلاثي من مصر بإصدار ما عُرِف في حينه باسم « مبدأ الفراغ » أو « مبدأ أيزنهاور » نسبة إلى رئيس الولايات المتحدة الذي صدر ذلك المبدأ باسمه ، ونجحت أمريكا في ذلك .

وكان من نتائج تلك الحرب (التي ترقم أحياناً بأنها الحرب العربية الإسرائيلية الثانية) وضع قوات طوارئ دولية في سيناء وعلى ضفاف القناة ،

وفتح خليج العقبة وقناة السوس للملاحة الدولية بما فيها الملاحة الإسرائيلية .

8 ـ قيام الوحدة بين مصر وسوريا في 22/ 2/ 1958 م = 1387 م . ر . التي لم تدم طويلاً رغم التأييد الشعبي المطلق لها في جميع أنحاء الوطن العربي إذ وقع الانفصال في 28/ 9/ 1961 م = 1390 م . ر .

ويمكن أن يُعَدَّ هذا الحدث التاريخي الهام من الفرص التي لم يستطع العرب استثمارها .

9 ـ وقوع انقلاب في العراق أطاح بالملكية ، وحول نظام الحكم فيها إلى نظام جمهوري . ثم تعاقبت الانقلابات إلى أن استلم السلطة حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق في 1963/2/8 م = 1392 م . ر .

10 ـ ظهور منظمة التحرير الفلسطينية ، بدأت عمليات فدائية فلسطينية تصدر باسم « حركة التحرير الوطني الفلسطيني » (فتح) بمساعدة سوريا في 1965/1/1 م = 1394 م . ر . وهو اليوم الذي يعد مولدًا للثورة الفلسطينية المعاصرة ، إذ شرع الفلسطينيون في تشكيل فصائل مقاومة بعد أن رأوا فشل الوحدة التي كانت أمل الأمة العربية في توسيع نطاقها وشمولها لكل الدول العربية ، وفي تحرير ما اغتصب من أرض العرب وحقوقهم ، ولهذا قرر الفلسطينيون ألا يعلقوا مصيرهم بمجريات الأحداث ، بل أرادوا أن يخلقوا الأحداث ويحركوها في اتجاه تسخين الأجواء بإشراك الشعب العربي في عملية التحرير ، وبالتالي دفع الحكومات العربية للإسهام فيها رسمياً ، فبادروا إلى الكفاح المسلح ضد الكيان الصهيوني المغتصب لفلسطين .

وفي مؤتمر القمة العربية الأولى في القاهرة بين 13-1964/1/17م= 1393م . ر. عمل الرئيس جمال عبد الناصر على استصدار قرار من القمة يُمنح الفلسطينيون بموجبه فرصة إقامة شكل من أشكال التنظيم يمثلهم . وكلفت

القمة الأستاذ المحامي أحمد الشقيري ، ممثل فلسطين في مؤتمر القمة والجامعة العربية ، باستشارة الشعب الفلسطيني حول هذا الموضوع .

قام الشقيري بجولة في أماكن تجمع الفلسطينيين في الوطن العربي والتقى جماهير حاشدة متحمسة جداً ، ولكنه كان قد اتخذ قراراً مسبقاً بتشجيع من جمال عبد الناصر بتشكيل ما عرف بـ « منظمة التحرير الفلسطينية » وأطلع الشعب الفلسطيني على نظامها الداخلي وعلى ميثاقها اللذين لقيا تأييداً كبيراً من الشعب الفلسطيني . وعقد أول مؤتمر للمجلس الوطني الفلسطيني في القدس (بوصفها عاصمة فلسطين) في 1964/5/28م= 1393م . ر . وكانت من أولى مهام هذه الدورة للمجلس الوطني إقرار الميثاق والنظام الداخلي ، والإعلان رسمياً عن قيام منظمة التحرير الفلسطينية (م . ت . ف) . ثم عُرض ما توصل إليه الشعب الفلسطيني على مؤتمر القمة العربية الثانية في الإسكندرية في أيلول (سبتمبر) من عام 1964م= 1393م . ر . فوافقت القمة على ذلك وأصبحت (م . ت . ف) منذ ذلك الحين تمثل الكيان الفلسطيني . وهذه فرصة أخرى لم تستثمر بالشكل الصحيح .

وفي 1974/10/14م= 1403م . ر . اعترفت الأمم المتحدة بالمنظمة ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني ، وفي أواخر الشهر ذاته من العام نفسه اعترفت القمة العربية في الرباط بالمنظمة ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب العربي الفلسطيني . وفي 1974/11/13م= 1403م . ر . ألقى عرفات خطاباً في الجمعية العمومية للأمم المتحدة .

وقد كان يرى بعض قادة « فتح » ، مثل المرحوم خالد الحسن أن يُكتفى بأن تكون م . ت . ف ممثلاً شرعياً ، وليس وحيداً كيلا تتخذ هذه الصفة ذريعة لتنصل الدول العربية من مسؤولياتها تجاه القضية الفلسطينية وإلقاء الحمل كله على كاهل منظمة التحرير التي لا تستطيع ، ولا يستطيع معها الشعب العربي

الفلسطيني كله ، أن تحقق شيئاً يؤثر في مسار الأحداث والتاريخ بدون دعم مطلق من الدول العربية(*) .

11 ـ حرب حزيران عام 1967م= 1396م.ر. نشبت هذه الحرب التي توصف بأنها الحرب العربية الإسرائيلية الثالثة إثر طلب الرئيس جمال عبد الناصر سحب قوات الطوارىء الدولية التي كانت في سيناء منذ حرب « 56 » ، وبعد دخول جيش مصر إلى سيناء ، وإغلاق قناة السويس وخليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية ؛ وقد اتخذ جمال عبد الناصر هذه الخطوة تحت ضغط المعارضة السورية ، بشكل خاص ، التي كانت تتهمه بالتواطؤ مع الأمريكان وبالتخاذل بسبب قبوله بوجود قوات دولية في سيناء ، واستمرار الملاحة الإسرائيلية في الممرات المائية العربية ، وتحت ضغط حملة إعلامية نشطة ظهرت في ذلك الحين تقول إن إسرائيل تقوم بحشد قوات هائلة على الحدود السورية بهدف احتلال سوريا . فتحرك عبد الناصر دعماً لسوريا ودفعاً لِتُهم المعارضة الموجهة إليه ، ولكن إسرائيل وجهت الى مصر الضربة الأولى صبيحة يوم 1967/6/5م= 1396م.ر. وأسفرت الحرب هذه أيضا عن هزيمة العرب والقبول بقرار مجلس الأمن رقم 242 الداعي لوقف القتال وانسحاب القوات إلى مواقعها قبل الخامس من حزيران (أي قبل البدء بالحرب) ، وكان العدو قد احتل سيناء بأكملها والضفاف الشرقية لقناة السويس ، والجولان السورية بأكملها (محافظة القنيطرة) والضفة الغربية وقطاع غزة (وبذلك أكملت « إسرائيل » احتلال فلسطين كلها)(*) إلا أن المقاومة الفلسطينية بقيادة

(*) للمزيد من التفاصيل حول نشأة م.ت.ف وغاياتها ومنجزاتها ، ومواضع الفشل ومواضع النجاح يرجى الرجوع إلى كتاب « من التشرد إلى الدولة » للمؤلف . وكتاب « نقاط على حروف في الصراع العربي الصهيوني » للمؤلف أيضاً .

(*) انظر كتاب « الصراع العربي الإسرائيلي والشرعية الدولية » للدكتور غازي حسين ، مطبعة الكاتب العربي ، دمشق ، 1995م .

منظمة التحرير الفلسطينية استطاعت أن تسترد للعرب بعض هيبتهم بأن صعدت العمليات الفدائية ضد الكيان الصهيوني ، واستطاعت بالتعاون مع الجيش الأردني أن تهزم العدو الصهيوني في معركة الكرامة في 1968/3/21م= 1397م . ر .

وتسمى حرب حزيران أيضاً بحرب الأيام الستة لأن إسرائيل أكملت احتلال جميع المناطق المذكورة أعلاه في ستة أيام والواقع أن الحرب حُسمت لصالح إسرائيل في الساعات الأولى من المعركة التي بدأها العدو بغارات جوية على جميع مطارات مصر فدمرتها ودمرت الطيران المصري في غضون ساعات .

12 ـ ثورة الفاتح من سبتمبر عام 1969م= 1398م . ر . في ليبيا قامت مجموعة من الضباط الليبيين بقيادة الملازم معمر القذافي بثورة أطاحت بالملكية ؛ وابتكرت هذه المجموعة نظاماً جديداً لم يسبق له مثيل في العالم هو « النظام الجماهيري » وأطلق على ليبيا اسم الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية ثم أضيف إلى الاسم فيما بعد صفة « العظمى » ؛ يعتمد هذا النظام على الجماهير ، وليس على البيروقراطية والهرمية والأنظمة المألوفة ، حتى الوزارات أعطيت أسماء أمانات وهو نظام يطبق فكرة سيادة الشعب المطلقة . أما المنظومة الفكرية للدولة الجديدة فتقوم على الإسلام أساساً مع محاولة النظر إلى الإسلام نظرة حديثة دون تناقض مع العروبة أو مع التوجهات التقدمية القائمة على العلم والمعرفة(*) . وهكذا كانت ؛ بحق ثورة سياسية واجتماعية وفكرية ، لاقت هذه الثورة تجاوباً شعبياً واسعاً في جميع أنحاء الوطن العربي لعدة أسباب منها :

(*) انظر الكتاب الأخضر ، للعقيد معمر القذافي ، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر ، الجماهيرية ، يناير ، 1984م .

١ ـ كان الضباط الأحرار الذين نجحوا في تفجير هذه الثورة على علاقة طيبة وصداقة وثيقة مع جمال عبد الناصر ، وكانت الصلة بينهما تَتَّسِم بالمحبة والإعجاب المتبادلين لدرجة أن الأخ القذافي كان يَعُدُّ جمال عبد الناصر مثلاً وقدوة ، وكان جمال عبد الناصر يعد القذافي ورفاقه سنداً قويا لمصر وللعروبة ، وينظر إلى القذافي على أنه أخ وفيٌّ مؤمن بالقومية العربية دون شوفينية أو عنصرية ، ولهذا أطلق عليه صفة « أمين القومية العربية » .

٢ ـ جاءت هذه الثورة بعد نكسة حزيران التي أحبطت تطلعات الأمة العربية وخيبت آمالهم ، وهزمتهم من الجذور والأعماق حتى كاد اليأس يهيمن على النفوس وكاد الذهول يشل العقول ، فأتت ثورة الفاتح الليبية كومضة نور ساطع هتك ظلمة الليل الحالك ، وشعلة أمل أضاءت النفوس ، وشرارة أسهمت في بزوغ فجر جديد رحبت به الأمة العربية كلها من المحيط إلى الخليج .

وكانت هذه الثورة أيضاً من الفرص التي لم يستثمرها العرب لصالح الأمة ، بل حاول الكثيرون من قادة العرب ، ومازالوا يحاولون ، وضع العراقيل في طريقها .

13 ـ حرب رمضان 10/ رمضان/ 1393هـ . وتسمى في سوريا حرب تشرين التحريرية ، وتسمى في مصر حرب أكتوبر ، لأنها بدأت في تشرين أول (أكتوبر) ، وبعضهم يسميها حرب ال « 73 » لأنها نشبت في عام 1973م= 1402م . ر . ويسميها العدو الصهيوني « حرب الغفران » لأنها بدأت في يوم عيد الغفران عند اليهود . بدأت الحرب الساعة الواحدة ظهراً من يوم الجمعة في 6/ تشرين أول (أكتوبر)/ 1973م= 1402م . ر= 10 رمضان 1393هـ .

فاجأت مصر وسوريا العدو في ذلك اليوم ببدء الحرب بعد الإعداد لها سراً بينهما ، ولم يكن أحد من قادة العرب ، ولا حتى قادة مصر وسوريا سوى قلة

قليلة جداً يعلم بهذه الإعدادات أو بساعة الصفر . حققت القوات المصرية والسورية انتصاراً هائلاً ومذهلاً في مطلع الحرب ، إذ اخترقت قوات مصر خط بارليف الحصين جداً على طول قناة السويس من الشرق في غضون ساعات ، وتقدمت في سيناء منزلة بقوات العدو هزيمة نكراء دفعت بحكومة إسرائيل إلى أن تطالب بوقف القتال مع بقاء القوات حيث هي . وكذلك القوات السورية استطاعت اختراق دفاعات العدو في الجولان ووصلت طلائعها إلى مشارف بحيرة طبريا . ولكن العالم والعرب فوجئوا بإعلان قبول وقف إطلاق النار بموجب قرار مجلس الأمن رقم 338 الذي أكد القرار 242 والذي كان مصيره وقف التنفيذ كمصير سابقه ، ومازال القراران على الرف حتى الآن ، رغم ما يتردد على ألسنة المتفاوضين الآن من العرب واليهود من ضرورة تنفيذ هذين القرارين . لكن الواقع أن « إسرائيل » لم تنظر إليهما البتة . كما فوجئت الأمة العربية كلها بوجود خرق يهودي على الجبهتين المصرية والسورية ، وتراجع للقوات العربية ووقوع جيش مصري بأكمله في الحصار ، وارتفاع الأصوات الداعية إلى التفاوض مع العدو الصهيوني .

اشتركت القوات الأردنية في دعم الجبهة الجنوبية الغربية في سوريا ؛ ودخلت قوات عراقية للاشتراك في المعركة ، إلا أن قبول القرار 338 وإيقاف القتال وضع حداً لأي تطور يمكن أن يحصل لصالح العرب . وأسفرت الحرب عن اتفاقيتين لفصل القوات بين مصر وإسرائيل جرت المباحثات بشأنهما عند ١ الكيلو (101) في مصر ، وعن اتفاقية فصل قوات ثالثة بين سوريا وإسرائيل . كما أدت إلى انعقاد مؤتمر جنيف للسلام بين العرب وإسرائيل في 1973/12/2م= 1402م.ر ؛ الذي عقد بجلسة واحدة ثم انفض ولم ينعقد ثانية حتى مؤتمر مدريد الذي أعده الجلسة الثانية . لم تحضر سوريا مؤتمر جنيف . ولم يحقق المؤتمر شيئاً . وأخيراً قام الرئيس المصري أنور السادات بزيارته الشهيرة إلى القدس في 1977/11/19م= 1406م.ر، تلك الزيارة التي أسفرت في النهاية عن

التوصل إلى اتفاقات كامب ديفيد عام 1978م= 1407م.ر وعقد معاهدة صلح وسلام مع مصر أدت إلى عزل مصر عربيا لفترة طويلة من الزمن .

14 ـ غزو إسرائيل للبنان وطرد (م.ت.ف)(*) منها .

كانت قوات الثورة الفلسطينية قد انتقلت من الأردن إثر الصدام الدموي الذي وقع بين حكومة الأردن و م.ت.ف في 1970/9/17م= 1399م.ر. إلى جنوب لبنان حيث أقام عرفات على سفوح جبل الشيخ المطلة على لبنان ما أطلق عليه اسم « أرض فتح » وكانوا يلفظونها دائما بالإنكليزية Fatch Land وأخذت تتصاعد العمليات الفدائية ضد الكيان الصهيوني من هناك . وبدأت تظهر منظمة التحرير الفلسطينية وكأنها دولة ضمن دولة ، الأمر الذي ساء الحكومة اللبنانية وكثيراً من الشعب اللبناني وخصوصاً الموارنة . تعاظم هذا الاستياء إلى أن أدى إلى حرب أهلية شملت بنارها اللبنانيين (مسيحيين ومسلمين) والفلسطينيين بشكل مباشر ، وأسهمت فيها الدول العربية ، الأمر الذي حَوَّل لبنان إلى مسرح صراع بين الدول العربية عن طريق أطراف الحرب الأهلية في لبنان . حتى إن بعض القوى العالمية الخارجية قد أسهمت في هذه الحرب ، وأكثر النشطاء في تسعيرها كان الكيان الصهيوني . بدأت الحرب في 1975/4/13م= 1404م.ر . بإطلاق النار على باص يحمل فلسطينيين في عين الرمانة وقتل كل من فيه وأحرق الباص . وفي 1975/12/5م= 1404م.ر. أُحرقت شاحنة محملة بالمصاحف على طريق بيروت دمشق . فأخذت الحرب منحىً طائفياً إلى جانب منحاها اللبناني ـ الفلسطيني .

تدخلت سوريا في مطلع حزيران (يونيو) من عام 1976م= 1405م.ر. لوقف الحرب الأهلية والحيلولة دون تقسيم لبنان وهيمنة إسرائيل على لبنان (كما قالت الحكومة السورية) ، إلا أن الجيش السوري الذي دخل لبنان

(*) م.ت.ف. هي اختصار لـِ « منظمة التحرير الفلسطينية » .

حينذاك اصطدم بقوات فلسطينية في صيدا ، لأن م . ت . ف . اعتقدت أن دخول القوات السورية كان بهدف تحجيم الثورة الفلسطينية وقيادتها في لبنان ؛ وحسمت المعركة بينهما في النهاية لصالح سوريا . لكن منظمة التحرير لم تضعف جراء ذلك ، إذ أخذت تعزز قواتها في الجنوب اللبناني وتضاعف من عملياتها ضد « إسرائيل » الأمر الذي جعل الأخيرة تشن هجوماً واسعاً على الجنوب عام 1979م= 1408م . ر . بهدف تحطيم المنظمة وقواتها . ولكنها هزمت وتكبدت خسائر فادحة ومُرِّغت هيبتها دوليا .

لكن « إسرائيل » لم تسكت على هذه الهزيمة ، بل أخذت تعد العدة لاحتلال لبنان ونسف البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية وقواتها . وبالفعل قامت ظهيرة يوم الجمعة في 1982/6/4م= 1411م . ر . بهجوم واسع النطاق على لبنان اكتسحت الجنوب وحاصرت العاصمة بيروت ، وكان فيها اللواء السوري (85) ، والقوات الفلسطينية وقيادة م . ت . ف . دام الحصار والقصف المتواصل والكثيف من البر والبحر والجو ثلاثة شهور . وأخيراً تم التوصل إلى اتفاق بوساطة أمريكية ، تخرج بموجبه القوات المحاصرة من بيروت ولبنان كله . فعاد اللواء (85) السوري إلى سورية ومعه جيش التحرير الفلسطيني ، وبعض قوات فصائل المقاومة الفلسطينية وقادة هذه الفصائل . لكن عرفات خرج إلى تونس ، بحماية مصرية الأمر الذي أغضب سورية ، وجعلها تؤيد حركة التمرد على عرفات بقيادة أبي صالح وأبي موسى وقدري (سميح كويك) والذي أسفر فيما بعد عن اقتتال فلسطيني ـ فلسطيني في البقاع ، ومن ثم في طرابلس الساعة الخامسة صباح يوم الخميس في 1983/11/3م= 1412م . ر . توترت العلاقات بين قادة م . ت . ف والقيادة السورية لدرجة جعلت سورية تطرد عرفات منها في 1983/6/24م= 1412م . ر .

كان الأمريكان والفرنسيون والإنكليز قد أنزلوا قواتهم إلى بيروت بهدف الهيمنة على الموقف وفرض ما بأذهانهم من مخططات على لبنان وسورية

والفلسطينيين معاً . ولكن العمليات الانتحارية التي قام بها اللبنانيون ، وخصوصاً الشيعة ، ضد قوات المارينز الأمريكية ، وضد قيادة القوات الفرنسية ، والتي من أبرزها عملية يوم 1983/10/23م= 1412م.ر. جعلت هذه القوات ترحل عن لبنان جارة أذيال الخيبة .

15 ـ الثورة الإسلامية الإيرانية ، وحرب الخليج الأولى .

تفجرت ثورة شعبية ضد نظام الشاه في إيران ، كان يقودها الإمام الخميني من باريس ، عاصمة فرنسا ؛ واستطاعت جماهير الشعب الإيراني أن تسقط نظام الشاه الذي غادر إيران في 1979/1/14م= 1408م.ر. أعلن عن سقوط الشاه رسميا ، وعن قيام الجمهورية الإيرانية الإسلامية في 1979/2/11م= 1408م.ر. وجرى الاستفتاء الشعبي على الجمهورية يوم الجمعة في 1979/3/30م= 1408م.ر. وكانت نتيجته إجماع شعبي على إقامة جمهورية إسلامية في إيران .

لاقت الثورة الإيرانية تأييداً شعبيا في الوطن العربي واسع النطاق للأسباب التالية :

أ ـ جاءت في أعقاب هزيمة العرب في حرب الـ 73 ، وعدم نجاح أهدافهم من تلك الحرب حتى ولو كانت الغاية منها كما ادعى البعض هي تحريك الأمور في اتجاه تسوية النزاع العربي ـ الإسرائيلي (حسب تعبير أصحاب هذا الرأي الذين أطلقوا عليها اسم حرب التحريك بدلاً من حرب التحرير) . صحيح أن هذه الحرب دفعت الأمور ، فعلاً ، نحو التسوية في المنطقة وإن كان لغير صالح العرب ؛ بيد أنها ، على أية حال ، لم تحقق أية خطوة فعلية منظورة في ذلك الحين نحو هذه الغاية . كان هناك صلف يهودي ، وصلف أمريكي ، واستهتار بالأمة العربية وبقدراتها .

ب ـ رفعت الثورة راية الإسلام وأعلنت قيام جمهورية إسلامية . فكان نجاح مثل هذه الثورة برهاناً قاطعاً على أن الإسلام مازال فيه من القدرة ما يكفي

للتصدي لقوى البغي والظلم في العالم وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية ، والصهيونية العالمية المتجسدة في ما يسمى بـ « إسرائيل » والاتحاد السوفياتي ؛ وكان نجاحها برهاناً ، أيضاً ، على أن الإسلام ليس ذلك الدين العتيق الذي لم يعد صالحاً لهذه الأيام كما يروّج أعداؤه ، بل هو فكر أيديولوجي حياتي قادر على أن يكون ثورة على مفاسد القرن العشرين ، ومنارة للقرن الواحد والعشرين ، وأنه قادر كذلك على إنشاء دولة حديثة بكل ما في الكلمة من معنى .

ج ـ جاءت الثورة بعقيدتها الإسلامية نقيضاً واضحاً للصهيونية ولليهودية العالمية وللقوى الإمبريالية والاستعمارية التي تساندها ، وللقوى الإلحادية المتمثلة في الشيوعية بشكل خاص . إضافة إلى أنها كشفت بعض الأنظمة الرجعية ، سواء على صعيد الوطن العربي أم على صعيد العالم الإسلامي التي يرفع بعضها شعارات إسلامية أو قومية وهي أبعد عما تنادي من بعد الثرى عن الثريا .

د ـ اتخذت بعض الخطوات الإيجابية حالما استقرت أوضاعها مثل :

١ ـ أطلقت على الخليج (الذي يصفه العرب بالعربي ويصفه الإيرانيون وغيرهم من غير العرب بالفارسي) اسم « الخليج الإسلامي » فحلت بذلك مشكلة شكلية بين العرب والمسلمين غير العرب(*) .

٢ ـ أعلنت قيادة الثورة إغلاق السفارة الإسرائيلية في إيران ، وافتتحت بدلاً منها سفارة فلسطين .

٣ ـ أعلنت أن اللغة العربية لغة أساسية وقررت تعليمها في المدارس (وإن لم

(*) لاحظت مؤخراً أن إيران قد تراجعت عن التسمية وعادت إلى التسمية القديمة . انظر مجلة « النبأ » التي تصدرها سفارة إيران في دمشق ، العدد 156 تاريخ 1995/4/1م . حيث توجد على الغلاف صورة لإيران والخليج ، وقد كتب عليه اسم « الخليج الفارسي » .

تكن مثل هذه الخطوة كافية إلا أنها خطوة إيجابية ، على أية حال) .

لكن نجاح الثورة لم يعجب كثيراً من الأنظمة في المنطقة . بل أكثر من ذلك أحدث لديها ولدى قوى الغرب والصهيونية قلقاً شديداً . إذ خشي هؤلاء جميعاً من انتشار المد الإسلامي الثوري الحركي إلى بلدان المنطقة الأمر الذي ربما يهدد رموز السلطة وبقاءها في مواقعها ، ويهدد كذلك المصالح الأجنبية فيها . لذلك شرعوا بالتخطيط لتحقيق أهداف معينة من أبرزها :

أ ـ إضعاف الثورة الإسلامية الإيرانية وإرهاقها واستنزافها .

ب ـ إشغالها عن التوجه لبناء دولة إسلامية حديثة .

ج ـ إخباط إمكانية التفاعل العربي الإسلامي عن طريق إثارة النزعة القومية لدى العرب والإيرانيين وتكريسها لدى الطرفين . وأسهل طريق لتحقيق هذه الأهداف وأكثرها نجاحاً هي زج العرب والإيرانيين في حربٍ ، بعضهم ضد بعض ، طويلة لا تسفر عن أية نتائج إيجابية لأي من الطرفين ؛ بل تستنزفهم بلا طائل . فوقع الخيار على العراق كي يقوم بهذه المهمة نيابة عن العرب ، ذلك لأن العراق كان مؤهلاً لأن يكون قوة إقليمية عربية يُرهَبُ جانبها وتهدد « إسرائيل » ، وأصحاب المصالح النفطية في المنطقة .

نُصبت الشباك ، وقع فيها القادة الإيرانيون والقادة العراقيون على حد سواء ؛ إذ أخذ بعض القادة الإيرانيين يطلقون تصريحات حول بعض الدول العربية ، وخصوصاً الخليجية ، يشتم منها رائحة نزعة التوسع الجغرافي ، ورغبة تصدير النموذج الإيراني الثوري الإسلامي إلى دول المنطقة بأسرع ما يمكن ، وبشتى الوسائل . وترافقت هذه التصريحات ببعض الصدامات بين الدوريات الحدودية العراقية والإيرانية ، وإذا ما أضفنا إلى ذلك التشجيع والتحريض الذي وجهته دول الخليج العربية بما فيها السعودية إلى العراق كي يغتنم فرصة حل الجيش الإيراني ، وحالة التخلخل التي كانت تمر بها إيران في مطلع نجاح الثورة ، وأوهمت القيادة العراقية بأن مسألة استرداد حق العراق في

شط العرب لن تستغرق طويلاً ولن تحتاج إلى جهد كبير ، بضعة أيام أو أسابيع ، وينتهي الأمر ، كما قامت الدول الغربية وأمريكا بدور كبير في هذا المجال وفي تبسيط الأمور على العراق ، وتحريض الطرفين ، بعضهما على بعض .

فكانت الحرب في 4/ 9/ 1980 م = 1409 م . ر . بأن قامت القوات العراقية باجتياح بعض المناطق الإيرانية ، خصوصاً تلك التي كانت الأحزاب العربية القومية تطالب بها بوصفها كانت جزءاً من الوطن العربي ، ولكن الحرب لم تنته بأيام ولا بأسابيع ، بل امتدت سنين طويلة ، ولم تضع الحرب أوزارها تماماً إلا بعد استكمال العراق انسحابه من جميع الأراضي الإيرانية في 30/ 6/ 1989 ك = 1418 م . ر . أي حوالي تسع سنوات عجاف ، تكبد فيها الطرفان من الخسائر المادية والاقتصادية والبشرية ما كان يمكن توفيرها لأمور تخدم البلدين ، وتنهض بالمنطقة . وقد حققت هذه الحرب أغراض الذين خططوا لإثارتها وتتلخص فيما يلي :

1 ـ تحجيم الثورة الإسلامية الإيرانية داخل حدود إيران وإحباط إمكانية انتشارها خارج تلك الحدود .

2 ـ إحباط عملية التفاعل العربي الإسلامي الذي كان سيحدث حتماً كنتيجة طبيعية لتجاور ثورة إسلامية مع محيط عربي بينهم علاقات طيبة .

3 ـ تعزيز النزعة القومية الفارسية عند الإيرانيين والنزعة القومية العربية عند العرب ، ونسي الأثنان أن الإسلام كان يمكن أن يؤاخي بينهما بدلاً من خوض حرب أخذت طابع صراع قومي فارسي عربي .

4 ـ استنزاف البلدين طيلة هذه الفترة ، وخلق جرح بينهما يستغرق زمناً طويلاً حتى يندمل ويشفى .

في حين أنها لم تحقق لأي من الطرفين شيئاً من رغباتهما ولا مطامحهما ،

فلا الثورة الإسلامية انتشرت بالشكل المطلوب الطبيعي والطوعي خارج حدود إيران ، ولا العراق استعاد شط العرب الذي كان الذريعة المباشرة لشن الحرب .

16 ـ حرب الخليج الثانية .

اكتشف الذين خططوا لحرب الخليج الأولى أنها لم تؤت أكلها تماماً ، كما أرادوا لها أن تكون ، لأن من النتائج التي توقعها أولئك وقدروها تدمير القدرة العسكرية والاقتصادية لكلا البلدين (العراق وإيران) ، ولكن عندما انتهت الحرب تبين أن العراق قد استغل الدعم الغربي التكنولوجي له بهدف تمكينه من الاستمرار بالحرب مدة أطول ليكون الاستنزاف أكثر ، وطور أسلحة متقدمة ، وتبين كذلك أنه اخترق حاجز التكنولوجيا وأصبح لديه من العلماء في المجالات النووية والكيميائية والبيولوجية وغيرها من المجالات أعداد كثيرة . وكانت إيران قد أظهرت أيضاً أنها تمتلك صواريخ بعيدة المدى قصفت بها بغداد كما قصف العراق طهران بصواريخ مماثلة ، واستخلص الغرب ومن ساهم معه في نصب شراك هذه الحرب من العرب أن البلدين لم يضعفا تماماً ولم تدمر طاقاتهما تدميراً فعّالاً . لذلك أخذوا يفكرون في الإجهاز على العراق قبل أن يلتقط أنفاسه ، وبعد ذلك يتفرغون لإيران التي لن يسمحوا لها هي الأخرى بأن تكون قوة إقليمية فاعلة ما دامت ترفع راية الإسلام وتدعو للتصدي للكيان الصهيوني .

وكان الصاعق الذي فجر حرب الخليج الثاني هو مطالبة دول الخليج العراق بتسديد ما قدموا له من مساعدات عَدُّوها ديوناً أثناء حربه ضد إيران ، ولما تبرد مدافعه بعد ، ورفع نسبة ضخ البترول الذي سبب خسائر فادحة لاقتصاد العراق الذي كان بأمس الحاجة إلى إعادة ترميمه وبنائه بعد حرب تسع سنين ، فأخذ العراق بدوره يطالب بحقل الرميلة النفطي(*) ، وبثمن ما ضخته

(*) حقل الرميلة : حقل نفطي عراقي يقع على الحدود مع الكويت ، استغلته الكويت أثناء انشغال العراق بحربه ضد إيران ، ولما هدأت الحرب وانتهت ، أراد =

الكويت من هذه البئر أثناء حرب الخليج الأولى ، وأضاف إلى مطالبه مسألة استئجار جزيرتي بوبيان ووربة ليكون له ميناء على البحر . وهنا لعبت القوى ذاتها التي ورطت العراق وإيران بحرب طويلة دور المهيّج والمثير لكلا الطرفين ، عن طريق تعقيد الأمور ، والإيماء للكويت والسعودية ودول الخليج الأخرى بعدم التنازل عن أي مطلب من مطالبهم عند العراق وألا يقبلوا أي مطلب من مطالب العراق عندهم ، كما أوحوا للعراق بأنهم لن يتدخلوا إذا ما حصل نزاع بينه وبين الكويت . وكانت طريقة الحوار بين الطرفين استفزازية لإثارة العراقيين المعروفين بحدة الطبع وسرعة الغضب ، الأمر الذي دفع القيادة العراقية إلى احتلال الكويت في عضون ساعات صبيحة 2/ 8/ 1990 م = 1419 م . ر . وهكذا وقع الجميع (الكويت ودول الخليج والسعودية والعراق ، بل كل العرب) في المصيدة مَرّة أُخرى ، وكأنهم ليسوا مؤمنين لأن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، وها هم يلدغون مرات ولا يتعلمون .

شددت أمريكا وبريطانيا وحلفاؤهما من العالم ومن العرب المواقف ، وتصلبت ورفضت حتى مجرد التفاهم ، ورفضت قبول العراق بالانسحاب ، وأحبطت كل المساعي لتخفيف الأزمة وحلها بالطرق السلمية ، لا على الصعيد العربي ، ولا على الصعيد العالمي . ودفعت بالأمور إلىٰ حرب اشترك فيها ما لا يقل عن 33 دولة من كبار دول العالم ضد العراق .

= العراق أن يسترد حقله النفطي هذا متغاضياً عما ضخ منه أثناء الحرب ، ولكن عندما طالبت دول الخليج العراق بما حسبته ديوناً عليه طالبهم العراق بثمن النفط الذي ضخه من هذه الحقل ، والآن لدى قيام الأمم المتحدة بتخطيط الحدود العراقية الكويتية ، ضُمَّ هذا الحقل إلى الكويت .

الفصل الثاني

مرحلة ما يُسَمّىٰ بالسلام العربي الإسرائيلي

أولاً ـ الإعداد لهذه المرحلة :

آ ـ تمهيد : لقد بدأت هذه المرحلة تأخذ الخطوات التنفيدية العملية منذ أن دخلت القوات البريطانية فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الأولى وانتدبت عليها بموجب قرار المجلس الأعلى للقوى المتحالفة في الحرب العالمية الأولى الذي أقرته عصبة الأمم حينذاك ، إذ شرعت بريطانيا تهيئ المناخ المناسب وتخلق الظروف الملائمة لإقامة ما أسماه صك الانتداب الصادر عن عصبة الأمم بـ« الوطن القومي اليهودي » بمختلف الأساليب . وأذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض الميادين مثل :

آ ـ الميدان السياسي : كان أول مندوب سامي عينته بريطانيا في فلسطين يهودياً هو هربرت صموئيل ، وكانت حكومة الانتداب تسمح لليهود بتشكيل أحزاب سياسية وتنظيمات ، وجمعيات وهيئات وغير ذلك ، وكان لليهود كيان مستقل بشكل حكومة داخل حكومة يتمثل بما عرف باسم « الوكالة اليهودية » .

ب ـ المجال التربوي : كان لليهود نظامهم التربوي الخاص ومناهجهم وكتبهم ودروسهم غير الخاضعة لرقابة حكومة الانتداب ولا إشرافها .

ج ـ المجال الاقتصادي : كانت حكومة الانتداب تسهل لليهود الأعمال

التجارية وتسمح لهم بالتزود بالآليات الزراعية وغيرها من التقنيات اللازمة في الزراعة والصناعة ، وتسهل لهم عمليات الاستيراد والتصدير والتصنيع .

كما كانت تمنحهم أراضي الدولة ، وتفتح لهم أبواب الهجرة إلى فلسطين .

د ـ المجال العسكري : كانت حكومة الانتداب تسمح لليهود بتشكيل عصابات وتنظيمات مسلحة ، وتسمح لهم بالحصول على السلاح الحديث والتدرب عليه علناً وحمله علناً ، وتشكيل حرس مستعمرات خاص بهم ، وغير ذلك من الأمور في الوقت الذي كان العربي يزج في السجن زمناً طويلاً إن ضبط ظرف عيار ناري فارغ بجانب بيته ، وينسف بيته كذلك : وكان يعدم إن ضبطت في حوزته قطعة سلاح .

أما العرب ، أصحاب البلاد وأهلها ، فلم يكن يتاح لهم سوى الوصول إلى مستوى محدود من المناصب الوظيفية ، ولم يكن يسمح لهم بتشكيل أي نوع من التنظيمات السياسية ، وكانت مدارسهم و مناهجهم وكتبهم خاضعة لرقابة دقيقة من قبل حكومة الانتداب . وكان الفلاح الفلسطيني محروماً من الحصول على التقنيات الحديثة حينذاك إضافة إلى ممارسة أساليب الإفقار التي مر ذكرها في فصل سابق .

وعندما قامت إسرائيل في 15/ 5/ 1948(*) = 1377 م . ر . صرح قادة الغرب وقادة الصهاينة في ذلك الحين أكثر من مَرَّة أن « إسرائيل وُجدَت لتبقى » وذلك في سياق ردودهم على تصريحات العرب الطنانة في ذلك الحين التي ما زلت أذكر واحداً منها يقول « فلسطين عربية وستبقى عربية ولو أطبقت عليها

(*) كانت القيادة الصهيونية قد اتخذت قراراً بإنشاء دولة إسرائيل في 5/ 5/ 1948 = 1377 م . ر . لذلك فهم يعدون ذلك التاريخ هو عيدهم الوطني ، ولكن الدولة لم تمارس صلاحياتها إلا لحظة انتهاء الانتداب في 15/ 5/ 1948 م .

شعوب الأرض » ، والمعروف تماماً أن بقاء إسرائيل لا يتم إلا بتحقيق هدفين هما :

آ ـ تدمير الشخصية العربية الحضارية بشقيها العربي والإسلامي تدميراً كاملاً ، أي باقتناع شعب المنطقة بالتخلي عن القومية العربية وعن فكرة الوحدة العربية نتيجة إحباطات متوالية ، ونتيجة صراعات عربية ـ عربية دامية ؛ ومحاربة الإسلام بعد إقناع الحكام ونسبة كبيرة من الشعب العربي من خلال أحزاب وهيئات علمانية وشيوعية وقومية وغير ذلك من الأشكال الرافضة للإسلام وللدين عموماً بأن الذين يتمسكون بالإسلام ليسوا سوى إرهابيين ومخربين ، ولا بد من ملاحقتهم وسحقهم . وبذلك تكون إسرائيل وصانعوها وحلفاؤها قد أنزلوا بالأمة العربية وبالإسلام هزيمة حقيقية يغدو على الأمة من الصعب النهوض بعدها ، وربما يصبح من المستحيل عليهم إعادة بناء هويتها الحضارية من جديد ، وإقامة وحدة عربية بأي شكل من أشكالها .

ب ـ عقد معاهدات صلح وسلام بالشروط الإسرائيلية بين « إسرائيل » وكل دولة عربية على انفراد ، في ظروف تكون الأمة العربية في أضعف حالاتها ، وتكون إسرائيل في أقوى حالاتها . وقد تبين لدى الاستراتيجيين الصهاينة وأقرانهم من الغرب والشرق أن هذين الهدفين لا يتحققان إلا بأمرين هما :

1 ـ جعل دولة اليهود متفوقة عسكرياً واقتصادياً على جميع الدول العربية والإسلامية .

2 ـ وإنزال هزائم في الجيوش العربية على يد الجيش الصهيوني تجعل العرب يقتنعون بعدم جدوى آمالهم في الانتصار على إسرائيل عسكرياً أو اقتصادياً أو علمياً إذاما حاولوا ، وألا سبيل أمامهم سوى قبول دولة إسرائيل كواحدة منهم وكجزء من المنطقة .

أما مسألة تفوق « إسرائيل » عسكرياً فقد جهد الغرب بأسره وفي طليعته أمريكا لتحقيق هذا الهدف ، ولا أريد الخوض في تفاصيل المساعدات الأمريكية العسكرية والاقتصادية والمالية النقدية لإسرائيل ، فذلك معروف ، ونشرت حوله مقالات كثيرة وألفت كتب عديدة ، ولكن يكفي أن نذكر بأن لدى إسرائيل الآن حوالي (200) رأس نووية عسكرية ، وأقمار اصطناعية للتجسس ، وأسلحة كيماوية وبيولوجية ، في حين لم يسمح للعرب مجرد اختراق حاجز التكنولوجيا ، وما جرى للعراق ، وليبيا وسورية ، وما سوف يجري لإيران ولأية دولة عربية أو إسلامية تفكر بتعزيز قوتها الدفاعية لتحقق توازناً أو تفوقاً على « إسرائيل » سوى دليل على ذلك .

فمثلاً عندما حاول جمال عبد الناصر كسر احتكار السلاح وتنويع مصادره منعوا عنه ما كان مقرراً من إعانات لبناء السد العالي الأمر الذي دفعه إلى تأميم قناة السويس والتعرض إلى العدوان الثلاثي ، وحتى عندما حصل على السلاح السوفياتي والتشيكي كانت تعلم أمريكا بعدد القطع وأنواعها وكمية ذخائرها التي ترسل إلى مصر ، وتحيط إسرائيل بكل تلك المعلومات ، وتهديها معها أسلحة أكثر تفوقاً وعدداً ، وعندما حاول الرئيس حافظ أسد ، رئيس الجمهورية العربية السورية ، تحقيق توازن استراتيجي مع إسرائيل (مجرد توازن وليس تفوقاً) أُضيفت سوريا إلى دول الإرهاب ، ومارست عليها أمريكا وبريطانيا ودول أوربية أخرى مقاطعة اقتصادية بهدف تجويع الشعب . وعندما حاولت ليبيا بناء قدرتها الاقتصادية الذاتية وبناء النهر العظيم، وتعزيز قدرتها العسكرية والتكنولوجية تصدى لها الغرب واتهمها بالتهمة التقليدية التي أصبحت سلاحاً ومسوّغاً لأمريكا ودول الغرب للاعتداء على الآخرين بذريعة محاربة الإرهاب ألا وهي اتهامها بإسقاط طائرة البانام الأمريكية عام 1988 = 1417 م . ر . فوق اسكوتلندا وفُرضَ على ليبيا حصار بدأ في 15/ 4/ 1992 = 1412 م . ر .

مازال ساري المفعول حتى هذه اللحظة . وكذلك العراق ، الذي كانت جريمته أنه خرق حاجز التكنولوجيا فعلاً ففعلوا به ما فعلوه ، لدرجة أن أمريكا وبريطانيا ، بشكل خاص أخذتا تطالبان بضرورة تخلي العراق عن مجرد الرغبة في امتلاك سلاح متطور أو في امتلاك التكنولوجيا المتقدمة ، وإلا سيظل الحصار مفروضاً على العراق .

والآن جاء دور إيران التي أخذوا يسلكون معها الأسلوب نفسه الذي سلكوه مع العراق : تصنف أولاً بأنها دولة إرهابية ، ثم تقطع الولايات المتحدة علاقاتها التجارية مع إيران ، وبعد ذلك تتبعها الدول الغربية ، وتباشر أمريكا كذلك بممارسة الضغط على دول العالم كي تحذو حذوها ، وأخيراً تنصب لها شركاً عساها تقع فيه ليتخذ ذريعة لضربة عسكرية قاضية .

أما مسألة الهزائم ، فقد أُعِدَّ لها إعداداً جيداً بحيث كانت كل المعارك والحروب التي حدثت في المنطقة بين العرب واليهود ، تبدو في ظاهرها حقيقية ، ولكنها في واقع الأمر ليست سوى تمثيليات ومسرحيات .

وهنا أستطيع القول إن كل هذه المعارك والأحداث التي أرادها الغرب مصائد لنا ، كان يمكن تحويلها إلى مصائد للغرب والصهيونية ، وإلى فرص نستثمرها لنخرج منها عمالقة وقوة من القوى العظمى في العالم . إن فشل الشعوب في الحفاظ على حقوقها وأوطانها يكمن في تفويتها الفرص وعدم القدرة على استثمار الظروف ، والعجز عن استشفاف الأحداث ومعالم المراحل التاريخية ، وضعف الرؤية المستقبلية للمسار التاريخي ، وفي جهل السياسة الدولية ، وبالتالي عدم معرفة كيفية التعامل مع الأحداث والمستجدات في كل مرحلة من مراحل التطور ، وعدم القدرة على وضع معادلات سياسية لكل حدث وكل مرحلة ، وأخيراً عدم القدرة على فرز قادة في مستوى الأحداث يتجددون ويجددون ، وكل ذلك العجز يعود إلى الافتقار إلى الحرية والديمقراطية .

ثانياً ـ فرصٌ فوتها العرب بسبب جهلهم بالمعادلات السياسية :

هناك أحداث أساء العرب التعامل معها فأدت إلى تمهيد السبيل إلى الصلح مع العدو ، وعقد معاهدات سلام معه ، بدلاً من أن تؤدي إلى إسقاط المشروع الصهيوني برمته ، وخروج الأمة العربية كواحدة من القوى الفاعلة في العالم لو أحسنوا التعامل معها .

من هذه الأحداث نذكر ما يلي:

1 ـ الثورات الفلسطينية التي أخذت تتفجر وتتعاظم منذ دخول القوات البريطانية فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، الأمر الذي كان يضطر الإنكليز لإصدار مشاريع لحل الأزمة في فلسطين، بعضها سيىء كله، لا بد من رفضه ، وبعضها يتضمن نقاطاً إيجابية كان ينبغي دراستها بوعي وعمق واستثمارها لصالح العرب ؛ ونضرب على سبيل المثال المشروع الذي تضمنه الكتاب الأبيض الذي أصدرته حكومة بريطانيا عام 1939م= 1368م.ر. وهو العام الذي نشبت فيه الحرب العالمية الثانية ، وكانت الثورة الفلسطينية الكبرى قد مضى على نشوبها ثلاث سنوات ، وكانت في أوجها إذ حققت خطوات ناجحة مثل الإضراب الفريد في التاريخ الذي دام ستة شهور كاملة ؛ فأرادت بريطانيا تهدئة الأحوال بسبب دخولها الحرب ولكي تخفف عن نفسها مزيداً من الأعباء ، فطرحت ذلك الكتاب الأبيض الذي يتضمن مشروع إقامة دولة فلسطينية مستقلة توزع فيها أنصبة الحكم بين العرب واليهود بنسبة ثلثين للعرب وثلث لليهود ، مع وعد قدمته للحكام العرب بأنها سوف تحل المشكلة الفلسطينية حلاً مرضيا شريطة أن يوقف الفلسطينيون ثورتهم .

رفض الفلسطينيون الكتاب الأبيض جملة وتفصيلاً بذريعة أنه يعطي لليهود أكثر مما يستحقون بكثير ، إذ لم يكن اليهود يشكلون في ذلك الوقت سوى أقلية ضئيلة جداً بحيث لا يجوز إعطاؤهم أي حق دستوري في أنصبة الحكم ، ولو أنه يمكن لأي يهودي كفء أن يصل إلى أي منصب يستحقه بجدارته مثله

كمثل أي فلسطيني آخر . فقام الفلسطينيون بمظاهرات ضد المشروع ، وأصدروا بيانات تنديد ، وأطلقوا عليه اسم « الكتاب الأسود » ؛ وكفى الله المؤمنين القتال .

والأدهى من ذلك أن القادة الفلسطينين استجابوا لنداء وجهه إليهم ملوك ورؤساء الدول العربية بضرورة وقف الثورة إلى أن تنتهي الحرب العالمية اعتماداً على صداقة بريطانيا التي وعدتهم خيراً بشأن الفلسطينين ، وقد نسوا ما فعله الإنكليز أنفسهم بالثورة العربية الكبرى ، وإخلالهم بكل وعودهم للشريف حسين ونقضهم كل عهودهم للثورة العربية وقادتها ، وخيانتهم لهذه الثورة وتحالفهم معها بعقد اتفاقية سايكس ـ بيكو من وراء ظهرها وإصدار وعد بلفور . نسي القادة العرب كل ذلك ووجهوا نداء للفلسطينين اعتماداً على وعود بريطانيا « الصديقة » ؛ ونسي الفلسطينيون أيضاً ذلك فاستجابوا للنداء . وكانت غلطة تاريخية كبرى .

أما اليهود فقد رفضوا كذلك الكتاب الأبيض للأسباب التالية :

أ ـ أن مجرد إقامة دولة باسم « فلسطين » ، وليس باسم « إسرائيل » حتى ولو كان لليهود في أنصبة الحكم فيها حصة الثلثين وليس الثلث ، يعد إنهاء لأحلام اليهود في إقامة دولة يهودية خالصة تحمل اسم « إسرائيل » .

ب ـ أن إقامة دولة فلسطينية فيها الأكثرية للعرب ، شعباً وحكومة ، سوف يحول دون متابعة تنفيذ المخطط الصهيوني لقلب الميزان السكاني لصالح اليهود عن طريق جلب المزيد من المهاجرين من جميع أنحاء العالم إلى فلسطين ، وسوف يحبط كذلك مخططهم في إخراج أكبر عدد من الفلسطينيين من فلسطين لإفساح المجال لاستيعاب المهاجرين اليهود .

ج ـ وهذا يعني حكما إسقاط المشروع الصهيوني نهائيا .

لذلك قرروا إسقاط الكتاب الأبيض ، وتحويل مسار الأحداث العالمية

والمحلية لصالحهم . ولا أستبعد هنا أن أجهزة المخابرات اليهودية قد روّجت في الأوساط العربية مقولة أن « اليهود أولاد الفاطسة ، لا يحق لهم أي شيء في فلسطين ، فلا يجوز بالتالي إعطاؤهم أية نسبة في أنصبة الحكم أو سواها ، وأن من يفكر بدراسة مثل هذا المشروع ومحاولة استكشاف نقاط إيجابية فيه إنما يهدف لخدمة اليهود » . بهدف منع الواعين من الفلسطينيين من رفع أصواتهم وطرح أية أفكار إيجابية يمكن أن تؤدي إلى قبولهم بالكتاب الأبيض . وهكذا هب العرب معلنين رفضهم للمشروع عن طريق المظاهرات والبيانات فقط . في حين وضع اليهود معادلة سياسية للتعامل مع هذا الحدث وتوجيهه لصالح مخططاتهم وأهدافهم . تقول المعادلة في طرفها الأول :

« سنقاتل الإنكليز في فلسطين كعدو أول ، وكأنه لا توجد حرب عالمية حتى يسقط الكتاب الأبيض » .

وتقول في طرفها الثاني :

« سنقاتل مع الإنكليز خارج فلسطين كحليف أول وصديق وفيّ وكأنه لا يوجد كتاب أبيض إلى أن تسقط النازية » .

وهكذا كان . فجر اليهود ثورة في فلسطين ضد الإنكليز واغتالوا كبار شخصياتهم ، ولم يأبهوا بالحرب العالمية وبما يمكن أن تسبب ثورتهم من متاعب للإنكليز وهم يخوضون حربا ضروساً ، ولم يراعوا كل ما قدمته لهم بريطانيا من خدمات . في حين أوقف الفلسطينيون ثورتهم استجابة لنداء لا يقدم ولا يؤخر ووعود أثبت التاريخ كذبها . كما شكل اليهود فيلقاً يهودياً انضم لقوات الحلفاء ضد ألمانيا النازية .

وكانت النتيجة أن سقط الكتاب الأبيض بسبب رفض الطرفين له ، وربح اليهود فلسطين وأقاموا عليها دولتهم كمرحلة نحو الهدف الأكبر في إنشاء دولة « إسرائيل الكبرى » . أما العرب فقد أسفر سوء تعاملهم مع أحداث تلك

المرحلة ، وسوء استثمارهم للثورات المتواصلة وعدم تمكنهم من وضع معادلة سياسية تجعل حل المعادلة الصهيونية مستحيلاً ، وتحول مسار الأحداث لصالح العرب ولو على المدى البعيد ، وعدم استغلالهم لانشغال الإنكليز في حرب عالمية ، ورغبتهم الشديدة في تحقيق استقرار في مستعمراتهم ، واستغلال ثورة اليهود ضد الإنكليز في فلسطين فيزيدوا من ضغطهم على الإنكليز لدفعهم إلى اتخاذ خطوات عملية نحو تحقيق استقلال فعلي لفلسطين ، ولو كان في ذلك الاستقلال في مراحله الأولى بعض الثغرات ، لأن مثل هذه الثغرات يمكن سدها بمرور الزمن وبفضل وعي الشعب وحنكة قادته .

2 ـ حرب الـ 48 . بدأت هذه الحرب التي رقمناها بالحرب العربية الإسرائيلية الأولى ، في 1948/5/15م= 1377م . ر . عندما دخلت الجيوش العربية إلى فلسطين بهدف ظاهري هو الحيلولة دون استمرار الدولة اليهودية التي أعلن عن إنشائها في فلسطين .

كان لدى اليهود عصابات إرهابية منظمة ، ومزوّدة بأسلحة حديثة وجيدة من الكتلة الغربية والكتلة الشرقية على حد سواء . وكانوا يقومون بأعمال إرهابية ضد العرب ذات أهداف محددة واضحة هي إرغام الفلسطينين على الهرب وإخلاء البلاد ، وبهدف تغيير خارطة التقسيم التي لم تعجب اليهود في واقع الأمر ، ولكنهم لم يرفضوا قرار التقسيم لأنه يضعهم على طريق أهدافهم ودليل رفضهم لقرار التقسيم عمليا رغم قبولهم له نظريا هو اغتيالهم للكونت برنادوت وسيط الأمم المتحدة في مطلع الخمسينات لمجرد أنه اقترح تنفيذ قرار التقسيم .

أما العرب فلم يكن لديهم أي تنظيم عسكري سوى فصيل كان يقوده الشهيدان عبد القادر الحسيني وحسن سلامة في منطقة القدس وسلمه وباب الواد ، وقد حقق هذا الفصيل إنجازات عسكرية هائلة . هب الشعب

الفلسطيني يقاوم المشروع الصهيوني والتقسيم فرديا ؛ حتى حصولهم على السلاح أيضاً كان فرديا وبأسعار خيالية . ومع ذلك كان بإمكان الفلسطينيين والدول العربية التعامل مع هذه المرحلة بطريقة تسفر عن انتصار حقيقي للعرب . مثلاً :

أ ـ طالب كثير من وجهاء فلسطين الدول العربية بأنْ يرسلوا إليهم ضباطاً من جيوشهم (ضباطاً فقط) يدربون الشعب الفلسطيني وينظمونه ويقودونه في معاركه ضد اليهود . وبذلك لا تحتاج الدول العربية لإدخال جيوشها ؛ ويكفي أن تؤمن بعض الأسلحة والذخائر . عندئذ لن يستطيع اليهود الصمود أمام أهل البلاد ، وقد ثبت فعلاً أن اليهود لم ينتصروا على الشعب الفلسطيني في أية معركة دارت بينهم لا في الجليل (حيث كان شباب القرى يتصرفون عشوائيا وفرديا) ولا في منطقة القدس (حيث كان عبد القادر الحسيني وحسن سلامة يقودان فصيلاً منظماً) . ولكن الدول العربية لم تلب هذا الطلب ، ولم تصغ إليه .

ب ـ كانت هناك أعداد هائلة من الشباب الفلسطيني منخرطين في قوة حدود عبر الأردن (المعروفة بالزنار الأحمر ، لأن عناصرها كانوا يتمنطقون بزنار أحمر) ، وفي سلك الشرطة الإضافية ، وسلك الشرطة الرسمية ، وسلك الجيش الاحتياطي (المعروف بجيش الطاقية الحمراء لأن عناصره كانوا يلبسون قبعات حمر) . كان يمكن لكل هؤلاء أن ينسحبوا بكامل أسلحتهم وذخائرهم من هذه الجيوش والهيئات (علما بأنه كان هناك عدد من الضباط الإنكليز يشجعون مثل هذه الحركة ، بل كانوا يحثون عليها مع إفهام العناصر العربية بأنهم سوف يسهلون لهم مثل هذه المهمة أو على الأقل سوف يغضون الطرف أو يغيّبون أنفسهم . لم يكن أحد يعرف دوافع مثل هؤلاء الضباط الإنكليز الذين قُتل بعضهم على يد العصابات اليهودية) . حصلت حوادث هروب بالسلاح فردية كثيرة ، ولكن ذلك لم يحدث على نطاق جماعي منظم ،

الأمر الذي في حالة إتمامه يمكن أن يخلق وبوقت قصير جداً جيشاً فلسطينيا كثير العدد وحسن العُدّة ، لا يستطيع اليهود أن يحققوا شيئاً تجاهه ، وبالتالي يفشل اليهود في إقامة دولتهم ، أو على الأقل يضعف تلك الدولة ويحجمها ويمنعها من التوسع ويمنع العصابات اليهودية من ارتكاب عمليات الإرهاب والمجازر ضد أهل القرى الفلسطينية الآمنين العزَّل من السلاح .

ج ـ كان ينبغي أن يعلن الفلسطينيون عن قيام دولة فلسطينية دون تحديد لحدودها ، تماماً كما فعل اليهود . وكان ذلك سوف يؤدي إلى النتائج التالية :
١ ـ وجود دولة فلسطينية تعترف بها الأمم المتحدة والعالم كله تماماً كما اعترفوا بالدولة اليهودية ، لأن كليهما قامتا بموجب قرار واحد صادر عن الأمم المتحدة فلا يعقل أن تعترف هذه الهيئة بدولة دون أخرى .

وبالطبع سوف ينبري من يقول إن اتخاذ مثل هذه الخطوة يعني اعترافاً بقرار التقسيم الذي رفضه العرب . فأقول بكل احترام وتقدير : لو نظرنا إلى قرار إعلان الدولة اليهودية سنجد أنه لا يتضمن أية إشارة إلى قرار التقسيم ولا إلى الحدود التي رسمها ذلك القرار للدولة اليهودية . ألا يمكن للعرب أن يفعلوا ذلك ؟ ليس للدولة اليهودية دستور حتى الآن . ألا يمكن أن نكون قد فعلنا مثلهم ؟
٢ ـ حتى لو كان إعلان قيام الدولة الفلسطينية يعني اعترافاً ضمنيا بقرار التقسيم فإنه يعني أيضاً تمسك الفلسطينين بأرضهم ، وعدم الخروج منها . وهذا بحد ذاته إفشال لمخطط اليهود لقلب الميزان السكاني ، بل أكثر من ذلك ، إن وجود دولة فلسطينية يعني وجود حكومة ، وقيادة سياسية وعسكرية وغير ذلك في قلب فلسطين تستطيع تنفيذ الفكرة الواردة في الفقرة (ب) أعلاه وغيرها من الأفكار والخطوات التي تعزز مثل هذا الكيان والحيلولة دون تشرد الفلسطينين .

ولنتصور الآن أن الفلسطينين جميعاً ظلوا في أرضهم ولم يخرج منهم

أحد ، فكيف يمكن لما يسمى بدولة « إسرائيل » أن تتوسع ، أو أن تحوي العدد الهائل من اليهود الموجودين فيها الآن . حتى ولو ابتلعت دولة اليهود الدولة الفلسطينية ، كما يحاجج بعض الناس اعتقاداً منهم بأن العالم سوف يساعدها على ذلك ، فإن بقاء كل الفلسطينيين في بلادهم ، نعم ، إن مجرد بقائهم حتى ولو لم تُتخذ أية خطوة أخرى يعد عقبة لا يمكن تجاوزها أمام الكيان الصهيوني . ولهذا فإن قادة الكيان الصهيوني اليوم ينظرون إلى إقامة دولة فلسطينية على أنه نقيض للدولة اليهودية وعامل من عوامل هدمها ، وكذلك ينظرون إلى مسألة عودة اللاجئين على أنها تدمير لدولة « إسرائيل » . وكان ينبغي للقيادة الفلسطينية حينذاك المتمثلة بالهيئة العربية العليا برئاسة سماحة مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني (الذي كان خارج البلاد) أن يصدر بيانا على الأقل يدعو فيه الشعب الفلسطيني إلى التمسك بالأرض وعدم مغادرتها حتى لو ماتوا جميعاً . فإن أحداً عندئذ لن يخرج من فلسطين لما كان لسماحته من شعبية واسعة ومحبة عميقة وطاعة لدى شعبه . لكنه لم يفعل ذلك ، ولا الدول العربية دفعت بهذا الاتجاه ، اتجاه إقامة دولة فلسطين ودعمها ولا في اتجاه الحيلولة دون تشردهم ، بل ما حدث هو العكس تماماً إذ أسهم الإعلام بغباء في تشجيع الهروب من الوطن ، حتى بلغ به الأمر أن وصم الذين تمسكوا بالأرض ولم يخرجوا منها بالعمالة لإسرائيل ، وبالخيانة للقضية العربية .

د ـ حتى بعد عقد الهدنة الدائمة بين الدول العربية و« إسرائيل » وضم الأردن الضفة الغربية إلى المملكة الأردنية الهاشمية ، ووضع غزة تحت الإدارة المصرية ، بقي لواء الجليل بأكمله دون أن تلحقه أية دولة عربية ، وخصوصاً لبنان أو سوريا ، مدة خمس سنوات إلى أن صدر قرار إسرائيلي بضمه لدولة « إسرائيل » . وكان ينبغي أن تقوم سوريا بضمه إليها ، فإن ذلك يحصر دولة العدو ضمن أضيق حدود ممكنة .

هـ ـ كذلك عندما أعلن الفلسطينيون عن تشكيل حكومة فلسطينية مقرها غزة باسم « حكومة عموم فلسطين » برئاسة أحمد حلمي باشا في 1948/10/1م= 1377م.ر. لم يعمل العرب على تعزيزها وتقويتها وجعلها نقطة انطلاق نحو خطوة أوسع . بل حصروها في غرفة في مبنى في القاهرة إلى أن ذوت وماتت دون أن تتمكن من الوقوف أو حتى التنفس .

وهكذا فشل العرب في استثمار أي حدث أو أي قرار أو أية خطوة لتحويل مجرى أحداث عام 1948م= 1377م.ر. لصالحهم في حين نجح اليهود نجاحاً حاسماً .

وكانت هذه أول هزيمة عسكرية حلت بالجيوش العربية كلها وبالأنظمة العربية جميعها . إلا أن الشعب العربي لم يقتنع أن العرب هزموا فعلاً ، بل لم تكن تلك التحركات إلاّ جزءاً من مسرحية أو تمثيلية . ولهذا وقعت سلسلة انقلابات في الوطن العربي بحجة إزاحة المتهاونين والمتخاذلين والخونة (هكذا كانت تقول البيانات العسكرية الانقلابية) وإقامة حكم يعمل على استرداد الحقوق السليبة بما فيها فلسطين . ولكن الأحداث أثبتت أن كثيراً من هذه الانقلابات كان لاحتواء نقمة الشعب العربي وغضبه مما حصل للجيوش العربية وللفلسطينيين (رغم أن الذين نفذوا الانقلابات ربما يكونون مخلصين فيما ادعوا وأعلنوا من أسباب وأهداف) .

3 ـ العدوان الثلاثي (حرب الـ 56) :

مصر أكبر دولة عربية وأقواها بشريا وعسكريا واقتصاديا رغم ما يبدو من فقر على شعبها ؛ فهي ذات موارد اقتصادية لا يستهان بها . ففيها نهر النيل العظيم ، وفيها من المواقع السياحية ذات الشهرة العالمية ما يدر عليها دخلاً كبيراً ، وفيها قناة السويس ، الممر المائي الدولي البالغ الأهمية . وزعيمها في ذلك الوقت جمال عبد الناصر الذي كان يعد رائداً للقومية العربية ، ويتمتع

بشعبية عارمة في الوطن العربي وبمكانة جيدة في العالم .

فإذا ماهزمت مصر وقائدها هذا فإن بقية الأقطار العربية ستقتنع بعدم جدوى قوتها العسكرية . هكذا فكر الغرب والقادة الصهاينة . فوضعوا الخطط لإضعاف مصر اقتصاديا أولاً وهو نهج أصبح معروفاً تماماً ؛ فألغت أمريكا والبنك الدولي تمويل إنشاء السد العالي ، كما ذكرنا سابقاً ؛ ومهما قيل عن الجدوى الاقتصادية لهذا المشروع ، فإن مسألة إنشائه أصبحت قضية وطنية ، دفعت القيادة المصرية إلى تأميم القناة ، فاغتنمت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل هذه الحادثة وقاموا بالعدوان الثلاثي .

كانت أهداف العدوان الثلاثي تتمثل في إنزال هزيمة في رائد القومية العربية وإذلاله ، ليكون درساً لبقية القادة العرب الذين ما زالوا يرفعون شعار القومية والوحدة وتحرير فلسطين ، إضافة إلى الاستيلاء على قناة السويس ووضع أيديهم عليها مباشرة كمصدر اقتصادي هام وممر مائي خطير ، تماما كما تفعل أمريكا الآن فيما يتعلق بمنابع النفط .

لكن هذه الحملة لم تحقق أغراضها رغم نجاحها العسكري ، لأن عبد الناصر ازداد شعبية بسبب إعلانه عن مواصلة القتال شعبيا وأُخرج المعتدون في النهاية من الأراضي التي احتلوها .

والدرس الذي لم يستطع العرب الإفادة منه ، والذي يستخلص من هذا الحدث هو درس المقاومة الشعبية الذي كان له أثر في طرد الممثلين ، إضافة إلى العوامل الدولية ، وكان لها أثر كبير في رفع أسهم جمال عبد الناصر ، وهذا يعني أن استسلام الأنظمة لدى أول ضربة تحل بقواتهم المسلحة يؤدي إلى مزيد من الهزائم والاستسلام ، أما الإصرار على المقاومة والاستمرار في الحرب ولو على صعيد شعبي وحرب عصابات ، يؤدي إلى فشل العدو في النهاية وانتصار الشعب وارتفاع أسهم الحكام إلى مصاف الأبطال القوميين

والعالميين . ولكن يبدو أن العرب لم يتعلموا هذا الدرس أو لم يفهموه ولم يستوعبوه .

4 ـ وحدة مصر وسوريا عام 1958 م = 1387 م . ر .

كانت وحدة مصر وسوريا ضربة قاصمة رد بها العرب على العدوان الثلاثي والتهديدات الغربية عبر تركيا ، وكانت هذه الوحدة أملاً عربياً جماهيرياً رأت فيها الأمة العربية مستقبلها المشرق المتميز بالتحرر الكامل سياسياً واقتصادياً وثقافياً ، وبتحرير الأرض من غاصبيها ، وكانت فرصة كبرى أمام حكام العرب وأمام الشعب العربي لتوجيه مسارات التاريخ باتجاه مصلحة العرب والمسلمين ، لكنهم فوتوا هذه الفرصة ولم يعرفوا كيف يتعاملون مع هذا الحدث العظيم في تاريخ الأمة العربية الحديث والمعاصر .

فبدلاً من أن تضع الأحزاب القومية منها والوطنية ، الشيوعية والإسلامية العربية معادلة تقول في طرفها الأول :

الوحدة فوق كل المصالح القطرية والحزبية (الشخصية)وينبغي الدفاع عنها وحمايتها ، ولو أدخلنا جميعاً السجون على يد نظام الحكم في دولة الوحدة (الذي كان يعارضه كثيرون) .

وتقول في الطرف الثاني :

« بعد ترسيخ الوحدة ، سنتابع النضال ضد النظام الحاكم الذي نعارضه إلى أن تتحقق مطالبنا وأهدافنا » .

أيدوا الانفصال ، بل عملوا على ترسيخه . كذلك لم يواجه جمال عبد الناصر حركة الانفصال بما ينبغي أن تواجه به حركة كهذه . كان ينبغي لعبد الناصر أن ينزل بنفسه في حلب أو في اللاذقية أو على الأقل كان يجب عليه أن يضع معادلة سياسية لمواجهة هذا الحدث والتعامل معه لتحويله إلى صالح الأمة ، تقول المعادلة في طرفها الأول :

« على الشعب العربي في سوريا ومصر أن يقاوم الانفصال ويحارب الانفصاليين إلى أن تعود الوحدة » .

وتقول في طرفها الثاني :

« على نظام الحكم بعد إسقاط الانفصال وإعادة الوحدة فتح حوار أخوي بنَّاء مع المعارضة للتوصل إلى صيغة حكم يرضى عنهاالجميع ، وتتجنب أية أمور يراهاالشعب غير مناسبة أو غير صحيحة » .

عندها سوف يهب الشعب الذي خرج إلى الشوارع يبكي الوحدة ويزمجر غضبا من الانفصاليين ، ذلك الشعب الذي ملأ شوارع دمشق وراح عدد منه ضحية التدافع للقاء عبد الناصر ورؤيته ، هذا الشعب الذي ظل معارضاً للانفصال حتى إنه بعد شهور ثلاثة قامت حركة في سوريا لإعادة الوحدة(*) ، وقد رفعت أعلام الوحدة في جميع أنحاء سوريا ما عدا مبنى الأركان في دمشق ، هذا الشعب كان سيهب للدفاع عن الوحدة ويعيدها أقوى مما كانت عليه ، خصوصاً إذا عرفنا أن الانفصاليين لم يكونوا أقوياء ، وكانوا أضعف بكثير من أن يواجهوا ثورة شعبية يقودها جمال عبد الناصر .

أما الذريعة بأن أمريكا كانت سوف تتدخل لو حصل مثل ذلك ، فهي

(*) قام بهذه الحركة جميع الضباط الناصريين والوحدويين في الجيش السوري ، ومن بينهم ضباط بعثيون ، وقد أيد هذه الحركة كل الجيش وكل ضباطه ماعدا نامق كمال الذي كان يستولي على الأركان في دمشق بوصفه رئيساً لهيئة الأركان في الجيش السوري .

إذ رفعت أعلام الوحدة في جميع أنحاء سورية ماعدا مبنى الأركان بدمشق حيث كان نامق كمال . ثم عقد مؤتمر في حمص بقيادة حزب البعث ، وكرس الانفصال ، وأفشل هذه الحركة التي لم تلق في الوقت نفسه دعماً من قبل جمال عبد الناصر . سوى الدعم الإعلامي . رغم أن الشعب السوري بأكمله تقريباً كان مؤيداً لهذه الحركة ومتحمساً لإعادة الوحدة .

مردودة على قائليها ، وتعبر عن خوف متأصل في نفوس الحكام العرب من شيء اسمه أمريكا أو صهيونية ، ومن هم وراءها ، الأمر الذي يثبط الهمم ويؤدي إلى التقاعس عن الجهاد وإلى اليأس والتخاذل وهذا ما نهى عنه الله في كتابه الكريم(*) . وقد أثبتت الأحداث سواء في فيتنام أو أفغانسان أوديان بيان فو أو لبنان أو في البوسنة والهرسك ، وفي أماكن عديدة من العالم عبر التاريخ أن الشعب إذا صمم على أمر ما وتفانى في سبيله لا يمكن أن يفشل ، حتى إن انتشار الإسلام لأكبر دليل على ذلك . ألم يكونوا فئة قليلة ومن حولهم أعداء أشدّ وأعتى من القوتين العظميين في عصرنا أو من القطب الأوحد هذه الأيام ، طبعاً بالمقارنة وحساب فارق الزمن ؟! ومع ذلك حقق المسلمون انتصارات لم يسجل التاريخ مثلها حتى الآن ، فالشعب في سوريا وفي كل البلدان العربية كان على استعداد لأن يخوض حرباً شعبية ضد أية قوة أجنبية تتدخل لتكرس الانفصال . وأعلم أنا شخصياً من خلال علاقات الصداقة التي كانت قائمة بيني وبين كثير من الضباط السوريين من البعثيين وغيرهم من الأحزاب الوطنية أنهم كانوا على استعداد لبذل أي شيء من أجل الحفاظ على الوحدة ، وكانوا يتحرقون لتلقي أوامر من قياداتهم بالتحرك لإفشال حركة الانفصال ، ولكن الذي حدث أن هذه القيادات قبلت بالانفصال ، وانتهت الوحدة تحت شعار الوحدة .

وكان انهيار الوحدة خطوة على طريق التمهيد لدفع العرب إلى المصالحة مع إسرائيل وإقناعهم بالتخلي عن فكرة الوحدة نهائياً ، لأن الوحدة التي قامت

(*) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب . وانظر كذلك الآيات التالية :
أ ـ سورة الأنفال : الآيات ١٢ ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ١٨ ـ ٢٦ ـ ٤٥ ـ ٦٠ ـ ٦٥ .
ب ـ سورة آل عمران : الآيات ١٣٩ ـ ١٤٢ .
ج ـ سورة النساء : الآية ١٠٤ .
د ـ سورة الأحزاب : الآية ١٦ .
هـ ـ سورة الجمعة : الآية ٨ .

بين أكثر قطرين عربيين تمسكاً بالقومية العربية ، وأشد الأقطار العربية دعوة للوحدة العربية وبقيادة رائد الأمة العربية ، لم تستطع الصمود أكثر من ثلاث سنوات ، فكيف يكون مصير محاولات أقل منها شأناً ووزناً ؟! ويمكن القول دون مجازفة كبيرة إن الحكام العرب غير جادين في تحقيق وحدة عربية فعلية ولا في مواجهة إسرائيل جدياً(*) .

5 ـ الثورة الفلسطينية المعاصرة ، ومنظمة التحرير الفلسطينية :

رداً على الانفصال ، ومحاولة من الفلسطينيين لدفع العرب إلى مواجهة ساخنة مع « إسرائيل » أملاً في أن تشكل تلك المواجهة خطوة على طريق الوحدة وتحرير فلسطين ، وكي لا يظل الشعب قلقاً حول مسالة الوحدة كشرط سابق للتحرير خصوصاً بعد فشل أول وأقوى تجربة وحدوية ، قرر الفلسطينيون اتخاذ خطوة ما تؤدي إلى وضع الأمور في مسار جديد ، فأثير موضوع إقامة شكل من أشكال الكيان الفلسطيني في مؤتمر القمة العربية بعد نكسة حزيران ، وذلك بالتنسيق بين عبد الناصر والشقيري ، كما أسلفنا في فصل سابق ، وكانت النتيجة أن أنشئت منظمة التحرير الفلسطينية التي نص ميثاقها على تحرير كامل التراب الفلسطيني ، وعلى أن الوحدة العربية وتحرير فلسطين يرتبطان بعلاقة جدلية يؤدي كل منهما إذا تحقق قبل الآخر إلى تحقيق العنصر الآخر ، أي إذا تمت الوحدة قبل التحرير فذلك سيؤدي حتما إلى التحرير ، وإذا ما تم التحرير قبل الوحدة فإنه كذلك سيؤدي حتماً إلى الوحدة العربية .

كما قررت بعض الفصائل الفلسطينية التي تشكلت بعد الانفصال أن تواجه « إسرائيل » فدائياً . كانت أول عملية في 1965/1/1م= 1394م . ر ؛ وبغض النظر عما قيل حول الدوافع الحقيقية وراء إنشاء م . ت . ف . والقيام بعمليات فدائية

(*) Between Arab and Israeli, by Lieutenant- General E.L.M. Burns, D.S.O. O.B.E. M.C., The Institute for Palestine Studies, Beirut, 1969.

ضد إسرائيل فإن نشوء مثل هذه الظاهرة يعد إيجابياً في أكثر جوانبها .

ومع ذلك لم تستطع قيادة م ت ف ، ولا القيادة العربية إحداث تفاعل بين المنظمة والثورة الفلسطينية فيما بينهما ، وبين المنظمة والثورة من جهة والشعب العربي والحكومات العربية من جهة أخرى بحيث تصبح هذه الثورة بقيادة المنظمة اليد الضاربة للأمة العربية جميعها دون ان تتحمل مسؤولية الحرب النظامية إلا دفاعاً عن النفس أو في حالة توافر الظروف العالمية الملائمة لشن حرب تحرير شاملة ، كان يمكن لقيادة م ت ف والدول العربية أن تجعل من المنظمة وجيش التحرير التابع لها ، وفصائل المقاومة الفلسطينية الجيش العربي الواحد الذي يوفر على الدول العربية خوض حرب نظامية في ظروف غير ملائمة ، ويجعلها دائماً في موقف المدافع ظاهرياً والمهاجم فعلياً ، ولكن ذلك لم يحصل ، بل شرعت كثير من الدول العربية بالإخلال بما التزمت به تجاه جيش التحرير ، وأخذت تتنازع الفصائل الفلسطينية وتحاول تسخيرها لمصالحها القطرية أكثر من توجيهها نحو التحرير .

كذلك القيادة الفلسطينية ، لم تعرف كيف تتعامل مع هذه الظاهرة بالشكل الصحيح ، أو أنهم انساقوا في تيارات لا تسير في الاتجاه الصحيح ، مثلاً ، كان ينبغي على جميع الفصائل الفلسطينية أن يجعلوا من منظمة التحرير الفلسطينية الواجهة السياسية والإعلامية للحركة الفلسطينية بل كان يمكنهم أن يجعلوا منها جهازاً مدنياً متكاملاً يقدم مختلف الخدمات للشعب الفلسطيني ، وذلك عن طريق انضمام عناصر الفصائل بشكل فردي ظاهرياً ، إلى المنظمة مع بقاء التزامهم بفصائلهم ومنهجهم الثوري المقاوم واقعياً ، وأن تفرز كوادر سياسية لقيادة المنظمة دون الإعلان عن أنها من كوادر هذا الفصيل أو ذلك ، مع الاستمرار بعملياتها الفدائية ضد العدو الصهيوني ونسبة كل عملية إلى الفصيل الذي قام بها فعلاً مع عدم ذكر أي شيء عن الكوادر المقاتلة أو قياداتها التي يمكن أن تعمل من خلال الواجهة السياسية كأفراد وليسوا ككوادر من

الفصائل كما ذكرنا قبل قليل ، وبذلك تجنب م ت ف المسؤولية المباشرة عن العمليات الفدائية ، حتى إذا لزم الأمر أن تشجب المنظمة عملية ما فلتفعل بتنسيق مع الفصائل تماماً كما كانت تفعل الوكالة اليهودية .

أي إن مجريات الأحداث لم تسر بهذا الاتجاه ، بل سارت باتجاه توجيه اتهامات لمنظمة التحرير إلى أن استولت عليها الفصائل فوقعت في الأخطاء والمحاذير نفسها التي كانت تنتقد فيها م ت ف (*) . وسارت كذلك باتجاه توريط المنظمة بصدامات فلسطينية ـ عربية ، واقتتال فلسطيني ـ فلسطيني ، وتحويل جيش التحرير إلى عبء بدلاً من أن يكون مصنعاً للرجال والفدائيين .

وهذه فرصة أخرى فَوَّتَها العرب ، وغدت خطوة على طريق التمهيد لمرحلة السلام مع العدو الصهيوني ، حتى إن هناك من يرى أن العرب أوجدوا المنظمة في الأصل ليس للتحرير ، ولكن لإيصال الفلسطينيين إلى التصالح مع « إسرائيل » بأنفسهم حتى لا يعودوا لاتهام العرب بأنهم هم الذين تخاذلوا وتهاونوا(**) .

6 ـ حرب حزيران عام 1967 م = 1396 م . ر .

لم تعرف القيادة المصرية كيف تتعامل مع الحملة الإعلامية حول وجود حشود عسكرية إسرائيلية على الحدود السورية بهدف الهجوم على الجمهورية العربية السورية ، وحملة التشكيك ضد جمال عبد الناصر والقيادة المصرية . إذ كان ينبغي للقيادة المصرية أن تتأكد أولاً من صحة إشاعة وجود حشود

(*) انظر كتاب « نقاط على حروف في الصراع العربي الصهيوني » للمؤلف ، نشر دار الأدهم ، دمشق .

(**) باتريك سيل : « الأسد : الصراع على الشرق الأوسط » ، النسخة العربية ، ترجمة المؤسسة العامة للدراسات والنشر والتوزيع ، حزيران ، 1988م .

وانظر كذلك كتاب « كتابات حول قضايا عربية » لوصفي التل ، عمان ، 1980 ، ص 326 .

إسرائيلية بالحجم الذي أُعلن عنه والذي يشكل بالفعل تهديداً لسوريا . وسواء ثبت وجود مثل هذه الحشود أم لم يثبت ، كان بإمكان القيادة المصرية تحريك قواتها داخل سيناء دون أن تعلن عن ذلك ، ودون أن تطلب من قوات الطوارىء الدولية الانسحاب . وتوزع القوات في مواقعها الدفاعية والهجومية وتركز ، وتعزز دون أي ضجيج إعلامي أو أي تهديد بخوض حرب ، بل بالعكس كان يمكن أن تتخذ مثل هذه الخطوة تحت دعوى التخوف من قيام إسرائيل بحشود على الجبهة المصرية وتهديد مصر كما تفعل على الحدود السورية ، فكان إذن لابد من اتخاذ خطوات وقائية دفاعية ؛ وعدم الطلب من قوات الطوارىء الانسحاب يمكن أن يعطي مصداقية لهذه الدعوى . فإذا ما قامت إسرائيل بعدوان على سوريا ، حينئذ مهما كانت نتائج المعركة على الجبهة السورية ، تتدخل القوات المصرية في الوقت المناسب للحيلولة دون انتصار إسرائيل على سورية ، أو لتعزيز انتصار سوريا على إسرائيل بانتصار مصري ، يمكن أن يؤدي إلى أن يفرض العرب شروطهم وتحويل مسار الأحداث لصالح الأمة العربية في المستقبل .

ولكن الطريقة التي عولجت بها هذه المسألة كانت أقرب إلى المعالجة الدعائية الإعلامية منها إلى المعالجة العلمية الاستراتيجية . إن القيادة التي تتأثر بحملة تشكيك إعلامية من خصومها لدرجة أنها تورط نفسها في مواقف غير مدروسة تعد غير حكيمة وتسهل على الخصوم تحقيق أهدافهم . فقد سمعت بنفسي من هؤلاء الخصوم يقولون عندما قام عبد الناصر بخطواته المذكورة آنفاً « وقع المغفل في الفخ » . إضافة إلى السلوك غير المسؤول الذي سلكه قادة جيش مصر ليلة الهجوم الإسرائيلي .

وهكذا أدى سوء التعامل مع الحدث وعدم استخدام المعادلات السياسية إلى نكسة تماثل في خطورتها نكبة الـ 48 ، ونكسة الوحدة فكانت هذه الهزيمة أيضاً خطوة على طريق الإعداد والتمهيد للصلح مع العدو ، بدلاً من أن

تكون خطوة على طريق تحقيق الوحدة وتحرير الأرض المغتصبة .

لكن الشعب العربي حاول تجاوز هذه الهزيمة مرّة أخرى فهب الشعب في مصر وفي كل أنحاء الوطن العربي يطالبون عبد الناصر بالعدول عن استقالته التي قدمها إثر الهزيمة متحملاً المسؤولية الكاملة ومطالباً الشعب بمحاكمته ، والبقاء في قمة السلطة . ومهما قيل من آراء وأشيع من أقاويل حول استقالة عبد الناصر تسبغ عليها مسحة من الشك وعدم الثقة واتهامه بأنها لعبة ليعود إلى السلطة نظيفاً من المسؤولية (وهي من جملة الحملات التي شنت قبل ذلك ودفعته إلى التورط في هذه الهزيمة) ، وبرغم ما أحدثته تلك الهزيمة من سلبيات في نفوس الأمة ، وبرغم كونها نقطة سوداء في تاريخها ، إلا أنني أرى أن لها إيجابية واحدة ، ليست كما قالت أجهزة الإعلام العربية حينذاك من أن هدف العدوان كان إسقاط الأنظمة التقدمية والثورية ولكنه لم يستطع ، وبالتالي فإن الحرب كانت نصراً للعرب ، وكأن أشخاص الحكام أهم من الأرض والوطن الذي احتل . لا ، ليس كذلك . لقد هُزمنا ، ويجب أن نعترف بالهزيمة كي نستطيع تجاوزها ، وإلا نظل غارقين في أوحالها ومآسيها . أقول إن حرب حزيران أسفرت عن تخليص عبد الناصر من وهم كان مسيطراً عليه حوله إلى حاكم اسمي بدون سلطات فعلية ، الأمر الذي جعله يفشل في مواجهة الانفصال ، والحفاظ على الوحدة ، وجعله يفشل في التعامل مع حرب حزيران نفسها . ويتلخص هذا الوهم بأن الجيش هو صانع الثورة وحاميها والمدافع عنها . وفي ظل هذا الاعتقاد الوهمي تشكلت مراكز قوى ضمن السلطة مدعومة بمراكز قوى ضمن الجيش كبّلت عبد الناصر وأربكته ، واعتقد أنه إذا ضرب مراكز القوى هذه ووضع حداً لها فإن ذلك سيؤدي إلى انهيار الثورة ذاتها أو إلى حرب أهلية أو حركة انقلابية تدخل البلاد في متاهات لا تعرف نتائجها ، الأمر الذي حال دون تمكنه من اتخاذ أية خطوة في اتجاه إصلاح الوضع . فجاءت حرب حزيران فأسقطت كل مراكز القوى هذه ،

خصوصاً مراكز القوى العسكرية التي انكشف ضعفها وإهمالها للوطن وتهاونها في الدفاع عنه ؛ وعندما هب الشعب كله لإعادة عبد الناصر إلى السلطة ، ونجح في ذلك يكون قد عاد بفضل الشعب ، وتكون الثورة قد ظلت على قيد الحياة بفضل الشعب أيضاً ، وليس بفضل الجيش ولا بفضل مراكز القوى . وبذلك تحررت مصر من قبضة تلك المراكز التي أعاقت تقدم البلاد ، وأسهمت في إفشال الوحدة مع سوريا ، وزجت مصر في اليمن بحجة أن تدخلها هناك يغطي فشل الوحدة ، وسببت هزيمة حزيران ، وتحرر عبد الناصر نفسه من ذلك الوهم المسيطر ، فشرع يأخذ خطوات إيجابية ويسلك منهجاً جديداً في اتجاه بناء مصر الحديثة وبناء تنظيم شعبي طليعي روحه الإسلام وحياته العروبة في مصر ، وعلى صعيد الوطن العربي كله ؛ فتدارك ما كان قد فاته من قبل إذ كان من الضروري إقامة تنظيم مثل هذا منذ أن أصبح زعيماً فعلياً لمصر وللأمة العربية بدلاً من التجارب التي طرحها مثل الاتحاد القومي ، والاتحاد الاشتراكي وغير ذلك من تنظيمات أسهمت في إفشال المسيرة الوطنية والقومية .

إلا أن الأمر لم يطل به . بل لم يمهله الزمن حتى يستكمل هذا المنهج ، بل ربما عاجله أعداء الأمة العربية فتخلصوا منه . المهم أن المنية عاجلته بعد الصدام الدموي الذي وقع بين الأردن والفلسطينيين ؛ وقد أعلن نبأ وفاته يوم الاثنين في 27/ رجب/ 1390هـ= 28/ أيلول/ 1970م= 1399م. ر.

7 ـ ثورة الفاتح من سبتمبر (أيلول) عام 1969 م= 1398 م . ر .

كانت هزيمة حزيران نكسة عربية عميقة ، وظلت آثارها تعمل في النفس العربية رغم التجاوز الظاهري الذي حققه الشعب العربي لتلك المحنة . إلاّ أن الثورة الليبية بقيادة الملازم معمر القذافي 1969/9/1م= 1398م. ر. جاءت ردّاً على الهزيمة ، فرفعت من معنويات الأمة العربية ، خصوصاً أن القيادة الليبية طرحت مسألة الوحدة بين ليبيا وأية دولة عربية وخصوصاً مصر والسودان

وبلدان المغرب العربي وسوريا ، وبذل العقيد القذافي جهوداً كبيرة لتحقيق ذلك ، وأبدى استعداده للتخلي عن السلطة من أجل تحقيق الوحدة . ومن الخطوات الوحدوية التي تمت بالفعل بين ليبيا والأقطار العربية الأخرى ، ولكنها لم تعمر طويلاً ، نذكر :

أ ـ اتحاد الجمهوريات العربية (مصر وسوريا وليبيا) 1971/4/17م= 1400م . ر . الموافق لـ 21/ صفر/ 1391هـ .

ب ـ الوحدة الاندماجية بين مصر وليبيا ، 2/ آب/ 1972م= 1401م . ر .

ج ـ الوحدة بين تونس وليبيا باسم الجمهورية العربية الإسلامية ، 1974/1/12م= 1403م . ر .

د ـ الوحدة بين ليبيا والمغرب باسم الاتحاد العربي الإفريقي ، 1984/8/17م= 1413م . ر .

هـ ـ الوحدة بين سوريا وليبيا ، أيلول (سبتمبر)/ 1980م= 1409م . ر .

و ـ الاتحاد المغاربي (ليبيا والجزائر والمغرب وتونس وموريتانيا) ، 1989/2/17م= 1418م . ر . إضافة إلى اتفاق جَاسي مسعود بين ليبيا والجزائر .

كل هذه الأشكال الوحدوية وُقّعت على الورق ، ومازالت قائمة نظريا ولكنها لم توضع موضع التنفيذ العملي والواقعي ؛ إذ كانت تنهار تجاه أول اختبار تتعرض له . إضافة إلى المسيرة الخضراء التي أراد لها القذافي أن تجبر مصر على التوحد مع ليبيا والتي لم تحقق غرضها(*) . لم يستطع العرب الإفادة من هذه الفرص ، ولااستثمار هذا الاندفاع الوحدوي لدى القيادة الليبية لصالح

(*) انظر كتاب : الإسلام دين الوحدة ، للمؤلف نشر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية .

الوحدة الحقيقية والعملية ولصالح الأمة في صراعها ضد القوى المعادية وعلى رأسها الصهيونية العالمية .

إن إصرار ليبيا على السعي إلى تحقيق الوحدة العربية ، جعل أمريكا تصنفها من دول الإرهاب وتفرض عليها حصاراً اقتصادياً . والمؤسف جداً أن الدول العربية ، بما فيها دول الاتحاد المغاربي كانت أول من التزم بقرار مجلس الأمن الذي يحظر الطيران من وإلى ليبيا . وهذا ما يجعل العالم الأعداء منهم والأصدقاء يستخفون بأمتنا ؛ إذ كيف لدولة أن تقاطع نفسها ؟! فإن ذلك كمثل أن تقاطع ولاية أمريكية ولاية أخرى ، أو أن تقاطع محافظة في قطر محافظة أخرى . أليس الاتحاد المغاربي يشكل قانونيا ودستوريا دولة واحدة ؟! علماً أن الدول الغربية وأمريكا أوعزت لشركاتها بعدم التقيد أو الالتزام بقرارات الجامعة العربية بشأن المقاطعة العربية الاقتصادية لإسرائيل . أما نحن فنسارع لمقاطعة بعضنا بعضاً تنفيذاً لمصالح الأعداء .

وهكذا فشل العرب في التعامل مع ظاهرة الثورة الليبية وتوجهاتها الوحدوية ، حيث كان بإمكانهم إقامة شكل من أشكال الوحدة بين مجموعات متجاورة كخطوة أولى على طريق الوحدة الشاملة ، تكون هذه الوحدات الإقليمية العربية غنية بمواردها وسكانها وطاقاتها ، ذات اكتفاء ذاتي ، وقادرة على توسيع نطاقها عربيا نحو وحدة شاملة . حتى محاولات الوحدة بين سوريا والعراق المتشابهين في نظام الحكم ، بل اللذين يحكمهما حزب واحد هو حزب البعث العربي الاشتراكي ، قد فشلت . فعندما تولى الحزب السلطة في العراق في 1963/2/8م= 1392م.ر، وتسلم الحزب نفسه السلطة في سوريا في 1963/3/8م= 1392م.ر. تحركت السلطة في القطرين باتجاه التباحث حول وحدة القطرين ، وهو أمر تفرضه طبيعة الأحداث . لكن السفير الأمريكي في دمشق حينذاك قام بزيارة إلى محمد عمران أحد قادة حزب البعث في سوريا ، وأبلغه رغبة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية في إيقاف المساعي لإقامة وحدة بين

سوريا والعراق ، فغضب محمد عمران لهذا التدخل السافر والوقح (بنظره) فاحتج على السفير متسائلاً ، وما دخلك أنت في هذا الأمر ؟ فأجابه السفير بهدوء قائلاً : هناك كتلتان في العالم : الكتلة الغربية وتتزعمها الولايات المتحدة الأمريكية ، والكتلة الشرقية ويتزعمها الاتحاد السوفياتي ، وما بينهما هو ما يطلق عليه اسم العالم الثالث . كل هذا العالم الثالث لا يهمنا بقدر ما يهمنا قيام وحدة فعلية بين قطرين عربيين ، وخصوصاً بين سوريا والعراق ، وفي هذا الظرف بالذات . فهذا أمر غير مقبول لدى الكتلتين ، وليس لدينا نحن فقط ، لأن وحدة كهذه في حال نجاحها سوف تؤدي إلى توسيع نطاقها وإلى المزيد من القوة العربية الأمر الذي يهدد مصالحنا ، ويهدد إسرائيل . ثم انصرف السفير . ولم تقم الوحدة بين القطرين ، بل ازدادت العلاقات بينهما سوءاً إلى حد العداء ، ويتبادر إلى الذهن فوراً أن أمريكا هي التي تحول دون أية وحدة . وأتساءل لماذا نسمح لأمريكا أو غيرها أن تحدد مصيرنا ؟! لماذا لا نتحدى كل هذه القوى ونقيم وحدة قوية ، ولْيأتِ هؤلاء لمحاربتنا ، ولتكن حرباً إلى يوم الدين . أليس الخوف من أمريكا وأمثالها هو الذي يقعدنا عن تحقيق أهدافنا أو الجهاد من أجل تحقيقها ؟!

وهكذا حَوَّلنا هذه المرحلة إلى خطوة نحو التصالح مع العدو ، بدلاً من أن تكون خطوة نحو النصر المؤزر .

8 ـ حرب رمضان (تشرين أول/ أكتوبر) 1973م= 1402م . ر .

كانت هذه الحرب بتخطيط عربي سري دقيق جرى بين مصر وسوريا ، وهما اللتان بدأتا المعركة ، وحققت جيوشهما في الأيام الأولى من الحرب انتصارات هائلة أذهلت العالم . وفجأة تنقلب الأمور فإذا بالنصر ينقلب إلى هزيمة ، وتندفع الأمور إلى مزيد من التمهيد ، بل من الخطوات العملية نحو التصالح مع العدو . في حرب الـ 67 تذرع العرب أن العدو فاجأهم في المعركة وأن حليف العرب ، الاتحاد السوفياتي لم يسمح لهم بأن يكونوا هم البادئين ،

الأمر الذي فوت عليهم فرصة مفاجأة العدو(*) . أما الآن فنحن الذين بدأنا ، والعدو هو الذي فوجىء . ومع ذلك هزمنا . لماذا ؟!

أ ـ لأن الجيش المصري توقف بعد اجتياز القناة ولم يتابع تقدمه حتى الممرات على الأقل ، لأن احتلال هذه الممرات يعني السيطرة على سيناء ، ويعني إمكانية الاندفاع إلى الأمام مرَّة أخرى إلى عمق إسرائيل .

ب ـ عدم إغلاق الثغرات التي كان من المحتمل أن يخترقها العدو ، ومثل هذه الأمور لاتخفى على القيادات العسكرية ، خصوصاً إذا كانت مصممة على خوض حرب حقيقية مصيرية . ولو غفلت القيادة عن ثغر من الثغور أو ثغرة من الثغرات ، فينبغي التصدي لأي تسلل للعدو على الفور وحصره والقضاء عليه . لكن الذي حصل أنه لم يتم التصدي لتسلل العدو ، بل إن القيادة المصرية حاولت التمويه لصالح العدو إذ لم تعلن عن حقيقة الأمر إلا بعد استفحاله .

ج ـ الادعاء بأن أمريكا هددت بالتدخل لصالح إسرائيل ، ومرَّة أخرى ، أقول إن الخوف أو التخويف كان ذريعة غير مقبولة . كما أن درس حرب ال 56 التي أكسبت عبد الناصر شعبية هائلة لمجرد إعلانه عن استمرار الحرب الشعبية ضد المحتلين ، لم يكن له أثر في هذه الحرب .

د ـ تراجع القوات السورية كذلك على الجبهة السورية بذريعة أن جيوب العدو ، واستحكاماته الخفية ، لم يتم اكتشافها أثناء تقدم القوات السورية ، ففاجأهم العدو من خلفهم . هذه ذريعة مرفوضة عسكريا أيضا .

هـ ـ يبدو أن الحرب لم تكن بالفعل للتحرير وإنما لتحريك العالم لكي يضغط باتجاه تسوية « لأزمة الشرق الأوسط » بموجب القرار 242 . وهذا

(*) انظر مذكرات محمود رياض ، ومذكرات الشاذلي ، وكتابات محمد حسنين هيكل .

ما جعل مصر توقف تقدم قواتها وتطالب بالتفاوض من أجل تسوية النزاع بين إسرائيل والدول العربية ، وجعلها كذلك تقبل قرار مجلس الأمن رقم 338 على الفور ، الأمر الذي أضعف موقف القوات السورية أكثر .

هكذا تحول الحدث الذي كان يمكن أن يؤدي إلى مزيد من القوة العربية وتمكين العرب من فرض شروطهم على الأقل ، في حال حدوث مفاوضات سلام ، أو حتى كان يمكن للعرب أن يفرضوا هم صيغة المفاوضات ومجرياتها ونتائجها ، وإلا يتعرض الكيان الصهيوني للزوال أساساً ؛ لكن تحول هذا الحدث إلى هزيمة عربية أخرى وخطوة أوسع وأسرع نحو التصالح مع العدو بشروطه هو .

9 ـ غزو إسرائيل للبنان عام 1982م= 1411م.ر.

اغتنمت إسرائيل معاهدة الصلح مع مصر ، وعزل مصر عربياً وشنت هجوماً واسع النطاق على جنوب لبنان كما ذكرنا في فقرة سابقة . والذي أريد قوله هنا في هذه الفقرة أن هذا الهجوم كان يمكن أن يكون مصيدة للعدو لا يخرج منها إلا محطما مهزوماً هزيمة تجبره أيضاً على الخضوع لأية شروط يمكن أن يطرحها العرب ، كما ذكر لي أحد الضباط الكبار وذلك عن طريق تشكيل مجموعات مؤلفة من ثلاثة إلى خمسة أشخاص مزوَّدة كل منها بمدفع « آر . بي . جي » المضاد للدروع ، وقنابل يدوية ومدافع رشاشة ، وذخيرة كافية بحيث لا يقل عدد هذه المجموعات عن بضعة آلاف تتوزع في جميع أنحاء جنوب لبنان وعلى جميع الطرق التي يمكن أن تمر عليها آليات العدو ، وتقوم هذه المجوعات بتدمير الآليات وبالتالي إغلاق الطرق ومنع تقدم العدو ، ومن ثم حصره والقضاء عليه ، إضافة إلى العمليات العسكرية الأخرى والعمليات الفدائية والمقاومة الشعبية . وبذلك يمكن إنزال أكبر هزيمة بالعدو . علماً أن تفكير العدو والقيام بهذا الهجوم قد كشف منذ بضع سنين ، فقد كنت كتبت تقريراً حول ما استخلصته واستكشفته من مؤتمر الحوار البرلماني

العربي - الأوربي الذي عقد في لكسمبرغ بين 6/29 ـ 7/2 من عام 1977م=
1406م. ر. حيث كنت عضواً في وفد المجلس الوطني الفلسطيني ذكرت فيه
(في التقرير) أن هناك مخططا لقيام إسرائيل بهجوم على جنوب لبنان لاحتلال
جنوبه حتى بيروت ، ثم تنسحب بعد تحقيق أهداف الهجوم التي يأتي في
مقدمتها ضرب القاعدة التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية وإخراج جميع
القوات الفلسطينية من الجنوب ، وإخراج المنظمة من لبنان ، إضافة إلى عقد
صلح منفرد مع لبنان يضمن لها السيطرة على منابع الأردن وتأمين حدودها
الشمالية من أية عمليات فدائية أو نظامية سورية في المستقبل عن طريق
الاحتفاظ بما أسميته في التقرير بـ « حزام واق » على طول الحدود اللبنانية
الفلسطينية وبعرض يزيد على مدى المدفعية . أما فيما يتعلق بالفلسطينين فقد
ذكرت في التقرير أن فكرة إقامة دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة غير واردة في
ذهن الأوربيين (في ذلك الحين) ، ومرفوضة نهائياً من قبل (إسرائيل)
طبعاً ، وأن كل ما يمكن أن يقبل به العالم هو حكم ذاتي في الضفة والقطاع
يرتبط في النهاية إما بإسرائيل أو بالأردن ؛ وفيما يتعلق بمسألة القدس ، فقد
ذكرت في التقرير أن العالم يرى حلاً وسطاً تكون فيه القدس موحدة (وهذا
ما يرضي اليهود) وغير موحدة (وهذا ما يرضي العرب) بمعنى أن تكون
القدس الشرقية عاصمة الحكم الذاتي الفلسطيني ، والقدس الغربية عاصمة
« إسرائيل » ، ثم يشكل مجلس بلدي أعلى مشترك يدير شؤون المدينة بوصفها
مدينة واحدة ، ومجلس أعلى للشؤون الدينية مشترك يشرف على الأماكن
المقدسة للأديان الثلاثة . وقدمتُ هذا التقرير إلى رئاسة المجلس الوطني
الفلسطيني مع رجاء اتخاذ التدابير اللازمة لإحباط مخططات إسرائيل والتعامل
مع القضية على ضوء مثل هذه الاحتمالات لجعل الأحداث تسير في صالح
الأمة العربية ، ولكن التقرير حفظ ولم يطرح في دورات المجلس الوطني ،
ولا أدري إن كانت القيادة قد درست هذا التقرير واتخذت ما تراه مناسباً أم لا .

ولكن مجريات الأحداث دلت على أنه لم يحصل ذلك .

إضافة إلى أن الصحف اللبنانية كشفت عن خطة « إسرائيل » في الهجوم ، مع ذكر التوقيت التقريبي ، ونشر خريطة تبين المحاور التي ستتخذها القوات الإسرائيلية في هجومها ، وذلك قبل الهجوم بستة أشهر على الأقل .

ومع ذلك لم يتخذ أحد أية خطوة وقائية ، ولا دفاعية ، ولا أية خطوة معاكسة لإحباط الهجوم وإنزال هزيمة بالعدو . وهكذا فاتت فرصة أخرى . وبدلاً من أن يكون جنوب لبنان مقبرة الغزاة تحول إلى مرتكز فرضت إسرائيل من خلاله اتفاق « 17/ أيار » على لبنان ، ولولا سوريا ودعم الاتحاد السوفياتي حينذاك لتم تنفيذ هذا الاتفاق بكل ما فيه من مكاسب لإسرائيل . حتى بعد إسقاط اتفاق « 17/ أيار » لم تتغير الأمور جوهريا إذ ظل العدو محتلاً لشريط حدودي أطلق عليه اسم « الحزام الأمني » واستخدم عملاء له من لبنان لتشكيل جيش باسم « جيش لبنان الجنوبي » على افتراض أن جنوب لبنان أصبح جمهورية مستقلة تحمل اسم « لبنان الحر » ، لم يعترف بها أحد طبعاً . فحقق بذلك العدو كل أهدافه : اقتلاع المنظمة من لبنان وتدمير بنيتها التحتية ، والسيطرة على منابع الأردن ووضع خنجر في خاصرة سورية ، وتحولت هذه الواقعة التاريخية ، بسبب عدم معرفة العرب كيف يتعاملون معها ، إلى خطوة متقدمة نحو إقناع العرب بعدم جدوى التفكير بهزيمة إسرائيل ، وبضرورة الإسراع في التصالح معها قبل أن تبتلعهم جميعاً .

10 ـ حرب الخليج الثانية (بين العراق ودول العالم) إثر دخول القوات العراقية إلى الكويت في 1990/8/2م= 1419م. ر.

إن ما اصطلح عليه « بأزمة الخليج » لم تبدأ بدخول القوات العراقية إلى الكويت بل تعود جذورها إلى يوم هب العراق لنجدة سوريا في حرب لـ « 73 » ؛ إذ صمم كيسنجر ، وزير خارجية أمريكا حينذاك ، ألا تتكرر مثل هذه الظاهرة ثانية . فاتفقت أمريكا مع شاه إيران على إثارة الأكراد ضد العراق ،

وساهمت إسرائيل في دعم الأكراد بالسلاح والمال ، وافتتحت لهم قواعد تدريب قرب مدينة الرملة في فلسطين المحتلة (إسرائيل) وقام رفائيل إيتان بزيارة إلى منطقة الأكراد سراً(*) . وهناك أسباب أخرى أدت إلى زج العراق في حروب متواصلة سواء في الداخل ، أو في الخارج منها :

أ ـ رفض العراق قانون الاحتواء في علاقته مع الولايات المتحدة الأمريكية .

ب ـ رفض العراق أن يكون هو الحمل ، وأن تكون الولايات المتحدة هي الذئب في ما يجري بينهما من حوار ، وعلاقات(**) .

ج ـ الحدود في الخليج كله ، وخصوصا بين العراق والكويت لم يرسمها العرب ، ولا خُططت باتفاق عراقي ـ كويتي ؛ بل رسمها جندي بريطاني اسمه بيرس كوكس بعصاه على الرمل في خيمة بمنطقة العقير(***) .

د ـ الرغبة الأمريكية في السيطرة على نفط الخليج كله مباشرة .

(*) باتريك سيل : المصدر نفسه ، ص392,391 ، عن اعتراف مناحيم بيغين لإذاعة إسرائيل المحلية في 1980/8/29 الذي نشرته محطة لندن في 1980/10/10 ضمن برنامج « ملخص الإذاعات العالمية » في محطة الإذاعة البريطانية ؛ وعن مجلة صوت القرية Village Voice في 1976/2/23 التي نشرت تقريراً باسم « تقرير لجنة بايك » ؛ ثم نشرت هذا التقرير أيضاً مؤسسة برتراند رسل عام 1977م= 1406م.ر (مقرها نوتنغهام) كما نُشر في كتاب « شعب بلا وطن : الأكراد وكردستان » تأليف جيرالد شاليان ، لندن ، 1980م= 1409م.ر. ص 183-187 ، جاء فيه أن كيسنجر قد أوضح أن تسليح الأكراد وتمويلهم كان وسيلة لردع العراق عن أية مغامرات دولية (وكان يقصد « مغامرة » دعم سوريا أو غيرها من الدول العربية في حربها ضد إسرائيل) ، أو حتى التفكير بالتصدي للمصالح الغربية في المنطقة (كما حصل فيما بعد في حرب الخليج الثانية) . ولم يكن الهدف أن يربح الأكراد ، وأن يُمكنوا من إقامة دولة كردية لهم ، بل كان الهدف استنزاف العراق .

(**) حرب تلد أخرى : التاريخ السري لحرب الخليج « لسعد البزاز ، نشر الأهلية للنشر والتوزيع » ، عمّان ، الأردن 1413هـ= 1992م ، ص 17,16 .

(***) المصدر السابق نفسه ، ص 24,23 .

ولهذا كان تمرد الأكراد في الشمال ، ثم حرب الخليج الأولى ، وتمرد الشيعة في الجنوب ، وحرب الخليج الثانية التي سُبقت بحملة إعلامية مضادة للعراق وبإثارة ضجة عالمية حول برنامج العراق النووي ، وقصف إسرائيل لمفاعل بغداد ؛ ومن ثم توجيه الاتهامات للنظام العراقي باختراق حقوق الإنسان وبإنتاج الأسلحة الكيماوية والبيولوجية ، وفرض الحصار الاقتصادي عليه إلى أن زُجَّ في مستنقع الكويت .

كان بالإمكان تلافي هذه الأزمة وتجنب الصدام المسلح بين الكويت والعراق ؛ فمن جهة العراق ، كان يمكن للقيادة العراقية أن تكون أطول بالاً وأوسع صدراً ، وأكثر صبراً تجاه الاستفزازات الموجهة إليها وتجاه المغريات المقدمة إليها ، وتكتفي بالمطالبة بما تراه من حقها ومن ضروريات الحياة لها ، وبتحريض جامعة الدول العربية ، والأنظمة العربية ذات العلاقة الحسنة مع العراق على متابعة الحوار (حتى ولو كان حوار الطرشان ، كما يقول المثل) بينه وبين الكويت وبقية دول الخليج ، على الأقل إلى أن تسترد قواته أنفاسها من حرب الخليج الأولى وإلى أن يستكمل مشروعه النووي ، ويطور سلاحه الصاروخي البعيد المدى ؛ ويعيد بناء اقتصاده ولو بخطى بطيئة متحديا الحظر الأمريكي والبريطاني . ولو أخذنا ما قدمه العراق من بيان بالخسائر التي يتكبدها بسبب سياسة الكويت النفطية بالحسبان ، فإنه كان ينبغي للقيادة العراقية أن تدرك أن هناك شيئاً ما وراء الأكمة خصوصاً عندما رأى تعنت الطرف الآخر وطريقته الاستفزازية (كما يقول العراق) ؛ وبالتالي فإنها بالصبر وبحشد أكبر عدد ممكن من الدول العربية للتوسط ، ربما يمكن التوصل إلى حل ما ولو جزئياً لمرحلة ما ؛ وكان على القيادة العراقية أن تعمل في الوقت ذاته على كسب أنصار لها من المعارضة الكويتية ، واجتذاب الشعب الكويتي لموقف العراق وكسب تعاطفه مع العراق ، إلى أن يصبح بالإمكان القيام بحركة داخلية تطلب هي العون من العراق ، أو على الأقل إلى أن يحين ظرف دولي

مناسب للقيام بضغط معين على الكويت سواء كان عسكريا أم سياسيا أم اقتصاديا تستطيع العراق بفضله أن تحصل على مطالبها أو بعض مطالبها ؛ هذا إذا لم يتم التوصل إلى حل عن طريق الحوار ولو كان مريراً كما ذكرت . وبهذا تكون القيادة العراقية قد فوتت الفرصة على أمريكا وبريطانيا ، وأحبطت خطتهما في حشد كل هذه القوى ضد العراق وضربه هذه الضربة الموجعة وتسخير مجلس الأمن لتغطية هذا العدوان الصارخ والفاضح على الأمة العربية كلها وليس على العراق فحسب .

ويبدو أن هناك اعتبارات معينة ضللت القيادة العراقية وجعلتها تخطىء في حساباتها وتقديراتها والاحتمالات التي وضعتها . من هذه الاعتبارات :

1 ـ إن الحرب الاقتصادية التي بدأتها الولايات المتحدة الأمريكية ضد العراق ، ربما تؤدي بعد حين إلى عجز العراق عن مواجهة الضغوط التي سوف تمارس عليه من دول الخليج وغيرها من دول الغرب ، وربما يصبح العراق عاجزاً عن دفع عجلة الاقتصاد إلى الأمام ، خصوصاً أن العراق أنفق في حربه ضد إيران مالا يقل عن (١٢٠) مئة وعشرين مليار دولار .

2 ـ بما أن المعركة واقعة لا محالة ، سواء بشكلها الاقتصادي أو بشكلها العسكري ، فإن نقل المعركة إلى خارج العراق خير من أن تدور رحاها على أرضه .

3 ـ تصورت القيادة العراقية أن وضع الأمة العربية في مواجهة ساخنة ضد أمريكا وإسرائيل سوف يحرك الشعب العربي ويدفع حكامه إلى الوقوف إلى جانب معركة التصدي وإثبات الوجود من خلال هذه الأزمة ، وأن الأمر لا يتطلب أكثر من الصمود في وجه أمريكا والقوى المتحالفة معها سوى بضعة أسابيع حتى تهب المنطقة العربية والإسلامية بكاملها لصد العدوان العالمي على الوطن العربي . ولكن الأحداث أثبتت عدم صحة هذا التقدير ، حتى الهجوم الصاروخي العراقي على إسرائيل لم يحرك سوى مشاعر القاعدة الشعبية التي لم

تستطع أكثر من التعبير عن أملها في أن تتطور الأمور إلى معركة مصير ضد إسرائيل ، أما على الصعيد الرسمي والإعلامي قوبلت بالاستهزاء والحط من شأنها . وكان مصير هذه التقديرات كمصير تقديرات منظمة فتح عندما جعلت من بين أهداف عملياتها الأولى وضع الدول العربية في مواجهة ساخنة مع إسرائيل على أمل أن تتطور الأمور إلى معركة مصير . ولكن شيئا من هذا لم يحدث في الحالتين .

4 ـ رغبة القيادة العراقية في ردع القيادة الكويتية عن التمادي في الاستهتار بمطالب العراق . ولكن ما إن وطئت قدم أول جندي عراقي أرض الكويت حتى أخذت أمريكا بتصعيد الموقف وسد الطريق على إمكانية الانسحاب بل دفعت العراق إلى اتخاذ مزيد من الخطوات باتجاه الضم والتشدد وذلك بهدف إقناع حلفائها الغربيين ، والاتحاد السوفياتي والصين إلى السير معها في مخططها ضد العراق .

لم يكن العراق ، أساساً ، راغباً في أي صدام عسكري مع أية دولة عربية خليجية أو غير خليجية . ومن الأدلة التي تثبت هذا الأمر اجتماع طارق عزيز ، وزير خارجية العراق ، حينذاك ، مع صباح الأحمد ، وزير خارجية الكويت ، على انفراد في مؤتمر القمة العربية الذي كان منعقداً في الجزائر في حزيران (يونيو) 1988م= 1417م.ر. بعد استرداد العراق للفاو ، وطرح معه موضوع الحدود ، فكان جواب الوزير الكويتي : « لسنا في عجلة من الأمر » . ومن الأدلة أيضاً استقبال الشعب العراقي لأمير دولة الكويت في بغداد لدى زيارته العاصمة العراقية في 1989/9/23م= 1418م.ر. لتهنئة العراق بفوزه على إيران في الحرب استقبالاً شعبياً حافلاً مشفوعاً بالأناشيد مثل « يا جابر والله كَفّيت بغداد أخت الكويت » رغم أن أمير الكويت لم يزر بغداد منذ أكثر من عشر سنوات ، وأنه كان آخر زعيم عربي يهنىء العراق بانتصاره . وعندما طرحت عليه مسألة الحدود في تلك الزيارة رفض بحثها . كذلك رفضت الكويت اقتراحاً بمنح

العراق تسهيلات ملاحية كالتي كانت تتمتع بها العراق أثناء حربه ضد إيران ، والالتزام بمعاهدة الدفاع العربي المشترك وكان ذلك في 1990/2/18م= 1419م. ر. وفي مؤتمر القمة العربي الذي عقد في بغداد في أعقاب حرب الخليج الأولى ، في 1990/5/30م= 1419م. ر. ناشدت القيادة العراقية القادة العرب بالتدخل لوقف الحملة الاقتصادية التي تشنها الكويت ضد العراق ، ولكنها لم تلق أية استجابة(*) .

أما على صعيد الكويت ودول الخليج فقد كان بإمكانهم تلافي هذه المأساة كلها بأقل التكاليف ، ولو أسقطت ديونها على العراق ، بل وحتى لو منحته فوقها بضعة ملايين أخرى ليستعيد عافيته بعد حربه مع إيران التي خاضها أصلاً بتشجيع من دول الخليج والسعودية نفسها دفاعا عن مصالح هذه الدول من الخطرالإيراني عليها(**) . ولو أجّرَت الكويت جزيرتي بوبيان وورية

(*) حرب تلد أخرى : « التاريخ السري لحرب الخليج » لسعد البزّاز ، ص 24 ، 28-30 ، 35-40 ، 43 ، 99 ، 103 .

(**) Anton Chaitkin & Webster G. Trapley: "The New World Order" ch.25, from: The New Federalist, August 31, 1992, The American Almanac, George Bush. The unauthorized Biography.

جاء في هذا المقالة ما يلي :

١ ـ بذل الإنكليز والأمريكان قصارى جهودهما لتسعير الخلاف بين العراق والكويت ، وإثارة كل طرف ضد الآخر .

٢ ـ دافع العراق عن الكويت ودول الخليج بأكملها بخوضه حرباً ضد إيران وتحمل بذلك ديناً قدره خمس وستون بليون دولار .

٣ ـ كانت العراق دولة علمانية حديثة ذات معدل اقتصادي عال ومستوى معيشة رفيع وسوية ثقافية فريدة عربياً .

٤ ـ لهذا قرر الأنكلو أمريكانيون فرض حرب اقتصادية ضد العراق وفرض حظر على التكنولوجيا المصدرة إليه ، وعندما اكتشفوا أن ذلك لن يجدي كثيراً لأن العراق قد تجاوز مرحلة التأثر بالحصارات والحظر التكنولوجي قرروا خوض حرب ضده لتدمير=

للعراق ليكون له منفذ على البحر ، أو حتى لو منحتهما للعراق ، فإنما تقدم شيئاً لأخ وشقيق وجار، وليس لغريب أو أجنبي، ولكان ذلك خير من أن تستولي على أي جزء من أرض الكويت أو مواردها دولة أو دول أجنبية تستنزف الأرض والشعب لصالح أعداء الأمة ، وتكون كذلك قد اكتسبت الشعب العراقي ، بل كل الشعب العربي الذي كان سيقف إلى جانب الكويت ويرفع من شأنها لما قامت به من تضحية تجاه أمتها. وكل هذا لا تبلغ كلفته المادية جزءاً يسيراً مما تكبدته الكويت وحدها من خسائر بسبب هذه الأزمة ، إضافة إلى ما تكبدته دول الخليج الأخرى بما فيها السعودية . يضاف إلى ذلك الخسارة المعنوية التي تكبدتها الأمة العربية كلها وخسارة الاستقلال إذ تحولت دول الخليج إلى محميات أمريكية ـ بريطانية ـ فرنسية ، أي إلى وضع أسوأ مما كانت عليه يوم كانت محميات بريطانية فقط .

وباختصار ، لقد أخطأ قادة العراق وقادة الخليج معاً ، وقادة الأمة العربية بأسرها في تقدير الظروف الدولية ، وفي إدراك أبعاد المؤامرة الغربية ـ الصهيونية التي حيكت ضد هذه الأمة ، فوقع العرب كلهم فريسة وضحية لهذه اللعبة الدولية .

هذا قبل وقوع الأزمة . أما عندما وقعت الأزمة فكان أيضاً بالإمكان تلافي مضاعفاتها ، وتحويلها إلى مصيدة لأمريكا وإسرائيل بدلاً من أن تكون مصيدة للعرب . وقد بذلت أطراف عربية ودولية عديدة للخروج من الأزمة بسلام وتفويت الفرصة على الولايات المتحدة والكيان الصهيوني في تدمير العراق والاستيلاء على موارد الأمة بأسرها . فمثلاً قامت منظمة التحرير الفلسطينية بجهود حثيثة لاحتواء الأزمة وحلها سلميا وعلى صعيد عربي ، ولكن موقفها

= كل إمكاناته وإعادته إلى حظيرة العالم الثالث الضعيف الذي يعتمد على الغرب في حياته .

هذا وجهودها فسّر ، عمداً ، تفسيراً خاطئاً بهدف تنفيذ مخطط طرد الفلسطينين من الكويت بناء على رغبة بريطانيا التي حذرت رئيسة وزرائها تاتشر حكومة الكويت قائلة : « نفط وفلسطينيون لا ينبغي أن يلتقيا » . وبذلت كذلك المملكة الأردنية جهوداً كبيرة في هذا المجال ، وحصل الملك حسين على موافقة القيادة العراقية على الانسحاب من الكويت يوم الجمعة في 3/آب (أغسطس)/ 1990م= 1419م. ر. ولكنه قبل أن يعود لإبلاغ مؤتمر الجامعة العربية بقرار القيادة العراقية كانت الجامعة العربية قد اتخذت قراراً ، بدفع من الولايات المتحدة الأمريكية ، يدين العراق ، ويرفض ما أعلنه العراق في وسائل إعلامه عن التوصل مع الملك حسين على اتفاق بالانسحاب الذي سيبدأ يوم الأحد في 1990/8/5م= 1419م. ر. (والذي بدأت طلائعه فعلاً في ذلك اليوم) ، وعَدُّوا هذا الإعلان مجرد خدعة وكذب . علما بأن الملك حسين حاول الاتصال بالرئيس مبارك هاتفيا قبل مغادرة بغداد إلى القاهرة لإبلاغه بقرار القيادة العراقية ورجائه التريث في اتخاذ أي قرار في الجامعة العربية من شأنه أن يعقد الأمور ، ولكن الرئيس مبارك لم يرد بحجة أنه لم يكن قريباً من موقع الهاتف . كذلك باءت جهود اليمن والجزائر وغيرهما ممن حاول حل الأزمة عربيا وبالطرق السلمية ، لأن أمريكا وبريطانيا أرادتا عدم حل الأزمة عربيا لأن ذلك يحبط مخططاتهما . والأدهى من ذلك وُجّهت الاتهامات لمن حاول من العرب احتواء الأزمة عربيا وإخراج العراق من الكويت دون تدخل أجنبي سياسي أو عسكري بأنهم ضد الكويت وضدالخليج وبأنهم مع العراق ، ولهذا لابد من عقوبتهم(*) .

(*) انظر « الكتاب الأبيض الأردني » 1991م ؛ وكتاب « حرب الخليج : أوهام القوة . . . والنصر » لمحمد حسنين هيكل ، 1992م ، وكتاب « طارق عزيز . . . جيمس بيكر : نصوص الحرب » ، المحادثات الكاملة التي جرت في جنيف قبل بدء العدوان على العراق بأيام ، نشر « المؤسسة العربية للدراسات والنشر » ، بيروت ، =

فالمسألة إذن لم تكن أزمة يمكن حلها أو لا يمكن حلها . ليس في العالم أزمة لا يمكن حلها . ولكن القضية هي تحطيم الإرادة العربية ، وأية قدرة عربية يمكن أن تظهر هنا أو هناك . لذلك سارعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى دفع مجلس الأمن لاتخاذ قرارات عنيفة وسريعة ومتتالية ضد العراق لم يشهد تاريخ مجلس الأمن كله مثلها ، بدءاً من القرار (660) الذي اتخذ في 1990/8/2م= 1419م. ر. أي في اليوم نفسه الذي دخلت فيه القوات العراقية الكويت . وفي اليوم التالي الجمعة 1990/8/3م= 1419م. ر. صدر بيان مشترك أمريكي ـ سوفياتي ضد العراق يتضمن فرض عقوبات اقتصادية وحظر بيع أسلحة ، وهو بيان لم يصدر مثله بين القطبين منذ مطلع القرن العشرين . وفي اليوم نفسه أصدرت الجامعة العربية بياناً تدين فيه العراق ، وهوالبيان الذي كان من المفروض تأجيل صدوره حتى يعود الملك حسين من مهمته في بغداد التي أوفده فيها مجلس الجامعة العربية نفسه . وفي 1990/8/10م= 1419م. ر. عقد مؤتمر قمة عربية حضره عشرون عضواً وتغيبت تونس وأصدر قراراً ضد العراق بأكثرية 12 صوتا فقط هي : دولة الإمارات العربية ، قطر ، البحرين ، سلطنة عمان ، الكويت ، المملكة العربية السعودية ، الجمهورية العربية السورية ، الجمهورية اللبنانية ، جيبوتي ، جمهورية مصر العربية ، المملكة المغربية ، الصومال . وصوت ضده كل من الجماهيرية الليبية ، جمهورية العراق ، دولة فلسطين ، وامتنع عن التصويت كل من الجمهورية الجزائرية ، والجمهورية اليمنية ؛ وتحفظ عليه كل من المملكة الأردنية الهاشمية وجمهورية السودان ، والجمهورية الموريتانية .

= ط1 ، 1992م ؛ وكتاب « حرب العالمين الأولى : حرب ضد بلد عربي مسلم من العالم الثالث » ، نشر شركة الأرض للنشر المحدودة ، ط1 ، 1991م ؛ وانظر كذلك مقالة تشارلز كراوتهامر Charles Krauthammer في مجلة السياسة الخارجية Foreign Policy ، نيسان (إبريل) 1991م .

كما رفض العالم كله بما فيه الدول العربية والإسلامية التي وقفت إلى جانب التحالف العالمي ، مبادرة العراق التي أعلنها في 1990/8/12م= 1419م . ر . والتي تدعو إلى :

١ ـ تطبيق قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بكل أنواع الاحتلالات بما في ذلك احتلال إسرائيل لجنوب لبنان والجولان السوري وفلسطين ، واحتلال العراق لبعض أراضي إيران والكويت ، وانسحاب القوات السورية من لبنان .

٢ ـ انسحاب القوات الأمريكية والحليفة لها من المملكة العربية السعودية والخليج وإحلال قوات عربية محلها ، لا تشتمل على قوات مصرية .

٣ ـ وقف كل الإجراءات التي اتخذها مجلس الأمن ضدالعراق .

وتوالت القرارات الصادرة عن مجلس الأمن ضد العراق ، رغم كل شيء ، حتى بلغت حوالي (12) اثني عشر قراراً ، آخرها القرار 678/ 1990 في 1990/11/29م= 1419م . ر . الذي حدد يوم 1991/1/15م= 1420م . ر . آخر موعد لانسحاب العراق من الكويت وإلا تعرض لهجوم الحلفاء .

حتى فرنسا ، الحليفة لأمريكا في هذه الحرب ، تقدمت بمبادرة لحل الأزمة سياسياً وسلمياً في 1991/1/15م= 1420م . ر . ولكن أمريكا أحبطتها ، كما أحبطت مبادرة أخرى فرنسية سوفياتية سابقة . وبدأ الهجوم على العراق الساعة الثالثة صباح 1991/1/17م= 1420م . ر . الساعة 2,30 بتوقيت بغداد ليلة 17/16 كانون الثاني (يناير)/ 1991م= 1420م . ر .

وقد كثرت في تلك المرحلة الحملات الإعلامية التوريطية والتمويهية ، مثل تضخيم قوة العراق لدرجة أن خُيِّل لكثير من الناس أن العراق وحده قادر على هزيمة كل هذا التحالف الذي ضم حوالي (33) ثلاثا وثلاثين دولة غربية وإسلامية (الباكستان) وعربية (مصر وسورية والمغرب ، إضافة إلى السعودية ودول الخليج الأخرى) . ومن الحملات التمويهية إشاعة أن التحالف الدولي

هذا لن يستطيع شن حرب ضد العراق للأسباب التالية :

1 ـ أن هدف أمريكا ، أساساً ، هو وضع يدها مباشرة على منابع النفط ، وقد تحقق لها ذلك . أما اشتراك أوربا فهو كيلا تنفرد أمريكا بكل البترول .

2 ـ أن الحشود العسكرية لم تكلف دولها شيئاً ؛ بل ربحت من ذلك لأن وجودها في المنطقة مأجور وعلى حساب دول الخليج والسعودية .

3 ـ وجدت دول حلف الأطلسي مكاناً آخر لنشر قواتها غير أوربا بعد انتهاء الحرب الباردة بدلاً من إعادتها إلى بلدانها ، الأمر الذي ربما يخلق لها أزمات اقتصادية ومالية وسكنية ، وارتفاع في نسبة البطالة .

4 ـ أسهمت الحملة العسكرية الأمريكية في حل أزمة مالية كانت تعانيها الولايات المتحدة ، وفي سد العجز في ميزانيتها ، عن طريق ما تقاضته نقداً لقاء تدخلها ، ولقاء ثمن الأسلحة التي باعتها لدول الخليج أو تركتها في تلك المنطقة ، وبفضل ارتفاع أسعار النفط وتدفقه بالكمية التي تريدها أمريكا .

5 ـ اطمئنان أمريكا إلى إحكام هيمنتها على المنطقة ، وقدرتها على إخماد أي تحرك عربي جاد نحو الوحدة أو نحو بناء القدرة الذاتية أو في اتجاه يمكن أن يشكل تهديداً للكيان الصهيوني .

6 ـ أن نشوب حرب في منطقة الخليج ربما يؤدي إلى خسائر بشرية كبيرة في الجنود الأمريكان لا يتحملها الشعب الأمريكي ، الأمر الذي ربما يثير الرأي العام الأمريكي ضد الحرب ؛ كما ربما يؤدي إلى تدمير منابع النفط ، وتلويث البيئة ، وهذا كله ليس في مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية والغرب ، ولا في مصلحة دول الخليج نفسها .

7 ـ أن احتمال استمرار الحرب مدة أطول مما هو مقرر لها في حال نشوبها ربما يؤدي إلى اشتراك إسرائيل بشكل مكشوف (فهي مشتركة فعلاً بأشكال

عديدة) ، الأمر الذي يحول المسألة إلى حرب عربية ـ إسرائيلية ، وهذا ليس في صالح التحالف ولا يخدم أهدافه .

كل هذه الأسباب وغيرها كانت تطرحها أجهزة الإعلام الغربية والصهيونية لإيهام الشعب العربي بأن حرباً لن تقع ، وأن العراق قد فاز بما فعل ، ولوضع الناس في متاهات حوارات ملهية ، وغير مجدية . إضافة إلى حملات التشكيك بأن القيادة العراقية متواطئة مع أمريكا من أجل إيجاد مسوّغ مشروع دوليا للولايات المتحدة كي تتدخل مباشرة في المنطقة ؛ وبالتالي لا ضرورة لشن الحرب ما دامت أهدافها قد تحققت .

ونسي الناس ، العامة منهم والمثقّفون والسياسيون ، في حمأة هذه الحملات الإعلامية التوريطية والتمويهية والتشكيكية ، أن السبب الحقيقي لكل هذا الحشد الذي لم يحدث مثله في التاريخ هو الدفاع عن الكيان الصهيوني الذي زُرع في المنطقة ، أصلاً ، لتحقيق هدف أكبر هو تحطيم الشخصية العربية الحضارية ، والحيلولة دون تمكين العرب خصوصاً ، والمسلمين عموماً من التفاعل والتوحد كيلا يصبحوا قوة عظمى في العالم تسهم في تحرير الشعوب من الابتزاز الأمريكي ، والدكتاتورية الشيوعية ، ودسائس الصهيونية العالمية ، وللحيلولة دون تمكن العرب والمسلمين من اختراق حاجز التكنولوجيا الحديثة ، أو حتى الحصول عليها جاهزة من عند مبتكريها . ولنا في ضرب المفاعل النووي العراقي ، وضرب مصنع الأدوية الليبي بحجة أنه يمكن تحويله إلى صناعة أسلحة كيماوية وبيولوجية ، وفرض الحصار على سوريا وتصنيفها مع دول الإرهاب لمجرد رفعها شعار تحقيق التوازن الاستراتيجي مع العدو الصهيوني ، لنا في كل هذه الأمثلة خير دليل على ما ذهبنا إليه . ثم أليس إصرار بيكر (وزير خارجية أمريكا) على توجيه سؤال إلى طارق عزيز (وزير خارجية العراق) حول ما إذا كان العراق ينوي ضرب إسرائيل بالصواريخ إذا قُصفَ العراق ، يعد دليلاً على أن من أولويات التدخل

احتمال ضرب إسرائيل وزجها في معركة ربما تكون خاسرة . كما أن هناك عوامل أخرى تجعل أمريكا تستعجل الحسم العسكري ، كما حدث فعلاً ، نذكر منها :

١ ـ التحولات الجديدة التي أخذت تظهر في الاتحاد السوفياتي والتي تخشى أمريكا أن تسفر عن تغيّر في الموقف السوفياتي وعودته إلى سياسة الحرب الباردة ، الأمر الذي يمكن أن يفشل مخططاتها .

٢ ـ خشية أمريكا أن يصيب التحالف الذي فرضته بوسائلها المختلفة الوهن والتفكك .

٣ ـ خشية اقتناع أوربا بضرورة تطبيق قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن على جميع الأطراف المتنازعة في المنطقة بما في ذلك إسرائيل .

٤ ـ خشية الرئيس الأمريكي جورج بوش من تعاظم التيار المعارض للحرب داخل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وغيرها من دول التحالف إذا تأخر شن الحرب على العراق .

٥ ـ عدم الحسم العسكري يتيح للوساطات العربية فرصة النجاح ، الأمر الذي يحبط كل أهداف الولايات المتحدة الأمريكية من حملتها هذه .

وباختصار ، أستطيع القول إن القيادة العربية والإسلامية فشلت في تقدير الأمور ، وفشلت في حل الأزمة قبل وقوعها ، وفشلت في حلها أو تحويلها لصالح العرب جميعاً بمن فيهم العراقيون والخليجيون وغيرهم . ولايهم سواء كان الحق إلى جانب هذا الفريق أو ذاك من العرب ، كما لا يهم حتى لو كان فريق (كما ادعى البعض) متواطئاً مع الغرب ضد هذه الأمة ، فإن العرب بإمكانهم تحويل فرصة وضعهم في مواجهة ساخنة مع أمريكا وحلفائها الغربيين (سواء كان ذلك بإرادتهم أم نتيجة تورط ، أو مخطط معاد ، أو بالمصادفة ، أو مهما كان السبب) لتحقيق انتصار ويخرجون منه هم القوة الأعظم في العالم ،

وتنتهي خرافة إسرائيل ، وينقلب السحر على الساحر وذلك عن طريق إدارة الحدث والتعامل معه بوعي وبنظرة استراتيجية ومن منطلق قومي ، وإسلامي ، وفي جو من الديمقراطية والحرية يتيح لكل الآراء أن تتفاعل حتى تصل إلى قرار حكيم لصالح الأمة ، ليس انطلاقا من المواقف الشخصية ، وليس في جو من الدكتاتورية والقهر . إن التعامل مع الأحداث انطلاقاً من موقف شخصي يتخذه القادة تجاه بعضهم بعضاً كأن نقف من اتفاق أوسلو ، على سبيل المثال ، انطلاقاً من كوننا نحب عرفات أو نكرهه ، وإهمال المبادىء والشعارات التي يطرحها القادة السياسيون والأحزاب ، سواء كانت قومية أو وطنية ، أو أممية يسارية ، أو إسلامية ، أدى كل ذلك إلى فشل الأمة وإلى جعل المبادىء والشعارات حتى الدين ألعوبة في أيدي القيادات ، ومهزلة في نظر الشعب ، وسخرية في نظر الأعداء . وأضرب على سبيل المثال . المؤتمرين الإسلاميين اللذين عقدا في آن واحد : أحدهما في مكة والآخر في بغداد ، في مطلع كانون أول (ديسمبر) 1990م= 1419م . ر . وأصدر كل منهما فتوى تناقض الأخرى إذ أفتى مؤتمر مكة بشرعية استدعاء القوى الأجنبية غير المسلمة والاستعانة بها لضرب العراق وخوض حرب ضده ، في حين حَرَّم مؤتمر بغداد ذلك تحريماً قاطعاً . كما كان مفتي الأزهر قد أفتى في 1990/8/21م= 1419م . ر[*] بشرعية استدعاء القوات الأمريكية وحلفائها لضرب العراق ، وذلك انسجاماً مع موقف السلطة وليس انسجاماً مع ما جاء في القرآن الكريم .

والسؤال الآن هو : كيف كان يمكن للعرب أن يستثمروا هذا الحدث لصالحهم ؟ الجواب يكمن في أن ينطلقوا من مبادئ أحزابهم على اختلافها ، ومن منطلق انتمائهم القومي ، والإسلامي ، عندئذ سوف يتمكنون من وضع معادلة صحيحة تحول مسار الأحداث إلى صالحهم ، فمثلاً . كان يمكنهم أن

(*) انظر جريدة « البعث » السورية ، العدد 8332 تاريخ 1990/8/22م .

يضعوا المعادلة التالية التي تتفق مع المبادئ والشعارات القومية والإسلامية وحتى السياسية :

الطرف الأول من المعادلة : « نحن العرب والمسلمين كافة ضد احتلال العراق للكويت ، وسوف نقاتل العراق إذا رفض الانسحاب من الكويت دون قيدٍ أو شرط حتى نخرجه منها » .

والطرف الثاني من المعادلة : « نحن العرب والمسلمين لا نسمح لأي أجنبي أن يتدخل في أزمة الخليج ، لأنها شأن عربي داخلي وسوف نقاتل أي أجنبي تطأ قدمه أرض بلادنا تدخلاً منه في الأزمة ، حتى يخرج من أرضنا ، وبعدها نستدير إلى العراق لنخرجه من الكويت (أي أن أفضلية القتال ضد الأجنبي أولاً في حال تدخله) » .

هذه المعادلة تعبر عن الحس الوطني والانتماء القومي والالتزام الديني الإسلامي ، إذ إن القرآن الكريم يحذر من موالاة الأجانب يقول تعالى في كتابه العزيز : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه وإلىٰ الله المصير ﴾ . [آل عمران : / 28/][*] .

إضافة إلى أن مبادىء الجامعة العربية تدعو إلى حل الخلافات سلمياً ومع ذلك لم تفعل شيئاً في هذا الاتجاه بل على العكس اتخذت خطوات أدت إلى تصعيد الموقف وتعقيده ، كذلك الأحزاب القومية كلها تنادي بالوحدة

(*) انظر كتاب « مفهوم الحرب والسلام في الإسلام » للمؤلف ، منشورات مؤسسة مي للطباعة والتوزيع ، وانظر كذلك « مجلة الجهاد » ، العدد 98 ، السنة العاشرة ، رمضان / 1400/ من وفاة الرسول ، شهر الطير (إبريل) ، 1991 م = 1420 م . ر . (مقالة لنصر عطواني بعنوان « الموالاة تبعية لا يقرها الإسلام ، ص48 ـ 59 » .

وبالتصدي للاستعمار والإمبريالية والصهيونية والرجعية ، ولكنها سلكت مسلكاً متناقضاً مع هذه الشعارات .

وكان يكفي أن تلتزم سوريا ومصر (التي كانت عضواً في اتحاد مع العراق) بهذه المعادلة حتى تنقلب الموازين كلها لصالح الأمة العربية ، فكيف لو التزم العرب كلهم بهذه المعادلة ؟! عندئذ لن تستطيع أمريكا أن تحشد كل هذه القوى ، ولن تفلح في إقامة مثل هذا التحالف . ففرنسا (رغم أنها دولة أوربية لا تختلف كثيراً عن بريطانيا وأمريكا وألمانيا مثلاً ، إلا أن لها مصالح أخرى تريد الحفاظ عليها ، وأهدافاً خاصة تسعى إلى تحقيقها) ظلت مستعدة للتخلي عن التحالف حتى تأكدت أن العرب لا يريدون أصلاً حل الأزمة عربياً(*) ، كذلك الصين ، كان يمكن ألا تدخل في التحالف لو رأت العرب مصممين على مواجهة التدخل وفتح فيتنام كبرى جديدة لأمريكا) إذ ليس من مصلحة الصين ولا من مصلحة الاتحاد السوفياتي أن يزجا نفسيهما في مثل هذه الأزمة ، بل أكثر من ذلك كان يمكن لهذه القوى أن تستخدم حق الفيتو ضد جميع قرارات مجلس الأمن وترفع عن أمريكا وبريطانيا أي غطاء دولي ، إلا أن الموقف العربي جعل هؤلاء يسارعون للاشتراك في التحالف الأمريكي كيلا تفوتهم حصص من الأرباح والمكاسب التي سوف يحصلون عليها من هزيمة العرب ، حتى لو افترضنا أن أمريكا قد تنجح في إقامة هذا التحالف المشبوه رغم التزام العرب والمسلمين كلهم بالمعادلة السياسية التي ذكرناها آنفا (وهو احتمال غير وارد) فإن حربا ضروسا سوف تدور رحاها بين العرب كلهم وهذا التحالف ، وربما يتوسع نطاقها فتشمل شعوبا وبلدانا إسلامية أخرى مثل إيران وغيرها ، وتتحول الأمور إلى حرب صليبية جديدة لا يعرف مداها إلا الله ، وهذا يعني أيضاً تورط أمريكا في حرب أوسع وأشمل من حرب فيتنام فتدخل فيها العقائد

(*) انظر كتاب « حرب الخليج : أوهام القوة والنصر » لمحمد حسنين هيكل .

الدينية والأيديولوجيات القومية والمصالح الاقتصادية وتتعلق بها مصائر تاريخية ، وكلها عوامل تؤدي في المدى الطويل إلى تفكك التحالف وهزيمة أمريكا ، ويصبح لديها بدل عقدة فيتنام عقدة أعمق وأخطر هي عقدة العرب والمسلمين ، وعندها تخرج الأمة العربية قوة عظمى ، فتنصف الكويت وتنصف العراق وتحرر فلسطين ، وغيرها مما اغتصب من أرض العرب ، وتسترد كل حقوقها المغتصبة ، وتغسل عن نفسها كل ما علق بها من إهانات ومذلة طيلة القرن العشرين ، فمهما كلفت مثل هذه الحرب الطويلة الأمد ، التي ربما تتحول إلى حرب شعبية إضافة إلى الحرب الرسمية من خسائر مادية أو بشرية ، لن تكون بقدر ما خسرته بسبب موقفها الخاطئ وسوء معالجتها للحدث وعدم القدرة على التعامل معه بموجب معادلة سياسية حتى إن العرب فوتوا فرصة توريط إسرائيل في الحرب بشكل مكشوف ، وتحويل مسار الأحداث من نزاع عربي - عربي ، أو عربي ، أمريكي ، إلى صراع عربي - صهيوني واسع وشامل تشترك فيه الجيوش والشعوب العربية والإسلامية ، لقد أحبطوا محاولات العراق ربط القضية بالعدوان الإسرائيلي وضرورة انسحابها من كل الأراضي العربية التي تحتلها مقابل انسحاب العراق من الكويت ، وأحبطوا حملاته الصاروخية على إسرائيل التي تعرضت لأول مرّة في حياتها لمثل هذه الهجمات ، حتى إنهم وجهوا دعوات ورجاءات إلى إسرائيل كيلا ترد على هذه الحملات حتى لا يُتخذ ردها ذريعة لإثارة حرب عربية - إسرائيلية .

صحيح أن العرب أنفسهم طلبوا من إسرائيل ذلك ، وقد بلغ بأحد زعمائهم الأمر إلى أن يصرح قائلاً في 11/ 1/ 1991 م = 1420 م . ر . « إن لإسرائيل الحق في مهاجمة العراق دفاعاً عن نفسها ، ولا أحد يلومها في ذلك » ، وفي الوقت نفسه يوجه إلى القيادة الإسرائيلية رجاء بعدم الرد كيلا يتحول مجرى الأحداث إلى اتجاه غير الاتجاه المرسوم له ، ومن الناحية العسكرية كان بإمكان العرب

وإيران حصر قوات التحالف في مصيدة لا إمداد لها بحيث يغدو مصيرها الفناء أو الاستسلام وذلك عن طريق إغلاق قناة السويس وباب المندب ، ولكن العرب صنعوا هزيمتهم بأيديهم ومهدوا السبيل أمام مرحلة الإعداد لما يسمى بالسلام العربي ـ الإسرائيلي .

11 ـ الانتفاضة الفلسطينية (ثورة الحجارة) ، 9/ 12/ 1987 م = 1416 م . ر .

بقي أن أشير إلى الانتفاضة الفلسطينية التي تفجرت قبل حرب الخليج الثانية ، كانت هذه الانتفاضة أكبر بكثير مما تصور البعض ، إنها ثورة شعبية فريدة من نوعها في التاريخ : أطفال يواجهون دبابات العدو ، وجيش الصهاينة الذي حاول الإعلام العالمي أن يصوره للعرب بالجيش الذي لا يقهر ، بالحجارة . هي ثورة فريدة في منهجها ومادتها وعدتها وأسلوبها وتشكيلها وقيادتها ، ولا أريد الخوض في تفاصيل طبيعة هذه الثورة وما حققته حتى الآن فذلك تحدثت عنه في كتاب آخر(*) . ولكني أريد التنبيه هنا إلى أن هناك محاولات لتضييع هذه الفرصة أيضاً ، وإجهاض كل نتائجها ، وإحباط أهدافها .

إن قيادة الانتفاضة قد تبنّت ، على ما يبدو ، المعادلة السياسية التي سأذكرها في الفقرة (ج) من هذا الفصل عندما أتحدث عن اتفاق اوسلو ، بيد أن إسرائيل تمارس ضغوطاً هائلة على السلطة الفلسطينية لتحويلها إلى سلطة قمع بيد إسرائيل ضد الانتفاضة ورجالاتها وأهدافها كما أن هناك مواقف عربية ما زالت تنجر وراء توجيهات أمريكا والغرب والصهيونية وتنساق في تيارات إعلامهم في النظر إلى كل من يقاتل اليهود بأنه إرهابي ، وقد بلغ الأمر بأحد

(*) انظر كتاب « من التشرد إلى الدولة » للمؤلف ، نشر اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1990م . ص105 ـ 127 .

علماء الدين ممن يحملون شهادة دكتوراه في الشريعة أن تعرض في حديث له في تلفزيون إحدى العواصم العربية للمجاهدين ضد الاحتلال اليهودي قائلاً : لا يجوز الجهاد إلا بأمر السلطان أما أن يهب كل على هواه ويحمل السلاح ضد العدو ، فهذا ليس جهادا » .

فإذا لم يكن هذا جهاداً فماذا يكون ؟! هل يكون كما تصفه أمريكا وإسرائيل إرهاباً ؟ ، ثم إذا لم يكن السلطان من المؤمنين ، فكيف يأمر بالجهاد ، وإذا كان العدو محتلاً للأرض (سواء انهارت الحكومة المؤمنة في تلك الأرض أو ظلت قائمة) فهل ينتظر الناس حتى يأمر السلطان بالجهاد ؟! وإذا تقاعس السلطان فهل يتقاعس معه المؤمنون ؟! لا أريد مناقشة الأمر ، فهو أوضح من أن يناقش ، ولا أتهم صاحب هذا القول ؛ بل أحذر من الوقوع في شراك الإعلام المعادي كيلا نجد أنفسنا نتخلى عن الجهاد الذي هو باب من أبواب الجنة ، كما أحذر قيادة الانتفاضة من التخلي عن المعادلة السياسية الآنفة الذكر حتى تتحقق كل الأهداف ، مهما كانت الضغوط والتضحيات وأحذر قيادة سلطة الحكم الذاتي من الاستسلام لمطالب العدو ، ومن التساهل بحقوق الشعب ، أو التهاون في الوصول إلى أهداف الثورة . إننا لا نريد للانتفاضة أن يكون مصيرها كمصير بقية الأحداث التي ذكرناها ، بل نريدها منارة مضيئة تنير لنا طريق العودة والنصر ، وشعلة تحرق الأعداء وتضيء صفحات التاريخ العربي والإسلامي .

ثالثا ـ الإعلان عن بدء مرحلة السلام ، وقبول العرب بفكرة السلام مع العدو الصهيوني :

بعد إنزال الهزيمة الساحقة بالأمة العربية من خلال هزيمة العراق وتجريدها من السلاح وخلق المتاعب الطائفية والعرقية في العراق والسودان والجزائر وتهديد هذه البلدان بالتقسيم ، أخذت الولايات المتحدة تفرض حصارات على دول عربية أخرى مثل ليبيا ؛ كما أن أية دولة يبدر منها أية نية في مقاومة الوجود الصهيوني المتمثل بإسرائيل في المنطقة أو مقاومة التسلط الأمبريالي

سوف تكون عرضة للمقاطعة والحصار ، وأية إجراءات أخرى تراها الولايات المتحدة الأمريكية ضرورية لردعها عن هذا الاتجاه . حتى إيران ، التي كان بإمكانها الإسهام في إنزال هزيمة بالولايات المتحدة التي تعدها إيران شيطاناً أكبر عن طريق التنسيق مع العراق والأمة العربية ، خصوصاً بعد مبادرة العراق بالتخلي عن مطالبه في شط العرب ، وسحب قواته نهائياً من جميع الأراضي الإيرانية ، وإبداء حسن النية تجاهها ، واعترافه بأن الطرفين كانا قد وُرِطا في حرب من قبل أعدائهما ؛ كان بإمكان إيران أن تستوحي القرآن الكريم أيضاً في موقفها ، ولكنها كالعرب لم تفعل ذلك ، وربما كان موقف العرب المنقسم أسهم في تردد إيران في موقفها ضد أمريكا ، الأمر الذي ساعد على إضعاف العراق من باب الانتقام منه بسبب الحرب التي شنها ضد إيران خلال العقد السابق ، بيد أني أعود فأقول ، إنه كان بإمكان إيران أن تدفع العرب ، تماماً مثل سوريا ومصر اللتان كان بإمكانهما دفع العرب وإيران معاً وكل العالم الإسلامي ، إلى اتخاذ موقف أفضل.وبما أن الجميع لم يستطع استشفاف مخاطر التهاون في مواجهة هذا الغزو الغربي للمنطقة تفرغت أمريكا لإيران وسواها ، وأخذت تلاحقها إعلامياً واقتصادياً وتقنياً وينطبق عليها وعلى الدول العربية المثل القائل : « أُكِلتُ يوم أُكل الثور الأسود » .

إسرائيل تمتلك مفاعلات نووية عسكرية ، وتمتلك مئتي رأس نووية حربية على الأقل (أي بمعدل عشرة رؤوس نووية لكل قطر عربي) ، ولديها أسلحة كيماوية ، وبيولوجية ، وأقمار اصطناعية للتجسس ولأغراض عسكرية أخرى ، وترفض التوقيع على معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية ؛ ومع ذلك تدافع عنها أمريكا ، ويغمض الغرب عنها عيونه ، ويصم الروس عنها آذانهم ، أما أن تحصل إيران أو أية دولة عربية أو إسلامية أخرى ، كالباكستان مثلاً ، على مفاعلات للأغراض السلمية ، أو على أسلحة متطورة ، أو على

سر من أسرار التكنولوجيا الحديثة فتلك جريمة لا يجوز السكوت عنها ، وتقوم الدنيا ولا تقعد .

كل ذلك بسبب الخوف الذي أقعد الأنظمة العربية والإسلامية وشعوبهم عن الجهاد والتصدي لأطماع الصهيونية ومن وراءها من القوى الاستعمارية ؛ وبسبب سوء تقديرهم للأمور ، وعجزهم عن استكشاف الأحداث ، ووضع المعادلات السياسية الملائمة لمواجهة كل حدث ، وكل مرحلة في الساحة المحلية والساحة الدولية .

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي في أعقاب حرب الخليج الثانية ، تبوأت الولايات المتحدة الأمريكية موقع القطب الأوحد في العالم ، وأحكمت سيطرتها وزعامتها على ما يُسَمّىٰ بالنظام العالمي الجديد ، هذا النظام الذي يقوم على أساس هيمنة أمريكا على العالم في المجالات الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية من أجل حماية مصالحها هي قبل كل شيء ، كما قال أرثر شليزنجر في كتابه « الألف يوم لكندي » « إنه من واجب الولايات المتحدة الأمريكية التدخل في الشؤون الداخلية لجميع الدول الحليفة والمعادية بشكل يتلاءم مع مصالحنا » ، وكما قال برونسكي في كتابه « الثورة التكنولوجية » « أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية القطب الثقافي للكرة الأرضية والمختبر الخاص بعلم الاجتماع ، والدولة العالمية الأولى في التاريخ ، ومن حقها أن تؤمن مصالحها في العالم . . . من واجب كل قارة وكل شعب أن يتلقى من الولايات المتحدة النصائح والحِكم . . . وعلى الولايات المتحدة الأمريكية أن تلتزم ، تحت اسم الشؤون الخارجية والتدخل في نطاق المسؤولية ، بإضفاء الشرعية على مسيرة الأحداث في العالم ضمن النطاق الملائم وبالشكل الضروري » .

إذن على العالم أن يقبل بتفسيرات الولايات المتحدة للشرعية الدولية ، ووسائل فرضها ، حتى لو كان ذلك عن طريق استخدام أحدث وسائل التدمير

والقتل ، أو عن طريق نهب ثروات الشعوب الأخرى وخيراتها لصالح الولايات المتحدة ولصالح من تراهم هي جديرين بتلك الخيرات .

تقوم السياسة الأمريكية (القطب الوحيد في العالم) في المنطقة العربية التي أخذوا يطلقون عليها اسم « الشرق الأوسط » في محاولة لطمس صفة العروبة عنها ومحوها نهائياً ، على أساس ضمان الأمن المطلق للكيان الصهيوني عن طريق الحفاظ على تفوقه العسكري والاقتصادي والتكنولوجي على كل الأمة العربية وجميع الدول الإسلامية ، وعن طريق السيطرة الأمريكية المباشرة على نفط المنطقة . ولا تخجل الولايات المتحدة من الإعلان عن ذلك ولا تعبأ بمصالح حلفائها العرب ولا بمشاعرهم ولا تقيم وزناً لآرائهم ، فقد نشرت مجلة النيويورك تايمز في عددها الصادر في 8/ 3/ 1992 م = 1421 م . ر . تقريراً صادراً عن البنتاغون يقول : « يجب أن تبقى الولايات المتحدة الأمريكية القوة العظمى الوحيدة في العالم ، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ؛ وعليها أن تملك الوسائل الكفيلة بمنع إعادة بناء أية قوة عظمىٰ في الشرق الأقصى ، كما يجب عليها أن تمنع حلفاءها من معارضة هيمنتها أو مقاومتها ، لكي تحتفظ بالسيادة حصراً وبشكل مطلق ، وينبغي لها أيضاً أن تكون قادرة على التدخل في أي مكان من العالم ، وفي الوقت نفسه يجب أن يكون هدف السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية إقناع خصومها المحتملين بألا يطمحوا إلى القيام بدور كبير ؛ ولهذا لا بد أن تكون القوة العسكرية التي تستند إليها هذه السياسة كفيلة بردع أية قوة أو دولة أو أمة أو مجموعة من الأمم والدول التي تتجرأ على تحدي سياسة الولايات المتحدة وتفوقها وهيمنتها ، أو التي تتسبب في تهديد النظام الاقتصادي الراهن(*) » .

(*) انظر كتاب « نظام دولي جديد ، أم هيمنة أمبريالية جديدة » لموسى الزعبي ، بيروت ، 1994 م .

أما مصطلح « نظام عالمي » فأرى أنه غير دقيق ، لأن كلمة « نظام » تعني كياناً واحداً ذا أجهزة متعددة تعمل بتناسق فيما بينها لتحقيق غايات معينة مشتركة لصالح ذلك النظام ، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي ، أو على الصعيد التكتيكي أو الاستراتيجي بما في ذلك علاقات النظام بسواه من الأنظمة الموجودة على الكرة الأرضية ، وسواء كان عمل الأجهزة أقرب إلى الاستقلالية الذاتية أو إلى الاندماجية .

فإذا ما نظرنا إلى القوى العالمية من منظار كوني ، ومن خلال ما أسلفنا من مفهوم للنظام ، فإننا لن نجد أي أثر لما يسمى بـ« نظام عالمي » لأن وجود مثل هذا النظام يعني أن كل دول العالم تندرج في إطار وحدة كنفدرالية تتمتع ضمنها الدول باستقلال ذاتي ، لا أكثر ، وهذا لم يحدث في التاريخ في يوم من الأيام ، ولن يحدث في أية لحظة من المستقبل ، لأن العالم لا يمكن أن يخضع لقوة واحدة حتى لو بدا كذلك لفترة من الزمن ، لذلك أرى أنَّ مصطلح « نظام عالمي » غير دقيق ، والأفضل استخدام مصطلح « قوة عالمية مسيطرة » . ربما تكون هذه القوة وحيدة القطب ، أو ثنائية القطبين ، أو متعددة الأقطاب ، ولكن في أغلب مراحل التاريخ كانت توجد دائماً قوة عالمية مسيطرة ثنائية القطبين ، وفي حالات استثنائية غير طويلة كانت توجد قوة عالمية مسيطرة وحيدة القطب .

وإذا نظرنا إلى القوى العالمية من خلال موقفها من الشخصية العربية خصوصاً ومن الإسلام عموماً ، فلسوف نكتشف أنه كانت هناك دائماً « قوة عالمية مسيطرة » موحدة الموقف والغاية سواء كانت تلك القوة وحيدة القطب أو ثنائية القطبين أو متعددة الأقطاب ، إذ لو استعرضنا التاريخ ولو بشيء من العجالة لوجدنا أنه كان قبل الإسلام ، أي قبل بدء تشكل الشخصية العربية الحضارية ، أنه كان في العالم قوة مسيطرة ذات قطبين هما الإمبراطورية الرومانية واليونانية أو الإمبراطورية الفارسية ، وكان العرب تابعين لهذا القطب

أو ذاك ، ملوك العرب (كما كانوا يسمونهم) أو أمراؤهم كانوا يعينون من قبل إمبراطور هذا القطب أو ذاك ، وكانوا يقاتلون في صفوف جيوش هذه الأقطاب ، وكثيراً ما كانوا يتقاتلون فيما بينهم لصالح هذا القطب أو ذاك .

كان القطبان متنازعين ، والعرب يدورون في فلكهما ، ويطحنون أحياناً بين أرحية حربهما .

وعندما تشكلت الشخصية العربية الحضارية ، بدأ اليهود ينظمون صفوفهم بطريقة جديدة ، صحيح أنهم بدؤوا بوضع مخططاتهم منذ أن بدأ أحبارهم بكتابة ما يعرف الآن بـ« التوراة » (التي هي ليست ما أنزله الله على سيدنا موسى عليه السلام ، بل هي تاريخ ألفه هؤلاء الأحبار لخدمة أهدافهم البعيدة) وذلك في حوالي القرن الثالث قبل الميلاد ، إلا أنهم بتكوُّن الشخصية العربية استشعروا خطرها الجاد والفعَّال عليهم لأنهم أدركوا أن هذه الشخصية الحضارية الجديدة قادرة على احتواء أتباعها وأتباع المسيح (عليه السلام) وأتباع موسى (عليه السلام) وغيرهم ممن يتبع دينا أو لا يتبع ، وقادرة على احتواء العرب وغير العرب في إطار واحد يتجاوز الحدود والأقاليم الجغرافية ، ولهذا أرى أن جذور الصهيونية العالمية تمتد إلى ذلك التاريخ، وأستطيع القول ، دون مجازفة كبيرة ، إن قوة عالمية مسيطرة عصبها اليهود أخذت تتشكل منذ ذلك الحين ، وأخذ هذا العصب يتفرع ويتغلغل في مختلف الأنظمة والكيانات والأديان فوجهها نحو هدف أساس هو هدم هذه الشخصية الجديدة بمكونيها : العروبة والإسلام ، إلا أن هذه الشخصية كانت أقوى من أن تؤثر فيها الحركة اليهودية العالمية ، وأقوى من أن يصمد أمامها قطبا القوة العالمية المسيطرة حينذاك ، فهزمت الشخصية العربية ذينك القطبين وبدا العالم كأنه وحيد القطب المتمثل بالدولة العربية الإسلامية التي امتدت أطرافها حتى وصلت الصين وفرنسا وجزءاً كبيراً من العالم جغرافيا وبشرياً وفكرياً وحضارياً .

وعندما بدأت الشخصية العربية بالضعف لأسباب عديدة ليس هنا مجال ذكرها ، أخذت الحركة اليهودية العالمية تنشط من جديد بعد أن كمنت طيلة هيمنة الدولة الإسلامية وهي في أوج قوتها ، وعملت سراً وبأسماء مختلفة وأشكال متنوعة ، إلى أن حان الوقت لقطف ثمار ذلك الجهد الخفي عندما ضعفت الشخصية العربية وتفككت ، استطاعت الحركة اليهودية ، من خلال الماسونية ، واللوثرية ، وشهوديهوه ، والبروتستانتية ، وغير ذلك من المسميات(*) أن تتغلغل في الشخصية الأوربية وتشكل أحد وجهي ثقافتها(الوجه الآخر هو الثقافة الهيلينية) وعملت على تثبيت مقولات معينة في جوهر الشخصية الأوربية بهدف محو الأثر العربي الإسلامي من ذاكرة الشعوب الأوربية . تتلخص هذه المقولات في :

1 ـ العبرانيون هم الذين اكتشفوا عقيدة التوحيد ، وكافحوا من أجلها ، وعانوا كثيراً من أجل تثبيتها .

2 ـ لا يوجد في تكوين العرب أي إبداع أو أية عبقرية .

3 ـ يتميز العرق الآري بالإبداع والمقدرة والعبقرية .

وهكذا نرى أن تبني الشخصية الأوربية لهذه المقولات جعلها عنصرية ، معادية للشخصية العربية دونما سبب حقيقي ، وما الحروب الصليبية والحروب الاستعمارية والحروب الصهيونية سوى تجسيد لهذه المقولات ، وأول نجاح حققته الحركة اليهودية العالمية في ظل تراجع الشخصية العربية وانحسارها ، هو إسقاط السلطنة العثمانية على يد يهود الدونمة وتفكيك الدولة العثمانية ، أما الانتصار الثاني فكان في اغتصاب فلسطين الذي جاء ثمرة هيمنة الشخصية الأوربية بزعامة بريطانيا ، بعد تفكيك الوطن العربي بموجب اتفاقية

(*) انظر كتاب « نقاط على حروف في الصراع العربي الصهيوني » للمؤلف ، نشر دار الأدهم ، دمشق 1986 م .

سايكس ـ بيكو في أعقاب سقوط الإمبراطورية العثمانية نتيجة الحرب العالمية الأولى ، وتابعت الشخصية الأوربية ذات العصب اليهودي تعاظمها حتى بلغت ذروتها قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وكانت « عصبة الأمم » هي الأداة التنفيذية لتلك القوة العالمية المسيطرة في ذلك الحين . ولدى انتهاء الحرب العالمية الثانية تولدت قوة عالمية مسيطرة جديدة ذات قطبين هما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي ، وكانت اليهودية العالمية أيضاً تشكل جهازها العصبي ، وأصبحت هيئة الأمم المتحدة برلمانها ومجلس الأمن أداتها التنفيذية ، وعرفت هذه المرحلة بمرحلة الحرب الباردة بسبب تنازع قطبي القوة العالمية المسيطرة بدون حرب ساخنة ، وبعد سقوط الاتحاد السوفياتي ، أصبحت هذه « القوة العالمية المسيطرة » وحيدة القطب (الولايات المتحدة الأمريكية) التي تتميز ، كما أسلفنا ، بالعنجهية والصلف والتعالي والهيمنة ، تلك الصفات التي عَبَّر عنها الجنرال الأمريكي « مارشال » ، رئيس هيئة أركان القوات الأمريكية في الحرب العالمية الثانية بقوله : « على أمريكا أن تؤمن القوة الكافية لتتمكن من قيادة العالم في عملية التطور القادمة للإنسانية » . وقال « ترومان » أحَد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية « إن انتصارنا وضعنا أمام مسؤولياتنا لقيادة العالم » . وكرر الرئيس الأمريكي ، أيزنهاور هذا المفهوم في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر عام 1956م=1385م.ر. عندما طرح ما عرف حينذاك « بمبدأ الفراغ » ، ويتلخص مفهوم قيادة أمريكا للعالم في أن مصالح العالم يجب أن تكون هي مصالح أمريكا وكل تعارض مع هذا الشعار يعد عدواناً وشرّاً لا بد من مواجهته والتصدي له ، سواء كان ذلك التعارض صادراً عن أفراد أو أحزاب أو حركات أو أيديولوجيات ، أو شعوب أو دول ، وبالتالي فإن الحرب ضد المعترضين على « الشعار الأمريكي » هذا تُعد حرباً مقدسة ومشروعة ، وبما أن ما يُسمى بـ« الشرق العربي » يعد في نظر أمريكا والشخصية الأوربية عموماً مناقضاً

للتاريخ وضد مساره ، ومنافياً للخير ، إذن لا بد من شطبه من التاريخ ومسحه ثقافياً وحضارياً من الذهنية الأوربية ومن الوعي الغربي عموماً .

من هذا المنطلق نفهم المحاولات المستميتة التي تبذلها إسرائيل بدعم من أمريكا وأوربا وروسيا لمحو صفة العروبة عن المنطقة بما في ذلك الجامعة العربية وطرح مصطلح « الشرق الأوسط » بدلاً من الوطن العربي ، وتبديل اسم جامعة الدول العربية إلى « جامعة الدول الشرق أوسطية » لتتمكن إسرائيل من أن تصبح فيها عضواً فعَّالاً ، أصيلاً ، وليس غريباً ، وبحيث تكون هي قطب المنطقة دون منازع .

بلغت هذه « القوة العالمية المسيطرة » وحيدة القطب ذروتها في حرب الخليج الثانية التي أستطيع تسميتها بدون أية مجازفة بـ« الحرب العالمية الثالثة » وذلك لأسباب كثيرة منها :

1 ـ اشترك فيها العالم كله تقريباً ، أبيضه وأسمره وأسوده وأصفره ، شماله وجنوبه ، شرقه وغربه .

2 ـ أسفرت الحرب عن تغيير موازين القوى في العالم إذ عَجّلت بسقوط الاتحاد السوفياتي ، وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بقطبية القوة المسيطرة على العالم .

3 ـ انهيار الأمة العربية وانشطارها بحيث لم يعد من السهل إعادة لملمتها (وليس وحدتها) على المدى المنظور .

4 ـ تعزيز قوة « إسرائيل » في المنطقة والعالم بسبب هذا الانهيار العربي ، والتخاذل الإسلامي .

5 ـ السيطرة الغربية عموماً ، والأمريكية خصوصاً ، على نفط المنطقة وعلى مصيرهابشكل مباشر .

وفي خضم هذا النصر الذي حققته الشخصية الغربية بزعامة أمريكا

المتحالفة مع اليهودية العالمية ظهر مصطلح « النظام العالمي الجديد » على لسان الرئيس الأمريكي ، بوش ؛ الذي لا يعني سوى « القوة العالمية المسيطرة » وحيدة القطب ، ولا تخرج أهدافه عن أهداف القوى العالمية المسيطرة الأخرى التي حاوت قيادة العالم سواء كان ذلك في إطار مصطلح « النظام الاستعماري » أو « النظام الأمبريالي » أو « النظام الشيوعي العالمي » أو مصطلح « النظام العالمي القديم » ، أو « النظام العالمي الجديد » ، تلك الأهداف التي تتلخص في ضم صفوف الدول الأوربية وغيرها ضد ما يمكن أن يتمخض عنه المستقبل من ظهور قوة عربية ، أو إسلامية ، أو حتى قوة صفراء تهدد المشروع الغربي للهيمنة على المنطقة العربية أو تهدد المشروع الصهيوني المتمثل بالكيان المعروف بـ« إسرائيل » الذي أصبح كما رأينا ، امتداداً للغرب وأداة بيده ، وقاعدة انطلاق وعمل ضد الأمة العربية وضد أي تيار إسلامي يشتم منه احتمال إقامة نظام متحرر من الهيمنة الغربية فكراً ومنهجاً وسلوكاً ، في أي جزء من هذه المنطقة الغنية بثرواتها وإمكاناتها ، التي بفضلها انتعش الغرب وتقدم ، والمهمة بموقعها الجغرافي والاستراتيجي .

وليس من الصعب اكتشاف هذه الحقيقة ، إذ لا يتطلب الأمر سوى التذكير بما أوردناه من أقوال المسؤولين الأمريكيين ، الذين أكدوا أيضاً أن حرب الخليج الثانية إنما هي حرب أمريكية (90٪) ، وليس لمنظمة الأمم المتحدة سوى دور الغطاء وإيجاد المسوّغات الدولية ، واعترفوا كذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية قد خططت لهذه الحرب قبل وقوعها بعشر سنين ، على الأقل كما ذكر ريجيه دوبرييه ، الكاتب الفرنسي المعروف في إحدى مقالاته حيث قال : « لم تخف الولايات المتحدة الأمريكية أنها خططت لهذه الحرب قبل عشر سنوات من أجل إقامة قواعد عسكرية دائمة لقواتها في الخليج بهدف التمكن من مراقبة إنتاج النفط والسيطرة عليه وعلى أسعاره وعلى الأموال الناتجة عنه » . وإذا ما ضربنا بعض الأمثلة البسيطة التي يراها ويلمسها القاصي

والداني ، والمختص بالسياسة وغير المختص ، المسؤولون وعامة الشعب ، فإن هذه الحقيقة تزداد وضوحاً وسطوعاً :

1 ـ الدعم الأمريكي الغير محدود وغير المشروط ، لإسرائيل . مالياً وعسكرياً وتقنياً ، واقتصادياً .

2 ـ حجب السلاح والمعونات غير العسكرية عن العرب . وإن قُدِم لهم شيء من السلاح اقترن بشرط عدم استخدامه ضد إسرائيل ، وكأن هناك شرطاً خفياً هو ضرورة استخدام هذا السلاح في حروب عربية ـ عربية ، أو عربية ـ إسلامية .

إضافة إلى الأسعار الباهظة التي يحصل عليها الغرب لقاء ذلك السلاح بما يكفل تغطية تكاليف ما يدفعه الغرب لإسرائيل ؛ مثلاً تباع الطائرة الحربية للدول العربية بسعر يزيد على ثلاثة أضعاف سعرها الحقيقي ، والفرق يذهب لإسرائيل . وكأن الغرب يدعم تفوق إسرائيل بأموال عربية ، ولا أريد هنا التوسع في موضوع الأموال العربية المودعة في بنوك أوربا وأمريكا التي يمكن لأرباحها فقط أن تغطي ديون الدول العربية كلها وتفيض عنها ، والتي تذهب كلها أيضاً لصالح إسرائيل والدول صاحبة البنوك ، في الوقت الذي لا تستطيع الدول أو الشخصيات صاحبة الأموال سحب ما تريد منها ، إذ يمكن للدول الغربية أن تجمد هذه الأموال كلها ويمكن ألا تسمح لصاحب الودائع أن يسحب ما يشاء ، إنها هي التي تقدر ما ينبغي لصاحب المال أن يسحب .

3 ـ غياب الحديث عن الأسلحة النووية وغيرها من أسحلة التدمير الشامل عندما يتعلق الأمر بإسرائيل ، وملء الدنيا ضجيجاً وصراخاً وعويلاً وتحذيراً من الويلات المقبلة على العالم إذا ما كان الأمر يتعلق بدولة عربية أو إسلامية .

4 ـ حتى فيما يتعلق بما يسمى « عملية السلام في الشرق الأوسط » يوجه التهديد إلى العرب ويوجه الدعم وتسويغ المواقف لإسرائيل . تفرض شروط

على العرب ، في حين تزداد إسرائيل عناداً وصلفاً ، وتملصاً من أي التزام تعهدت به أو وقعت عليه .

5 ـ تفرض قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، وحتى قرارات الولايات المتحدة ، على العرب بقسوة وشدة ، وتفرض عليهم العقوبات بدون رحمة ولا إنسانية ، في حين تستهتر إسرائيل بكل قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن .

وقد وصف شاستون ثورن ، رئيس وزراء اللكسمبورغ ، ميثاق الأمم المتحدة بقوله : « إن ميثاق الأمم المتحدة ليس سوى ناد للمنتصرين ، وإن مجلس الأمن ليس سوى تجسيد لحق هؤلاء المنتصرين في استخدام الفيتو » .

وهكذا نرى أن ما اصطلح عليه بوش بـ« النظام العالمي الجديد » ليس سوى شكل من أشكال الحكومة العالمية التي دعا إليها حكماء اليهود ، برلمان هذه الحكومة هو « الجمعية العمومية للأمم المتحدة » ومجلس وزرائها « مجلس الأمن » ، ورئيسها هو الرئيس الأمريكي ، ولم يبق حتى تعلن هذه الحكومة يهودية بشكل مكشوف سوى أن يصبح رئيس الولايات المتحدة يهودياً ، وهذا ليس ببعيد ، أليس بين أصحاب القرار في البيت الأبيض يهود ، وبين وزراء الحكومة يهود كذلك مثل كيسنجر وغيره .

6 ـ الازدواجية في التعامل مع العرب وغير العرب عموماً ، والتحيز إلى جانب إسرائيل خصوصاً ، ومن الأمثلة على ذلك أورد ما يلي :

آ ـ في 19/ ربيع أول/ 1411هـ= 8/ تشرين أول (أكتوبر)/ 1990 م= 1419 م . ر . قام متطرفون يهود يسمون أنفسهم « أمناء الهيكل » معزّزين بقوات الشرطة والجيش الإسرائيليين بالاعتداء على المسجد الأقصى (وهذا ليس أول اعتداء ولا آخر اعتداء) وأطلقوا النار على المصلين وقتلوا إمام المسجد الأقصى الشيخ يوسف أبو سنينة ، واستشهد عشرات آخرون من المصلين ، وفي

25/ 2/ 1994م= 1423م. ر. ارتكب اليهود أيضاً مذبحة في الحرم الإبراهيمي في الخليل حيث دخل مسلحون يهود المسجد عند صلاة الفجر وأطلقوا النار على المصلين وقتلوا كذلك عشرات من الآمنين وهم بين يدي الله . ولكن الأمم المتحدة ومجلس الأمن لم يتخذ أي قرار ملزم ضد إسرائيل ، ولم ترتفع أصوات الاستنكار ضد اليهود المتعصبين والمتطرفين دينياً ولم تُنسب إليهم صفة الإرهاب كما ينسبون هذه الصفة للمسلمين الذين يقاومون الاحتلال الإسرائيلي ، قال الممثل الأمريكي في جلسة مجلس الأمن : لنفرض أن مجلس الأمن قد اتخذ قراراً لا ترضى عنه إسرائيل ولا تقبله ، فما الفائدة ؟! ماذا نستطيع أن نفعل ؟! » أمر عجيب : عدم رضا إسرائيل عن أي قرار يمكن أن يتخذه مجلس الأمن كاف لعدم إصداره أو لتعطيله في حال صدوره . أما عدم رضا العرب عن أي قرار يعد كافياً لفرض أشد العقوبات وأقساها ليس على الحكومة ، بل على الشعب أيضاً .

إن الصور التي عُرضت على الغرب والعالم كله عبر شاشات التلفزيون والتي تبين كيف يقوم الجنود اليهود بتكسير عظام الأطفال الفلسطينيين بالحجارة والعصي ، بلا رحمة ولا شفقة ، وهو منظر تشمئز منه النفوس وتقشعر له الأبدان ، إن كل ذلك لم يهز شعرة في بدن الغرب ، ولم يحرك ضميراً . في حين لو فعل جندي عربي ذلك لكانت فضيحة تاريخية يدخلها الغرب واليهود في برامج التعليم في المدارس تصويراً لهمجية العرب .

ب ـ تصدر إسرائيل قراراً بضم الجولان ، وقراراً بضم القدس ، وتحتل جنوب لبنان ، وتصادر أراضي الفلسطينيين في القدس (وغيرها) فلا يحرك العالم ساكناً ، ولا يتخذ أية خطوة رادعة لهذا العدوان الصارخ والخرق الفاضح للشرعية الدولية واتفاقات جنيف المتعلقة بالحروب وبسلوك الأطراف المتحاربة . وفوق ذلك كله تعلن أمريكا أن مجلس الأمن ليس هو المكان المناسب لبحث مسألة مصادرة أراضي القدس من قبل الحكومة الإسرائيلية لبناء

مساكن لليهود عليها ، وتحول دون اتخاذ مجلس الأمن أي قرار بهذا الشأن .

ج ـ إن المنطق السليم يقول : إن من حق أي شعب أن يتحرر على نظام حكمه والثورة عليه إذا كان لا يعجبه ، ومن حق كل نظام ، في المقابل ، أن يدافع عن نفسه وأن يتصدى لذلك التمرد ويحاول إخماده ؛ والنتيجة هي للأقوى ، ولا يخرج الأمر عن كونه شأناً داخلياً .

ولهذا نرى الولايات المتحدة الأمريكية ودول الغرب تسكت عن تركيا في تصديها للأكراد الأتراك الذين يطالبون بالانفصال عن تركيا ، حتى إن أمريكا تغض النظر عن قيام تركيا باحتلال شمال العراق من أجل تحقيق هدفها في سحق الأكراد .

ولكن عندما يتعلق الأمر بالعرب ، فإن الموازين تنقلب والمعايير تختلف . فعندما حاول النظام العراقي إخماد التمرد الشيعي في الجنوب والتمرد الكردي في الشمال قامت الدنيا ولم تقعد ، واتهم النظام العراقي بالإرهاب والوحشية واللا إنسانية ، وصدرت قرارات جعلت جنوب العراق وشماله منطقتين محظورتين حتى على الطيران العراقي وعلى القوات العراقية ، ولكنها مباحة للطيران التركي والقوات التركية . حتى عندما جفف العراق المستنقعات في الجنوب بهدف استصلاح الأراضي اتهم بأنه غير البيئة وغير طبيعة الأرض وهذا يضر بالسكان (هكذا) ، وعندما فتحت ليبيا « النهر العظيم » لإحياء الصحراء واستثمار المياه الجوفية لصالح الإنسان . تعالت الاتهامات بأن النظام الليبي يريد استنزاف المياه الجوفية في مشاريع غير مجدية وغير اقتصادية .

يضرب الروس الشيشان ويهدمون القرى والمدن على رؤوسهم فلا يتحرك الغرب ولا تتهم أمريكا روسيا بأنها وحشية وإرهابية ، وتعد تصرف روسيا شأناً داخلياً ، علماً بأن شاشانيا جمهورية مستقلة وواحدة من الجمهوريات الأخرى التي انتظمت في إطار اتحادي شكل الاتحاد الروسي ، وأراد الشاشانيون الآن

الاستقلال عن هذا الاتحاد ، فتدخلت الحكومة الروسية المركزية لإحباط الانفصال . ألم يكن الأمر شاناً داخلياً ؟!

د ـ تتباكى أمريكا على الديمقراطية ويتباكى معها الغرب ،ولكنهم جميعاً يؤيدون إحباط الديمقراطية كما حصل في الجزائر ؛ ويؤيدون الأنظمة الدكتاتورية ، في بعض البلدان ، وخصوصاً في الوطن العربي ، كما لا ترى أية غضاضة في ممارسة « إسرائيل » العنصرية الدينية (الطائفية) . في حين تستنكر على العرب والمسلمين رفع راية الإسلام ويتهمون الإسلام بالإرهاب والتعصب والتشدد وغير ذلك من مواصفات يقصد بها الحط من شأن الإسلام وتشويه صورته وحقيقته .

الأمثلة أكثر من أن تحصى أو تحصر ، ففي كل يوم تخرج أكثر من شهادة على هذا السلوك المزدوج والمعايير المختلفة التي تقيس بها أمريكا الأمور وتفسر بموجبها الشرعية الدولية ، وما هو إرهابي وما هو غير إرهابي ، وما هو دفاع عن النفس وما هو عدوان ، وما هو شأن داخلي ، وما هو شأن دولي إلى آخر ما هناك من مصطلحات .

هذه القوة العالمية المسيطرة وحيدة القطب الأمريكي دعت إلى عقد مؤتمر سلام بعد أن حققت حرب الخليج الثانية أهدافها التي نلخصها فيما يلي :

1 ـ تدمير القدرة العراقية العسكرية تدميراً كاملاً . وما زالت المساعي قائمة لمنع العراق حتى من مجرد التفكير بامتلاك سلاح متطور أو تطوير سلاح متقدم ، أو الحصول على تكنولوجيا حديثة ومتطورة ، كما صرح الرئيس الأمريكي الحالي « كلينتون » .

2 ـ تجويع الشعب العراقي ، وهدم البنية التحتية الاقتصادية والصحية للعراق الأمر الذي أدى إلى انهيار الدينار العراقي انهياراً سريعاً وكبيراً ، وفقدان المواد الغذائية والدوائية الأساسية .

3 ـ النجاح في تجنب إسرائيل الاشتراك المباشر المكشوف في الحرب ، الأمر الذي حال دون تحويلها إلى حرب عربية ـ إسرائيلية ، حافظ على سير الأحداث كما خططت لها أمريكا .

4 ـ طرد الفلسطينيين من الخليج وحرمانهم من العمل فيه (وخصوصاً الكويت) حتى إن معظم الدول العربية تشدد على الفلسطينيين فيما يتعلق بتأشيرات الدخول إليها ، وبذلك ضعفت الإمكانات الفلسطينية إلى أقصى حد ؛ وكان من الأهداف المراد الوصول إليها من هذا التصرف تجاه الفلسطينيين هو دفع الشعب للتصالح مع العدو مهما كان الثمن الذي سيدفعه لقاء ذلك ، كي يقول المتحمسون من العرب للتصالح مع « إسرائيل » : ها هم الفلسطينيون قد تصالحوا مع اليهود ، فلماذا لا نتصالح نحن ! هل سنكون فلسطينيين أكثر من الفلسطينيين أنفسهم ؟! كأن المسألة مسألة فلسطينية فقط ، وليست مسألة عربية ، وصراعاً عربياً ـ صهيونياً مصيرياً ، نتيجته أن نكون (كأمة عربية) أو لا نكون .

5 ـ الانقسام القومي العربي الشديد ، إذ أخذ بعض العرب يفكرون ، بل يدعون إلى إسقاط صفة « العروبة » عن هذه الأمة ، وإلى التخلي عن الدعوة إلى الوَحدة العربية ، وأكثر من ذلك صار بعض القادة العرب ينظرون إلى اليهود على أنهم أفضل من الفلسطينيين (وصرحوا بذلك علانية) ، ورفع بعضهم صوته معلناً أنه ليس عربياً .

حتى الجامعة العربية أخذت تضعف لنضوب الدعم العربي المالي والمعنوي لها وكأنهم يمهدون لتحويلها إلى جامعة شرق أوسطية ، بدلاً من جامعة عربية ، تلبية للدعوة اليهودية والأمريكية .

6 ـ الانقسام الديني الإسلامي الفاضح عن طريق استغلال الأطراف العربية المتنازعة للإسلام وتسخيره لتغطية مواقفهم ، وخضوع علماء الدين

للحكام وتلبية مطالب الأنظمة والإفتاء بشرعية ما اتخذوه من خطوات سواء كانت تلك الخطوات صحيحة أو خاطئة دون تقوى أو خوف من الله ، أو دون أن يحسبوا حساباً لمصير الأمة ؛ الأمر الذي أفقد الإسلام هيبته لدى أتباعه وأعدائه على حد سواء .

حتى المثقفون ، انبرى كثير منهم للدفاع عن الحملة الأمريكية العالمية اليهودية ضد الأمة العربية(*) .

في هذا الجو الكئيب ، وفي هذا المناخ من الضعف الرهيب ، والتفكك الشديد ، أخذت الدول العربية تبدي استعدادها لقبول السلام والتفاوض مع العدو ، واغتنمت أمريكا هذه المحصلة ودعت إلى مؤتمر سلام يعقد في مدريد (إسبانيا) يوم الأربعاء في 30/ تشرين أول (أكتوبر)/ 1991م= 1420م . ر= 22 ربيع الآخرة 1412 هـ باشتراك العرب كلهم بما فيهم الفلسطينيون .

رابعاً ـ طبيعة هذا السلام (المزمع الوصول إليه) :

منذ عام 1948م = 1377م . ر . والحديث عن السلام لم ينقطع . الكيان الصهيوني يتوسع ويتحدث عن السلام بآن واحد . ولكن أي سلام ذلك الذي يتحدث عنه الكيان الصهيوني ؟! هو ذلك السلام الذي يُفَصِّلُه قادة العدو ، وعلى قادة العرب أن يَلْبسوه ويُلْبِسوهُ لشعوبهم . الغرب بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وغيرهم يُدَلِّلُون اليهود ، وأقصى ما يفعلونه معهم هو الرجاء أو التمني بأن يفعلوا كذا أو كذا . وفي حال عدم قبول اليهود لهذا الرجاء فلا حول ولا قوة . عندئذ يسرع الغرب بالبحث عن سبل لتقريب وجهات النظر بين الأطراف المتنازعة . وهذه السبل لا تُشق إلا في

(*) مجلة الجهاد ، العدد 97 ، شعبان 1400 من وفاة الرسول ، مارس 1991م= 1420 م.ر . ص. 55 (مقتطفات من مقالة الدكتور خالد محمد خالد يؤيد فيها التدخل الأمريكي ويباركه) .

صفوف العرب وفي أرضهم . بمعنى أن تقريب وجهات النظر يعني فقط تقريب وجهة نظر العرب من وجهة نظر اليهود إلى أن تتطابق وجهتا النظر مع عدم تزحزح اليهود قيد أنملة عن موقفهم ، وعدم التنازل عن مثقال ذرة من أهدافهم ومطالبهم التوسعية وأساليبهم العدوانية . ومع ذلك لم يصفهم الغرب يوماً بالتشدد ، أو بالتصلب ، أو بالتعنت ، أو بالتخلف أو بأنهم يعرقلون مساعي السلام . كل تلك الصفات تلصق بالعرب (غير المتحضرين) إذا ما تمسكوا بمطلب حق واحد . ويطلب من العرب أن يتحضروا . والتحضر في نظر الغرب ونظر اليهود أن يتنازل العرب عن معظم حقوقهم إن لم يكن عنها كلها والتخلي عن منطق تحرير أرضهم . وإن لم يتخلوا بإرادتهم عن حقوقهم وأرضهم ونفطهم وشمسهم ومائهم ، فلا بد أن يرغموا على ذلك (لردهم إلى حظيرة التحضر ، على حد قول الغرب والصهيونية العالمية) .

وقد مارسوا ذلك على العرب بأساليب مختلفة وطرق عديدة بدءاً من سايكس ـ بيكو إلى حرب الخليج الثانية ، ومن مساعي الكونت برنادوت الذي اغتاله اليهود (لمجرد أنه طالب بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالقضية الفلسطينية ، وفي مقدمتها قرار التقسيم وإقامة دولتين يهودية وفلسطينية ، وإعادة اللاجئين) ، ومع ذلك لم يرتفع صوت واحد ضد اليهود لفعلتهم الإجرامية والإرهابية هذه ، إلى مساعي بيكر وخليفته شولتز ، ومن خلق بؤر توتر بين الأنظمة العربية (فيما بينها) من جهة ، وبينها وبين الدول المحيطة بها (مثل تركيا وإيران والدول الإفريقية . . . الخ) من جهة ثانية ، تفجرها متى شاءت ، إلى افتعال حروب مع العدو الصهيوني هي أقرب إلى التمثيليات أو المسرحيات منها إلى الحروب الحقيقية ؛ كل ذلك من أجل إقناع المواطن العربي العادي بأن الكيان الصهيوني المسمى « إسرائيل » حقيقة واقعة لا بد من الاعتراف به والتعايش معه ، والنظر إلى دوله « إسرائيل » على أنها دولة شرق أوسطية شقيقة .

وبدأ بالفعل مسلسل التنازلات العربية استجابة لدعوة التحضر واكتساباً لصفات الحضارة وخصائصها . فمن هدف التحرير الشامل أي تحرير كامل التراب الفلسطيني والعربي غير الفلسطيني المحتل تنازل العرب إلى حد القبول بكل ما يطرحه العدو بذريعة أن العرب لن يكونوا عثرة في طريق السلام ، وبحجة كشف نوايا العدو غير السلمية ، وحصره في زاوية حرجة . حتى لاءات العرب الثلاث : لا اعتراف ولا تفاوض ، ولا صلح ، اختفت نهائياً ليحل محلها لاءات إسرائيلية هي : لا للدولة الفلسطينية ، ولا لعودة اللاجئين الفلسطينيين ، ولا للعودة إلى حدود الرابع من حزيران عام 1967 ؛ وأضافوا إلى لاءاتهم هذه شرط مسبق هو إقامة تطبيع كامل مع أية دولة عربية تريد التفاوض معها ، قبل التوصل إلى صيغة سلام بين الطرفين ، وذلك بدعوى ضرورة إبداء حسن النية قبل عقد أية معاهدة .

ومع ذلك ما زال الغرب يمارس ضغطاً على العرب (وليس على إسرائيل) من أجل تقريب وجهات النظر بالمفهوم الذي ذكرناه آنفاً . فأي سلام ، إذن ، ذلك الذي تريده « إسرائيل » وتدعمه الولايات المتحدة الأمريكية والغرب والشرق معاً ؟! يمكننا تلخيص وجهة النظر الإسرائيلية أو مفهومها للسلام فيما يلي :

١ ـ استسلام عربي كامل ، من خلال الدخول في مفاوضات مع العدو الصهيوني دون قيد أو شرط عربي (طبعاً مع الاحتفاظ لليهود بحق وضع الشروط التي يرونها مناسبة) .

٢ ـ الاستمرار في استجلاب الغرباء اليهود من جميع أنحاء العالم إلى فلسطين وبناء مستعمرات لهم في الأراضي الفلسطينية التي يصادرونها من أصحابها أهل البلاد التي استولوا عليها بالقوة والإرهاب .

3 ـ رفض إقامة دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة على أيه أرض فلسطينية

لأن ذلك (من وجهة النظر الإسرائيلية) يعد خلق نقيض للدوله اليهودية وبداية لنهايتها .

4 ـ رفض أن تكون القدس الشرقية عاصمة لأي كيان فلسطيني مهما كان شكله ودرجة استقلاله .

5 ـ رفض فكرة عودة اللاجئين الفلسطينيين (رغم صدور قرارات عن الأمم المتحدة تدعو إلى إعادتهم وتطالب بذلك بإلحاح في قرارات متكررة أذكر منها ، على سبيل المثال ، القرارات التالية : 1948/194 ؛ 1950/394 ؛ 1961/1604 ؛ 1965/2052 ؛ 1969/2535 ؛ 1970/2649 ؛ 1971/2787 ؛ 1972/2963 ؛ 35 ;1973/2089 ؛ 1980/169-35 .

6 ـ الإصرار على أن « لإسرائيل » الحق في المشاركة بكل موارد المنطقة من مياه سطحية (مياه دجلة والفرات ، والنيل ، وحتى الأنهار المحلية) ونفط (سواء كان النفط في الخليج أو في السعودية أو في أقصى المغرب العربي أو في أدنى المشرق العربي) ومياه جوفية ، وأيه موارد أخرى بما فيها الشمس والهواء ، وحتى الطاقة البشرية لاستخدامها لدى اليهود .

7 ـ عدم القبول بمبدأ « الأرض مقابل السلام » وعدم الالتزام بمبدأ « عدم جواز ضم أراضي الغير بالقوة » وهما المبدآن اللذان ينص عليهما قرارا مجلس الأمن رقم 242 و 338 ، وهما القراران اللذان وجهت على أساسهما الدعوة إلى المفاوضات ، وإلى مؤتمر مدريد .

قال إسحق شامير ، رئيس وزراء إسرائيل الذي شارك في مؤتمر مدريد : « أفضل أن أُتهم بأني عطلت مسيرة السلام على أن أتهم بأني تنازلت عن شبر من أرضنا »(هكذا) .

ولهذا رفع العدو شعار « السلام مقابل السلام » بدلاً من « شعار الأرض مقابل السلام » اللهم إلا إذا كانت تلك الأرض التي سينسحب منها العدو تخدم

الإعلام العربي أكثر مما تخدم الحق العربي .

8 ـ إضافة إلى الشرط المسبق الذي يضعه العدو ، وهو ضرورة أن يتخذ العرب خطوات إيجابية وعملية تثبت حسن نواياهم تجاه « إسرائيل » مثل :

آ ـ الاعتراف بحق « إسرائيل » في الحياة والوجود كغيرها من دول « الشرق الأوسط » .

ب ـ نبذ « العنف والإرهاب » وضرورة وضع حد لجميع الذين يمارسون الإرهاب ومنعهم من العمل والقضاء عليهم (والمقصود بالإرهاب عند العدو وأنصاره هو أي عمل يستهدف مقاومة احتلال « إسرائيل » للأرض العربية . ولهذا دخل كل المسلمين المجاهدين ضد الاحتلال الإسرائيلي ، ودكتاتورية الأنظمة في إطار « الإرهاب ») .

ج ـ إلغاء المقاطعة العربية الاقتصادية لإسرائيل والدخول معها في مفاوضات متعددة الأطراف للبحث في مستقبل المنطقة بيئياً وسياسياً واقتصادياً .

د ـ تجريد العرب من أسلحتهم وإمكاناتهم ، وتخفيض قواتهم كدليل على أنهم انتزعوا فكرة محاربة إسرائيل من رؤوسهم .

هـ ـ الشروع بتطبيع العلاقات مع « إسرائيل » حتى قبل التوصل إلى أية نتائج إيجابية في المفاوضات بما في ذلك التطبيع الثقافي (الذي لا يعني سوى التخلي عن ثقافتنا وتبني ما تطرحه إسرائيل وما يقدمه الغرب لنا من ثقافة) ، والتطبيع الإعلامي (الذي لا يعني سوى عدم التعرض لإسرائيل أو لليهود بأيه كلمة لا يرضى عنها اليهود ، والإكثار من امتداح دولة الكيان الصهيوني والمجتمع اليهودي والثقافة اليهودية . . . الخ) .

لقد تحققت لليهود كل هذه الشروط تقريباً . إذ اعترف العرب بإسرائيل وبوجودها وحقها في العيش بسلام من خلال القرارين 242 و 338 ومن خلال

قبولهم التفاوض معها للتوصل إلى سلام . وقد وصف العرب هذا السلام بأنه ينبغي أن يكون عادلاً وشاملاً . وكلمة شامل تعني شمول جميع الدول العربية والإسلامية المجاورة مثل إيران وتركيا وباكستان في معاهدات الصلح والسلام التي يتم التوصل إليها مع إسرائيل ، وتعني كذلك شمول جميع مناحي الحياة البشرية . وهذا ما تريده إسرائيل حقاً . أما صفة العدل فيقصد بها العرب أن تنسحب إسرائيل من كل الأراضي التي احتلتها في حرب حزيران(1967-1396 م . ر) مقابل التوصل إلى ذلك السلام الشامل . ولكني أتساءل : هل هناك سلام عادل ؟ لم يسجل التاريخ مثل هذا السلام قط لأن السلام أو الصلح يعقد عادة بين فريقين أحدهما منتصر والآخر مَهزوم . أي بين فريق يملي شروطه ، وفريق يقبل بتلك الشروط . ومتى كان المنتصر ينصف المهزوم ويعطيه كل حقوقه كاملة ويتنازل عن كل مكاسب الحرب التي حصل عليها ؟ ؛ وإلا ما كان هناك ضرورة للحرب أصلاً . إذن ليس هناك سلام عادل .

وكذلك أعلنت الدول العربية بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية ، وسلطة الحكم الذاتي أنها تنبذ الإرهاب ، وأخذت أنظمة الحكم العربية ، وحتى تلك التي تضيف لاسمها صفة « إسلام ، أو إسلامية » بملاحقة كل الذين يعملون ضد الاحتلال الصهيوني وكيانه المسمى « إسرائيل » حتى الذين يقاومون العدو الصهيوني من منطلق إسلامي قرآني وصفوا بأنهم أصوليون ، ومتشددون ومتعصبون وإرهابيون وتعرضوا للملاحقة والتصفية . ولم يقتصر الأمر على الدول العربية والإسلامية بل شمل جميع أنحاء العالم : يوغسلافيا ، روسيا ، إفريقية وغيرها ، حتى أولئك الذين كانت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها العرب يطلقون عليهم اسم مجاهدين ، وكانوا يمدونهم بالمساعدات المالية والسلاح والتدريب عندما كان هؤلاء يقاتلون في أفغانستان ضد النظام الشيوعي ، ولكن عندما تحولوا إلى الجهاد ضد العدو الصهيوني والأنظمة الدكتاتورية صار اسمهم إرهابيين وحملوا لقب « العرب الأفغان » .

أما المقاطعة الاقتصادية ، فقد بادرت دول عربية كثيرة إلى الإعلان عن إلغاء المقاطعة والبدء في التعامل الاقتصادي مع العدو .

وفيما يتعلق بالسلاح ، فقد أصبح واضحاً لكل ذي عين ترى أن العرب قد جُردوا من قدرتهم على مواجهة العدو عسكرياً (وإن كنتُ أنا شخصياً أرفض ذلك ، لأنني أرى أن الأمة العربية إذا ما صممت على تحرير نفسها وأرضها فإن تفوق العدو العسكري لن يكون ذا جدوى . فلدى الأمة العربية من عناصر القوة والاستمرار ما لا يمكن للعدو أن يمتلكها ، وقد أكد الرئيس حافظ أسد في أحد خطاباته هذه الحقيقة) . إلا أنه بالمنطلق العسكري النظري ، أصبح العرب عاجزين عن مواجهة العدو الذي يمتلك رؤوساً نووية ، وصواريخ بعيدة المدى ، وأقمار تجسس اصطناعية وغير ذلك من أسلحة التدمير الشامل الحديثة والمعقدة .

أما موضوع التطبيع ، فقد سارعت أنظمة عربية عديدة إلى دعوة مسؤولين إسرائيليين إلى بلادهم لحضور مؤتمرات وندوات وللاشتراك في مفاوضات تتعلق بالمنطقة ، كما قام مسؤولون عرب بزيارة « إسرائيل » . كل ذلك قبل التوصل إلى أية خطوة إيجابية في المفاوضات التي ما زالت تتعثر منذ مؤتمر مدريد . حتى المثقفون العرب الذين صمموا على التصدي للتطبيع مع العدو ، انبرى من بين صفوفهم من يدعو إلى التطبيع بحماس واندفاع تحت شعار التحضر واستيعاب المعطيات العالمية الحالية ، وقد بلغ الأمر ببعض الدول العربية أن حذفت بعض آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن فكر اليهود ودسائسهم من مقررات الديانة الإسلامية بذريعة أن ذلك تم لأسباب تربوية وليس لأسباب سياسية (*) .

(*) مقالة بعنوان « نموذج لأخطار التطبيع الثقافي : النموذج الأمريكي » ، للدكتور إحسان الهندي ، مجلة « الأسبوع الأدبي » ، العدد 458 ، الخميس في 1995/4/13م =

لقد حقق العدو معظم ما يريد تقريباً قبل التوصل إلى ما أسماه العرب بالسلام العادل والشامل ، إذ انفردت إسرائيل أول الأمر بأكبر دولة عربية هي مصر ، وعقدت معها معاهدة صلح وسلام عبر مفاوضات كامب ديفيد . ثم انفردت بمنظمة التحرير الفلسطينية وعقدت معها اتفاق أوسلو ؛ وأخيراً انفردت بالأردن وعقدت معه معاهدة صلح وسلام . بقي سوريا ومعها لبنان . وسبب التأخير حتى الآن هو أن الرئيس حافظ أسد قد وضع معادلة سياسية يحاول من خلالها تقليل الخسائر إلى الحد الأدنى أو تلافيها تماماً ، وتحقيق ما يمكن من المكاسب في هذه المرحلة العصيبة . وتقوم هذه المعادلة على الأسس التالية :

أن أمريكا هي القطب الوحيد في العالم ، وقادرة على فرض إرادتها حتى على حلفائها الأوربيين وعلى خصومها السابقين ؛ إذن لا بد من قبول دعوتها إلى التفاوض من أجل السلام بين العرب وإسرائيل ، واستثمار قطبيتها الوحيدة ورغبتها في تحقيق شيء في مجال النزاع العربي الإسرائيلي من أجل تلافي أكبر قدر من الخسائر وتحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب في هذه المفاوضات . أما الطرف الثاني من المعادلة فيقوم على أساس التمسك بمبدأ الأرض مقابل السلام ، أي الانسحاب الكامل من كل الأراضي العربية المحتلة لقاء سلام كامل بكل ما يستدعيه ويتطلبه ذلك السلام . مع إضافة مُعامِلٍ توازن إلى طرفي المعادلة لضمان الالتزام بما يمكن التوصل إليه من نتائج ، هو ضرورة كون الولايات المتحدة شريكاً في عملية السلام والمفاوضات لتكون شاهداً على إسرائيل التي من طباعها عدم الالتزام بالمواثيق والعهود (كما هو حاصل في اتفاق أوسلو) . وقد صرح حافظ أسد قائلاً : « إن بقاءنا على الوضع الحالي

= 14 ذو القعدة 1415هـ ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق .

خير من سلام تفرضه إسرائيل » منوهاً بذلك إلى تمسكه بمعادلته التي يعمل بموجبها .

باختصار ، يريد العدو كل شيء لقاء لا شيء . ولا يهمه أَنعقد مؤتمر سلام أم لم ينعقد ، أو نجحت المفاوضات أم لم تنجح . المهم عنده الوصول إلى أهدافه كاملة . وأكبر برهان كما أشرنا سابقاً هو طريقة تعامل العدو مع السلطة الفلسطينية التي وقعت معه اتفاق غزة ـ أريحا ، أولاً ، هذا الاتفاق الذي اختلف حوله الفلسطينيون فيما بينهم واليهود فيما بينهم . وأرى من المناسب في هذا المقام بيان وجهة نظر الفرقاء جميعاً في هذا الاتفاق لما له من أهمية استراتيجية في مستقبل الأمة العربية إجمالاً ، ومستقبل الصراع العربي ـ الصهيوني ، حصراً .

أ ـ وجهة نظر المؤيدين الفلسطينيين (وهي تكاد تتطابق في نتائجها مع وجهة نظر المعارضين اليهود) وتتلخص فيما يلي :

1 ـ أن كلمة « أولاً » ، التي جُعلت جزءاً من عنوان الاتفاق ، تعني أن هناك خطوات أخرى على مسار اتفاقات أوسع وأشمل ، لا نعلم نحن مداها ؛ إذ يدعي كل طرف من طرفي الاتفاق ما يناقض تصورات الطرف الآخر . فالفلسطينيون يقولون إن هذا الاتفاق هو خطوة أولى نحو إقامة دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها « القدس » . أما اليهود فيقولون إنها خطوة أولى نحو إقامة حكم ذاتي إداري على الشعب وليس على الأرض ، باستثناء القدس التي يدعون أنها عاصمة إسرائيل الموحدة إلى الأبد .

2 ـ أن الوضع العربي الراهن وتغيُّر موازين القوى في العالم بحيث أصبح هناك قوة عالمية مسيطرة وحيدة القطب الأمريكي ، واضطرار العرب إلى الدخول في مفاوضات سلام مع العدو الصهيوني ، وإصرارهم على السير فيها إلى آخر الشوط ، إنما يعني اعترافاً بإسرائيل بحدود (4 حزيران 1967م= 1396م.ر) على الأقل ، وإقراراً بالضعف العربي العام . كل هذا يعني أن

العرب غير قادرين في هذه المرحلة التاريخية على تحقيق أي نصر حاسم على العدو ، الأمر الذي يتطلب من القيادة الفلسطينية القيام بمناورة للحصول على ما يمكن الحصول عليه في مثل هذه الظروف الدولية ، بدلاً من ضياع كل شيء .

3 ـ أن تثبيت اسم « فلسطين » و« الشعب الفلسطيني » على الخارطة الجيوسياسية والبشرية ، يُعَدُّ خطوة ، وإن كانت ضعيفة وغير كافية ، نحو قيام دولة فلسطينية مستقلة تكون في حقيقة الأمر نقيضاً للكيان الصهيوني ، انطلاقاً من أن فلسطين لا تتسع إلى دولتين مختلفتين عرقاً وديناً ، وبينهما عداء تاريخي ذو جذور عميقة في عقائد الطرفين ونفوسهم .

4 ـ أن تثبيت حدود دولة « إسرائيل » حتى لو كان ذلك عبر حل سلمي على حساب العرب في المدى المنظور يعني في المدى البعيد هدم إحدى الدعامتين اللتين تقوم عليهما « إسرائيل » ، كما أسلفنا ، وهي دعامة « الحدود العائمة » .

5 ـ أن إحلال السلام ، طالما أننا لم نستطع إنزال هزيمة حاسمة بالعدو ، يعني بكل ما فيه من خسائر للعرب وللفلسطينيين ، يعني في النهاية تثبيت الفلسطينيين في أرضهم واستقرار حياتهم فيها ، وهذا يؤدي إلى نموهم وتطورهم وتكاثرهم في أرضهم ، الأمر الذي يؤدي في النتيجة إلى هدم الدعامة الثانية التي تقوم عليها « إسرائيل » وهي « يهودية الدولة » ؛ ولو حصر وجود الفلسطينيين في الضفة والقطاع إضافة إلى الموجودين في الجليل والمثلث والنقب (وهؤلاء يشكلون 60٪ من الشعب الفلسطيني أو أكثر) فإن هؤلاء سوف يتفاعلون فيما بينهم على أرض فلسطين الـ48 (المعروفة بـ« إسرائيل ») وفلسطين الـ67 (المعروفة بـ« الضفة والقطاع ») ، وهم أكثر من ثلاثة ملايين نسمة ، عبر التعامل الاقتصادي والتزاوج والعلاقات الاجتماعية الأمر الذي يجعل الفصل بينهم مستحيلاً .

6 ـ أن حصول الفلسطينيين على أية صيغة من صيغ الاستقلالية ولو

كانت حكماً إدارياً ذاتياً هزيلاً ومرتبطاً بإسرائيل فإن ذلك يعني اعتراف العدو بالشعب الفلسطيني الذي ينكر وجوده المتطرفون اليهود ، ويعني أيضاً مزيداً من الاعتراف لهذا الشعب بحقه في إدارة شؤونه بنفسه ، الأمر الذي سوف يُسفر في نهاية المطاف عن الاعتراف بحقه في أن يكون له كيان مستقل ومصير حرّ .

ب ـ وجهة نظر المعارضين الفلسطينيين (وهي تكاد تتطابق في نتائجها مع وجهة نظر المؤيدين اليهود) ، وتتلخص فيما يلي :

1 ـ أن الاعتراف المتبادل الذي سبق التوقيع على اتفاق أوسلو كان بين دولة هي « إسرائيل » ومنظمة هي « منظمة التحرير الفلسطينية » وهذا يعني أن العدو لم يعترف بوجود دولة .فلسطينية ، رغم أن معظم دول العالم تعترف بالدولة الفلسطينية التي أعلنها المجلس الوطني الفلسطيني في الساعة الواحدة والنصف من صباح يوم الثلاثاء في 1988/11/15م = 1417م.ر . في جلسته التاسعة عشرة الطارئة التي عقدت في مدينة الجزائر في ذلك الحين ، إضافة إلى أن غياب المنظمة عن الساحة لأي سبب كان ، يعني تحلل العدو من كل الاتفاقات التي وقعها مع المنظمة بدعوى أن الطرف الذي اعترف به ووقع معه الاتفاقات لم يعد موجوداً .

2 ـ لم يتضمن الاتفاق ، ولا خطاب عرفات في حفل التوقيع أي ذكر لحقوق الشعب الفلسطيني التي يأتي في مقدمتها حق العودة ، وحق إقامة دولة فلسطينية مستقلة على التراب الفلسطيني ، عاصمتها القدس ، وحق تقرير المصير . كما أهمل ذكر القدس وتأكيد كونها عربية وعاصمة للدولة الفلسطينية .

3 ـ لم يتطرق الاتفاق إلى ضرورة تفكيك المستعمرات الاستيطانية اليهودية التي أُقيمت أصلاً خلافاً للقانون الدولي وخرقاً للقرارات الدولية المتعلقة بحربي 67 ، 73 ، وخصوصاً القرارين 242 ، 338 . كما لم ينص الاتفاق على ضرورة وقف الهجرة اليهودية إلى الضفة والقطاع والقدس

(على الأقل) ، الأمر الذي يتيح لليهود قلب الميزان السكاني في القدس والضفة ، ويسهل عليهم ضمان نتيجة أية استفتاءات أو انتخابات مستقبلية لصالح المخطط الصهيوني ، ويجعل من المستعمرات الاستيطانية كنتونات مستقلة ضمن حدود السلطة للحكم الذاتي الحالية ، أو ضمن حدود الدولة الفلسطينية (في حال قيامها) ، ومسوّغاً للوجود العسكري ضمن هذه الدولة ، وبالتالي انتقاصاً للسيادة الفلسطينية على أراضيهم تحت ذريعة الحفاظ على أمن المستعمرات اليهودية هذه .

4 ـ يعد هذا الاتفاق خرقاً للتضامن والتنسيق العربيين اللذين كانا قائمين أثناء المفاوضات من أجل تصليب الموقف العربي والحيلولة دون انفراد العدو بالأطراف العربية ، ولهذا جاء الاتفاق إضعافاً للموقف العربي ، وخصوصاً لموقف سورية ولبنان ، ونزوعاً إلى الحلول الانفرادية التي تعطي للعدو مزيداً من الميزات ، ومزيداً من الوقت كي يماطل ويسوّف ، ويطرح شروطاً جديدة ، وربما التخلي عن التزاماته التي التزم بها بموجب الاتفاق ، ويعد مسار المفاوضات الحالية الفلسطينية ـ الإسرائيلية من جهة ، والعربية ـ الإسرائيلية من جهة أخرى أكبر دليل على ذلك(*) .

5 ـ إن هذا الاتفاق يسهل على العدو تنفيذ مخططه الإرهابي الهادف إلى تفريغ الأرض الفلسطينية من أهلها العرب ودفعهم باتجاه شرق الأردن والترويج إلى مقولة الوطن البديل في الأردن ، وخلق صراع فلسطيني ـ أردني يلهي الأمة العربية بأسرها عن القضية الفلسطينية . وليس أدل على ذلك من ارتكاب اليهود لمجزرة الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل في فجر يوم الجمعة من 15/ رمضان/ 1414هـ= 1994/2/25 م= 1423م . ر .

6 ـ أن هذا ألاتفاق وما تضمنته وثيقة الاعتراف المتبادل من التزام عرفات بنبذ الإرهاب والتخلي عن العنف وبتأديب المخالفين وملاحقتهم . . . إلخ .

(*) لا بد من الإشارة إلى أن هذا الاتفاق فتح الباب أمام المملكة الأردنية الهاشمية للإسراع في عقد اتفاق ثنائي مع « إسرائيل » .

يعني أن الاتفاق منح « إسرائيل »فرصة الضغط على السلطة الفلسطينية للتصدي إلى كل من يحاول مقاومة الوجود الاستيطاني أو العسكري « لإسرائيل » في الأراضي الفلسطينية المحتلة ، وبالتالي تحويل السلطة الوطنية إلى مجرد أداة قمع للشعب الفلسطيني بيد أعدائه ومغتصبي حقوقه .

7 ـ حتى بعد قيام دولة فلسطينية بعد حين من الدهر فإن هذه الدولة لن تكون أكثر من فندق سياحي من درجة خمس نجوم أو أكثر أو أقل ، ومن معبر للأيدي العاملة في الكيان الصهيوني ، ولمنتجاتها التي سوف يصدرها للوطن العربي المستهلك لها .

ج ـ وجهة نظر الاستراتيجيين المؤمنين بالمعادلات السياسية : وتتلخص في أنه لا بد من دراسة أي حدث يقع دراسة دقيقة مُعمَّقة للتمكن من وضع معادلة سياسية ناجحة تحول مسار ذلك الحدث لصالح الأمة العربية مهما كان ذلك الحدث في ظاهره لغير صالح الأمة . ويبدأ هذا الفريق بطرح السؤال التالي : « ما الذي جعل اليهود يوافقون على عقد اتفاق مع الفلسطينيين » . خصوصاً ، وجعل قادتهم يخوضون مفاوضات مع بقية العرب عموماً رغم أن الاستراتيجيين الصهاينة ومفكريهم يعلمون علم اليقين أن سلاماً دائماً وثابتاً حتى لو كان على حساب العرب سوف يؤدي في نهاية المطاف إلى هدم الدعامتين اللتين تقوم عليهما دولتهم اليهودية ، كما أسلفنا(*) ؟ ، وأنهم يعملون جاهدين للإبقاء على حالة اللاحرب واللا سلم بين إسرائيل والدول العربية ، لأن هذه الحالة هي الحالة الوحيدة التي تساعدهم على تنفيذ مخططاتهم حسب المراحل الزمنية المرسومة لها ، والحفاظ على دعامتي الحدود العائمة ويهودية الدولة ؟!

الجواب عن هذا التساؤل يكمن في الحقائق التالية :

(*) انظر كتاب « نقاط على حروف في الصراع العربي ـ الصهيوني » للمؤلف ، نشر دار الأدهم ، دمشق ، 1986م .

1 ـ تعاظم الانتفاضة الفلسطينية على مر الزمن ، وعجز السلطات اليهودية عن قمعها وإخمادها ، أو حتى عن إضعافها ، إضافة إلى خشية العدو من انتشار عدواها مع الأيام إلى قلب الأرض الفلسطينية المحتلة منذ عام 1948م= 1377م.ر . وإلى البلدان العربية فتصبح نموذجاً يحتذىٰ في الوطن العربي خصوصاً ، وفي العالم كله عموماً وهذا جعل حكومة العدو تصرح أكثر من مرَّة أنها تنوي الانسحاب من قطاع غزة من طرف واحد .

وهنا ينبري قائل ، ومعه الحق فيما يقول ، متسائلاً : لماذا إذن نسارع نحن لإنقاذ العدو من هذه الورطة بعقد اتفاق معه مثل اتفاق أوسلو ؟ أليس من الأفضل ترك العدو ينسحب مرغماً ومهزوماً أمام الانتفاضة الشعبية فلا يعود قادراً على إبقاء المستعمرات الاستيطانية التي أُقيمت في قطاع غزة على حوالي 45٪ من مساحته ويسكنها خمسة آلاف يهودي ، في حين يكتظ باقي القطاع بكثافة بشرية لا مثيل لها في العالم ؟! الجواب عن هذا التساؤل يكمن في وجهة نظر المؤيدين الفلسطينين لاتفاق أوسلو . أما أنا فلا أؤيد ذلك الجواب ، ووددت لو صبرت القيادة الفلسطينية أكثر إلى أن يضطر العدو إلى الانسحاب من طرف واحد من غزة على الأقل ، الأمر الذي يعزز موقف القيادة الفلسطينية في حال التفاوض مع العدو .

2 ـ تعاظم المد الإسلامي في فلسطين المحتلة ، خصوصاً ، وفي الوطن العربي ، عموماً ، وبين الشباب على الأخص ، بسبب عجز التيارات الأخرى في تحقيق أية خطوة إيجابية للأمة العربية سواء على صعيد الصراع العربي ـ الصهيوني ، أو حتى على صعيد التنمية الاقتصادية ، والبنية الاجتماعية والحياة الثقافية في الأقطار العربية ، لقد ورد في تقارير جميع اللجان الحكومية والبرلمانية والشعبية الأجنبية التي زارت المنطقة خلال هذه الحقبة وقامت بدراسات حول الصراع العربي ـ الصهيوني ، وأجرت لقاءات مع مسؤولين في الدول العربية ، ومسؤولين برلمانيين ، وعناصر شعبية ، وأجروا حوارات ولقاءات مع المجلس الوطني الفلسطيني ، وقادة

فصائل مقاومة فلسطينية وزعماء أحزاب عربية ؛ لقد ورد في جميع تقاريرهم بلا استثناء ، على اختلاف مشاربهم ، ورغم أن هذه اللجان لم يتصل بعضها ببعض ولم ينسّقوا فيما بينهم ، لأنهم كانوا من دول مختلفة ويمثلون جهات متنوعة ، وكانوا يأتون في أوقات غير متزامنة فيما بينهم ، ورد تحذير يقول : « إذا بقيت المسألة الفلسطينية بدون حل ، وإذا ما عجزت إسرائيل عن التوصل إلى اتفاق مع الفلسطينيين في هذه المرحلة بالذات ، فإن التيار الإسلامي سوف يتعاظم إلى حد لا يعود بالإمكان السيطرة عليه » . فنصحت كل هذه اللجان بضرورة الإسراع في تحقيق السلام فيما يسمىٰ بـ« الشرق الأوسط » يضاف إلى هذه الحقيقة ، تخوف القيادة الصهيونية من صعود التيار الإسلامي إلى موقع القيادة في م.ت.ف أو من احتمال أن يحل هذا التيار محل المنظمة مثلما حلت منظمة التحرير الفلسطينية محل الهيئة العربية العليا التي كانت تقود النضال الفلسطيني في مرحلة سابقة بزعامة الحاج أمين الحسيني ، مفتي فلسطين ، والتي أخفقت في مهمتها . وعندها سوف يكون من الصعب جداً ، إن لم يكن من المستحيل ، التفاهم مع هؤلاء « المتطرفين أو الأصوليين » كما يحلو للعدو أن يُسمّيهم ، إذ إن هؤلاء ما زالوا ينادون بتحرير كامل التراب الفلسطيني من البحر إلى النهر ، وإقامة دولة فلسطينية إسلامية ، ولن يقبلوا بأقل من ذلك ، وإن تظاهروا بالمرونة مرحلياً ، كما أن نجاح هذا التيار الإسلامي بتسلم القيادة في منظمة التحرير الفلسطينية بدلاً من القيادة الحالية سوف يشجع التيار الإسلامي في الأقطار العربية الأخرى ، ويشجّعُ إيران على مضاعفة نشاطها في هذا الاتجاه ، الأمر الذي يشكل تهديداً خطيراً وحقيقياً للمصالح الغربية والصهيونية ، وللكيان اليهودي المتمثل بما يسمى بـ« إسرائيل » ذاته .

3 ـ تركيز سياسة الإدارة الأمريكية الجديدة بقيادة الرئيس كلينتون في منطقتنا على الأمور التالية .

آ ـ الاحتواء المزدوج للعراق وإيران كليهما ، بمعنى أن أمريكا لن

تمكن العراق ولا إيران من أن تصبح أياً منهما قوة فاعلة في المنطقة ، ولن تنزلق الولايات المتحدة فيما عَدَّته الإدارة الحالية خطأ ارتكبته الإدارة السابقة وهو تقوية إحدى الدولتين على حساب الدولة الأخرى في مرحلة معينة لتكون قادرة على مواجهة الطرف الآخر عند اللزوم ، ولا تقوية الطرفين ليكون كل منهما رادعاً للآخر ، ذلك لأن هذه السياسة أسفرت عن تمكين العراق وإيران كليهما من اختراق حاجز التكنولوجيا وتطوير أسلحة فعَّالة ، ذاتياً ، وزاد الطين بلَّة ، أن صواريخ عربية وصلت لأول مرَّة إلى قلب « إسرائيل » وسواحلها وأصابت أهدافها بدقة ، وكانت مؤثرة وفعَّالة برغم كل ما قيل عنها في أجهزة الإعلام العربية المعادية للعراق ، وقد نظرت إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية إلى ذلك الحدث على أنه إشارة واضحة تدل على أن العرب قادرين على إنزال هزيمة ساحقة بالكيان الصهيوني إذا ما سمحت لهم الظروف أو سنحت لهم الفرصة وعرفوا كيف يستغلونها ، أو في حال اختلال موازين القوى في العالم في غير صالح الغرب وأمريكا (وعرف العرب كيف يستثمرون ذلك الاختلال في موازين القوى) .

ب ـ الحيلولة دون قيام وحدة بين أي قطرين عربيين ، وخصوصاً سوريا والعراق أو بين أي قطرين أو أكثر من أقطار بلاد الشام ؛ أو بين مصر والسودان في وادي النيل ؛ أو بين أي قطرين أو أكثر من أقطار الشمال الإفريقي العربي ؛ إلا إذا كانت وحدات صورية شكلية لا تخرج عن نطاق الورق والإعلام ولفترة وجيزة تنفك بعدها لتكون تلك العملية جزءاً من عمليات إحباط فكرة الوحدة لدى الشعب العربي .

ج ـ الإسراع في إنهاء النزاع العربي الإسرائيلي شريطة عدم المساس بمصالح إسرائيل ومطالبها ، لأن ذلك يسهّل على الولايات المتحدة الأمريكية تحقيق البندين « آ وب » السابقين .

د ـ إن عقد صلح مع الفلسطينيين خاصة سوف يعطي العدو الصهيوني ذريعة إنهاء المشكلة التي تعد لب الصراع وجوهره في المنطقة ، وتفتح

الباب أمامه على مصراعيه لتوسيع دائرة الاعتراف به على نطاق عالمي وإسلامي وعربي . فجميع الدول التي كان متحفظة على إقامة علاقات دبلوماسية أو تجارية مع « إسرائيل » لسبب أو لآخر يتعلق بوضع الكيان الصهيوني العدائي لدول المنطقة ، وتاثير ذلك على علاقات تلك الدول بالدول العربية إن هي أقامت علاقات مع « إسرائيل » لا يعود لها ، بعد عقد معاهدة بين « إسرائيل » ، وفلسطين ، أي عذر في عدم إقامة علاقات كاملة مع « إسرائيل » . ومن المؤشرات المؤيدة لذلك ذهاب الوفد « الإسرائيلي » الذي وقع على اتفاق أوسلو في واشنطن مباشرة إلى الرباط عاصمة المملكة المغربية في طريق عودته من واشنطن ، وقبل ذهابه إلى الكيان الصهيوني ؛ وذلك لتقديم الشكر للنظام المغربي على الجهود التي بذلها من أجل التوصل إلى مثل هذه الاتفاقات ، ومن الأدلة أيضاً ، عودة العلاقات بين « إسرائيل » ودول إفريقية وغيرها من دول العالم بما في ذلك الصين ، والدول الإسلامية التي انفصلت حديثاً عن الاتحاد السوفياتي ، حتى الفاتيكان اعترف بالدولة اليهودية .

5 ـ إن عقد صلح مع العرب ، وهو آتٍ لا محالة من وجهة نظر العدو بما أن المفاوضات قد بدأت وقطعت شوطاً كبيراً وحققت إنجازات على المسارين الفلسطيني والأردني ، إضافة إلى معاهدة الصلح والسلام « المصرية ـ الإسرائيلية ؛ إن عقد مثل هذا الصلح سوف يحقق « لإسرائيل » ما يلي :

آ ـ اعتراف العرب كلهم بدولة « إسرائيل » .

ب ـ إلغاء المقاطعة العربية الاقتصادية لإسرائيل رسمياً وعلناً .

ج ـ إلغاء جميع القرارات التي اتخذت ضد الكيان الصهيوني في الجمعية العمومية للأمم المتحدة وفي مجلس الأمن الدولي وفي غيرهما من الهيئات الدولية والإقليمية .

د ـ تحوُّل « إسرائيل » من كيان غريب ودخيل على المنطقة إلى كيان

شقيق وأصيل فيها ، عن طريق الاستعاضة عن اسم « الوطن العربي » بمصطلح جديد هو « الشرق الأوسط » ، كما أسلفنا .

هـ ـ الحفاظ على تفوق « إسرائيل » عسكرياً واقتصادياً وتقنياً .

و ـ تحقيق التطبيع الثقافي الذي لا يعدو كونه بوابة واسعة للغزو الثقافي اليهودي والغربي ، دون اعتراض أو مقاومة .

ر ـ تحقيق التطبيع الاقتصادي الذي لا يعدو كونه ، أيضاً ، بوابة واسعة للغزو الاقتصادي الإسرائيلي ، واشتراك الكيان الصهيوني في كل موارد المنطقة ، والإسهام في تحويلها إلى دوائر ثلاث هي :

1 ـ دائرة العقل والتصنيع « إسرائيل » .

2 ـ دائرة الأيدي العاملة (الدول العربية المجاورة بما فيه الكيان الفلسطيني ، سواء كان حكماً إداريًا ذاتياً ، أو دولة مستقلة) .

3 ـ دائرة الاستهلاك (الدول العربية المجاورة مضافاً إليها الدول العربية الأخرى ودول إفريقية) .

وبذلك تكون « إسرائيل الكبرى » قد تحققت دونما حاجة إلى توسع جغرافي أو عسكري ، كما يضمن لها أطول عمر ممكن .

ثم يطرح فريق الاستراتيجيين العرب المؤمنين بالمعادلات السياسية سؤالاً آخر هو : « كيف نتعامل مع هذا الحدث (اتفاق أوسلو) ؟ » هل نتعامل معه بالطريقة ذاتها التي ألفها العرب منذ مطلع القرن العشرين ، وهي طريقة قوامها إصدار بيانات تنديد وشجب وإدانة ، أو رفع شعارات الإسقاط والسحق والقتل ، أو إصدار لاءات معينة ، أو الإعلان عن الوقوف ضد الحدث أو معه (طبعاً دون اتخاذ أية خطوة عملية في اتجاه تحقيق هذا الرفض أو القبول) ؟! فمنذ عام 1922م= 1351م . ر . ونحن نسلك هذا الأسلوب .

فقد تعاملنا مع الكتاب الأبيض لعام 1939م= 1358م . ر . وما صدر قبله من

مبادرات ومشاريع ، ومع قرار التقسيم ، وما تلاه من خطوات ومبادرات ، ومع كامب ديفيد بالطريقة ذاتها ، فماذا كانت المحصلة ؟! ضاعت فلسطين ، وتشرد شعبها ، وقامت دولة « إسرائيل » وتعززت قوتها ، ونُفِّذَ كامب ديفيد ، بل أكثر من ذلك ، أصبح أمنية ، وأصبح النظام الذي وقع على الاتفاقات الناجمة عن مفاوضات كامب ديفيد قدوة للعرب وعراباً للصلح مع إسرائيل ، وتم التوقيع على اتفاق أوسلو بين « إسرائيل » ومنظمة التحرير الفلسطينية وعقدت معاهدة صلح وسلام بين إسرائيل والمملكة الأردنية الهاشمية . . . إلى آخر القائمة الطويلة من النتائج المعاكسة لما كنا نرفعه من شعارات ونعلنه من مواقف . وهكذا نستخلص أن السؤال : « هل أنت مع . . . أو ضد . . . » لم يعد نافعاً ولا مجدياً ، ولم يعد شعار « يسقط ويعيش » ذا جدوى .

والخوف الآن هو الانزلاق في حرب أهلية فلسطينية ـ فلسطينية تحت شعار « إسقاط اتفاق أوسلو وسلطة الحكم الذاتي » المطروح من قبل المعارضين ، وشعار « الحفاظ على الأمن والاستقرار ، والالتزام بنصوص الاتفاق » المطروح من قبل المؤيدين وسلطة الحكم الذاتي ، وهذا ما تعمل إليه « إسرائيل » وتراهن عليه . ذلك إن حصل ، لا سمح الله ، نكون قد خسرنا كل شيء وربح العدو كل شيء .

وبعد هذا الاستعراض لمثل هذا الحدث التاريخي المصيري يقترح فريق الاستراتيجيين معادلة سياسية للتعامل مع الحدث وتحويله لصالح الفلسطينيين والأمة العربية .

الطرف الأول من المعادلة ، يقول :

« على جميع الفصائل متابعة الجهاد بكل أشكاله بما في ذلك الكفاح المسلح والمكثف ضد الوجود الصهيوني العسكري والاستيطاني في الضفة كلها والقطاع كله ، وكأنه لا يوجد اتفاق أوسلو إلى أن ينسحب العدو من كل شبر من أراضي الضفة والقطاع (في هذه المرحلة على الأقل) » .

أما الطرف الثاني من المعادلة ، فيقول :

« على جميع فصائل المقاومة والهيئات الفلسطينية التعاون على بناء أي جزء من فلسطين ينسحب منه العدو ، سواء كان ذلك الانسحاب نتيجة ضغط المقاومة أو نتيجة مفاوضات ، أو لأي سبب من الأسباب ، وتحويله إلى قاعدة غير قابلة للسقوط ثانية ، ومنطلقاً لتحقيق بقية الأهداف ، وكأن ذلك الجزء هو كل فلسطين » .

وفيما يتعلق بكيفية تطبيق هذه المعادلة وحلها حلاًّ صحيحاً ، فإن آلية ذلك تتمثل فيما يلي :

1 ـ تفهم قيادة م.ت.ف ، وسلطة الحكم الذاتي ، وقادة الفصائل المعارضة والمؤيدة ، وجميع أبناء الشعب الفلسطيني لهذه المعادلة تفهماً واعياً وعميقاً ، والالتزام بتطبيقها بحيث لا تتصدى شرطة الحكم الذاتي لعناصر الفصائل المعارضة إذا ما قامت بعمليات ضد الوجود العسكري والاستيطاني اليهودي في أية أرض فلسطينية ، وألا تحوّل نفسها إلى أداة قمع بيد « إسرائيل » ، أو بديلاً عنها ؛ وبحيث لا تتصدى فصائل المقاومة المعارضة في الوقت نفسه ، إلى شرطة الحكم الذاتي ، وتتجنب الصدام معها مهما كان الثمن . وباختصار على الجميع أن يفوّتوا الفرصة على « إسرائيل » وألا ينزلقوا في متاهة الحرب الأهلية ، حتى لو أخطأ أحد الفريقين وتمادى في خطئه ، فعلى الفريق الآخر أن يتحلى بالصبر وضبط النفس والالتزام بالمنهج العام والهدف الأساس .

2 ـ ممارسة الديمقراطية الكاملة في التعبير عن الرأي ، وفي المساهمة في بناء الأجزاء المحرّرة ، وفي متابعة الكفاح ضد العدو الصهيوني ، بما في ذلك تعزيز الانتفاضة ، وتطوير أساليبها وتصعيدها ، وفي أية استفتاءات أو انتخابات يمكن أن تجري ضمن إطار سلطة الحكم الذاتي أو حتى خارجها ، وفي أية ندوات أو حوارات تعقد بين هيئات الشعب وفصائله .

3 ـ القيام بحملة واسعة ومستمرة تشمل كل الشعب الفلسطيني للمطالبة بتنفيذ حق العودة لجميع اللاجئين الفلسطينيين الذين أخرجوا من ديارهم منذ عام 1948م= 1377م. ر . وما بعده .

4 ـ بناء حركة ، أو إنشاء فصيل ، أو إقامة منظمة ، أو تأسيس حزب ، أو تشكيل لجنة ، أو أي شكل من أشكال العمل المنظم مهمته القيام بالمهمة الآنفة الذكر على جميع الصعد ، الفلسطينية والعربية الإسلامية والعالمية ؛ وإثارة قضية احتلال العدو الصهيوني لأراضي الفلسطينيين واستثمارها طيلة هذا الزمن منذ عام 1948م= 1377م. ر حتى الآن وحرمان أصحابها من خيراتها ، إضافة إلى إثارة مشكلة المعاناة المريرة التي تعرض لها اللاجئون الفلسطينيون طيلة هذه المدة أيضاً ، مع التركيز والإصرار على تنفيذ حق العودة وعدم التنازل عنه ، وغير ذلك من الإشكالات التي يمكن خلقها في وجه العدو والحفاظ على قضية العودة حية في أذهان العالم إلى أن تتحقق العودة فعلاً وواقعاً .

ويمكن لهذا التشكيل أن يبدأ عمله بإعداد بطاقات تحمل العبارة التالية :

« نحن الموقعين أدناه نرفض أي حل للقضية الفلسطينية ، يصدر عن أية جهة في العالم ، لا يتضمن تنفيذ حق العودة لجميع اللاجئين الفلسطينين ، كل إلى أرضه وبيته ، في فلسطين ؛ ولا نُخَوّل أحداً في التفاوض على هذا الحق أو التنازل عنه » .

وتُذَيَّل البطاقة بجدول يحمل الترويسات التالية :

الاسم	البلد في فلسطين	رقم الهوية/ بطاقة العائلة	التوقيع	بصمة

ويطبع من هذه البطاقات ما لا يقل عن نصف مليون بطاقة توزع على

الفلسطينيين حيث يوجدون لملئها ؛ ثم تجمع هذه البطاقات التي تصبح بمنزلة استفتاء شعبي يشمل ما لا يقل عن مليوني نسمة من اللاجئين الفلسطينيين ، وترسل نسخة منها إلى جميع الهيئات الدولية والاقليمية بما في ذلك الجمعية العمومية للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي .

الفصل الثالث
كيف نواجه هذه المرحلة

أولاً : التشخيص :

يُعَدُّ تشخيص المرض أهم خطوة نحو الشفاء ، فبدون معرفة حقيقة المرض وطبيعته لايمكن وصف العلاج الصحيح ، كما أن المرء إذا لم يعترف بأنه يعاني من متاعب صحية فإنه لن يقبل مراجعة الطبيب وبالتالي سيرفض تناول العلاج ، وهذا ، بالطبع ، يؤدي إلى تفاقم المرض الذي سيفتك بصاحبه ، خصوصاً تلك الأمراض النفسية التي لا يبدو على الجسم لها أي أثر ، ولكن تظهر أحياناً في السلوك ، وربما لا يدرك المرء المصاب بأنه مريض ، وأحياناً لا يقتنع بأنه مريض ولو لفت نظره إلى ذلك ، فإذا لم يعترف مثل هذا بمرضه وبضرورة الطبيب المختص ، وتصميمه هو نفسه على الإسهام في علاج نفسه فإن حاله سوف تسوء وتودي به إلى الهلاك .

ونحن ، الأمةَ العربيّة ، ينبغي أن نشخص حالتنا ونعترف بما يعترينا من ضعف وأمراض ، ونعرف ما لدى العدو من عناصر القوة وأسباب نجاحه في تحقيق مخططاته ، إضافة إلى ضرورة معرفة مكامن الضعف عنده ، أيضاً .

إن عدونا الصهيوني يركز جل اهتمامه (إضافة إلى القوة العسكرية) على الهجرة اليهودية إلى فلسطين من أجل ترسيخ « يهودية الدولة » . وتعد الهجرة ركناً مهماً من أركان العقيدة الصهيونية التي تقوم على القواعد التالية :

1 ـ كل يهود العالم يشكلون شعباً واحداً مهما اختلفت جنسياتهم

وانتماءاتهم السياسية ، ولغتهم ، وهم بالتالي رعايا للدولة التي تقيمها الحركة الصهيونية على الأرض التي تختارها . وهذا يقتضي مجيء كل يهود العالم إلى تلك الدولة ، على موجات ، وكلما اقتضت الضرورة إلى ذلك .

2 ـ اعتماد الفكر التوراتي واللغة العبرية عنصرين جوهريين في تكوين الشخصية اليهودية (الصهيونية) .

3 ـ وانطلاقاً من هذه العقيدة التوراتية، وسعياً لاستخدام العنصر الديني لربط كل يهود العالم بالحركة الصهيونية وبالدولة التي ستنشئها ، قررت قيادة هذه الحركة أن تكون فلسطين ، وليس سواها ، هي قاعدة الدولة اليهودية ومنطلق توسعها .

وهكذا نرى الكيان الصهيوني يجلب بين الحين والحين أعداداً كبيرة من يهود العالم ، من إفريقية والاتحاد السوفياتي وأوربا وغيرها إلى فلسطين بهدف تغيير البنية السكانية لصالح اليهود ، وقد عملت الصهيونية العالمية جاهدة لتنشيط الهجرة اليهودية إلى فلسطين منذ أواخر العهد العثماني ولكنهم لم يفلحوا كثيراً حينذاك بسبب تشدد السلطان عبد الحميد ضد هذا التوجه اليهودي ؛ استؤنف نشاط الهجرة اليهودية بشكل مكثف أثناء فترة الانتداب البريطاني على فلسطين الذي شجع الهجرة إلى حد ما تنفيذاً لوعد بلفور ولنصوص صك الانتداب نفسه ؛ وتعاظم مد الهجرة بالطبع في ظل الدولة اليهودية (إسرائيل) . ولكن العدو أدرك أنه مهما كثف عمليات استجلاب اليهود إلى فلسطين فإنه لن يستطيع قلب الميزان السكاني لصالح اليهود ، إضافة إلى أن فلسطين لا تستطيع استيعاب هؤلاء المستجلبين إذ إن الأرض معمورة بأصحابها ، لذلك عمدت الحركة الصهيونية إلى طرد الفلسطينيين من أراضيهم وبيوتهم بالإرهاب والقتل والتشريد . وسجل اليهود حافل بأعمال الإرهاب والترويع غير الإنسانية ، وما زال هذا السجل مفتوحاً حتى يومنا هذا ، وسوف يستمر ما دام لليهود سلطان في هذه الأرض ، ومع ذلك يغمض العالم عيونه

ويصم آذانه عن مثل هذه الأعمال الوحشية .

لم يكن الشعب العربي الفلسطيني غافلاً عن هذه الحقائق إذ تصدى لها منذ اللحظة الأولى ، ولكن يبدو أن المؤامرة الدولية ضده أكبر من قدرته على التصدي لها وإحباطها ، أو لم يكن قادة الشعب الفلسطيني ولا قادة الشعب العربي على درجة من الوعي والحرية والقدرة على صياغة المعادلات السياسية بحيث يقودون شعوبهم إلى النصر . إذ لم تفعل الأنظمة العربية والإسلامية لإحباط الهجرة اليهودية أو إحباط المشروع الصهيوني كله سوى الاحتجاجات وعقد المؤتمرات ورفع الشعارات ومذكرات التنديد والاستنكار .

لم يسفر هذا النهج إلا عن استجلاب المزيد من يهود العالم إلى فلسطين ، ومزيد من المشردين العرب الذين أصبحوا يحملون أسماء عديدة مفادها كلها واحد : لاجئون ، عائدون (تَيَمُّناً بأمل العودة ، أو تخديراً لمشاعر اللاجئين) ، نازحون ، وافدون ، مهجرون ، مبعدون . . . إلى آخر ما هنالك من مسميات تبتكر لتشمل كل دفعة من المطرودين من بلادهم على يد اليهود ودولتهم العنصرية ؛ وأخشى أن « الحبل ما زال على الجرَّار » كما يقول المثل العامي . ونغطي فشلنا وهزائمنا بتوجيه الاتهامات إلى القوى الخارجية والظروف الدولية ، بالأمس اتهمنا بريطانيا ، ومن بعدها اتهمنا الاتحاد السوفياتي ، واليوم نلقي اللوم على الولايات المتحدة الأمريكية ، ولا أدري على من سنلقي ذرائع فشلنا غداً . لا يمكن أن ننكر أن هذه القوى تعمل ضدنا للحفاظ على مصالحها ، ولا ننكر ما لها من إسهامات فعَّالة في تحقيق أهداف الصهيونية العالمية ، ولا نستطيع أن نلوم أعداءنا على ما يفعلون ويخططون ، فهم يخدمون أنفسهم ومصالحهم ، ولكن علينا أن نلوم أنفسنا نحن الذين ساعدناهم على تنفيذ مخططاتهم فينا وتحقيق أهدافهم ضدنا ، نحن الذين هدمنا بيوتنا بأيدينا ، وفوّتنا كل الفرص المتاحة لإحباط مخططات الأعداء بل كان تعاملنا مع الأحداث بطريقة تخدم أهداف الأعداء ، كما أسلفنا ، وذلك

بسبب تفرقنا وتناحرنا وعدم التزامنا بمبادئنا القومية والإسلامية ، واقتتالنا فيما بيننا ، ذلك الاقتتال والتنازع الذي لو دققنا في أسبابه لما وجدنا سبباً يستحق الذكر ، وبسبب خوفنا من الأعداء وتقاعسنا عن الجهاد . ويمكننا تلخيص أسباب علتنا التي أوصلتنا إلى ما وصلنا إليه من مهانة وضعف على النحو الآتي :

1 ـ أن أمتنا مصابة بانفصام الشخصية ، بمعنى أن مُكوِّني هويتنا الحضارية (الإسلام والعروبية : اللغة العربية وما تستلزمه من حضارة وقيم) قد انفصل بعضهما عن الآخر ، فأصبح لدينا شعب يقال له « عربي » ، ولدينا فكر يقال له « إسلامي » ولكن ليست هناك هوية حضارية كما كانت عندما تفاعل الإسلام والعروبة في فجر نشوء هذه الشخصية الحضارية ، فمثل الشخصية العربية الآن كمثل الماء الذي تحلل إلى عنصرية : الأكسجين والهيدروجين ، فلم يعد ماءً ، يوجد أكسجين ويوجد هيدروجين ، ولكن لا يوجد ماء ، وهكذا نحن اليوم . يوجد إسلام وتوجد عروبة ولكن لا توجد شخصية حضارية عربية . وبالتالي تاهت بنا السبل ، فلم نعد نعرف من نحن (وأعني بكلمة نحن « الأنظمة السياسية والاجتماعية والفكرية التي نخضع لها ») . فهل نحن مسلمون ؟! هل نحن عرب ؟! هل نحن رأسماليون ؟! هل نحن شيوعيون أو اشتراكيون ؟! هل نحن . . وهل نحن . . . ؟ لا جواب . ونكتشف أننا لا هذه ولا تلك ، ومن لا يعرف نفسه لا يستطيع التعامل مع غيره ولا مع محيطه ، ولا يستطيع تحديد أهدافه ولا الوسائل التي توصله إلى تلك الأهداف . إنما يهيم على وجهه لا يدري إلى أين يذهب ولا أين موقعه ، وتصبح كل تصرفاته ردود فعل مجردة لا أكثر .

2 ـ أن القيادة العربية ، سواء على صعيد الجامعة العربية ، أو على صعيد أنظمة الحكم ، أو على صعيد الأحزاب والمنظمات وفصائل المقاومة ، لم تصل إلى مستوى القضية العربية ولا إلى مستوى تطلعات شعوبها ومواقف هذه الشعوب . وكذلك القيادة الإسلامية ، سواء على صعيد منظمة المؤتمر

الإسلامي أو على أي صعيد آخر ، لم تصل هي الأخرى إلى مستوى العقيدة الإسلامية والروح الجهادية ولا إلى مستوى تطلعات شعوبها ومواقفها ، ولا إلى مستوى الدعوة القرآنية إلى التوحيد العقائدي ووحدة المسلمين .

لننظر إلى أوربا ذات القوميات المختلفة والمذاهب الدينية المتنافرة واللغات المتنوعة ، التي لم تكد تهدأ الحروب بين دولها وشعوبها ، وآخرها الحربان العالميتان الأولى،والثانية التي لم يمض عليها سوى خمسين عاماً فقط ، إضافة إلى الحروب الأهلية والطائفية التي اجتاحتها عدة مرات ، نراها اليوم تتجه بجدية وبخطى حثيثة نحو وحدة اقتصادية ومالية وسياسية .

وكذلك اليهود الذين لا يجمع بينهم لسان ولا وطن ولا يربط بينهم رابط سوى أنهم ينتمون للديانة اليهودية . جنسياتهم مختلفة ، لغاتهم متنوعة (حتى إن بعضهم لا يعرف العبرية ، إنما تعلمها تنفيذاً لتوجيهات الحركة الصهيونية في عملية إعادة بناء الشخصية اليهودية القائمة على الفكر التوراتي واللغة العبرية) ، انتماءاتهم السياسية متنافرة ، حتى طوائفهم ضمن الديانة اليهودية متباينة ؛ نراهم جميعاً ملتزمين بتوجيهات القيادة الصهيونية ، وبالعقيدة التوراتية ، ومنضبطين بالتنظيم الصهيوني العالمي بدقة ، وطاعة عمياء ، ها هم يتوافدون من كل حدب وصوب إلى حيث تأمرهم قيادتهم (إلى فلسطين) ليشكلوا شعباً واحداً ودولة يهودية قوية .

أما نحن العرب ، الأمة الواحدة ، والقومية الواحدة ، والدين الواحد ، واللسان الواحد ، والمصلحة الواحدة ، والمصير الواحد ، نجد أنفسنا نسير حثيثاً نحو مزيد من التمزق والتفتت والضعف حتى لقد استهان بنا عدونا واستهتر بنا أيما استهتار .

هل أجدت بياناتنا وقراراتنا واحتجاجاتنا على الهجرة اليهودية إلى فلسطين نفعاً ؟! هل أسفرت استجداءاتنا لدول العالم والأمم المتحدة لوقف هذه الهجرة ، أو لوقف الاستيطان ، أو لوقف مُصادرة الأراضي الفلسطينية عن أية

نتيجة إيجابية ؟! هل كان وقوفنا مع ما يسمى بالشرعية الدولية ومبدأ عدم جواز ضم أراضي الغير بالقوة ذا جدوى ؟ (ومعذرة إذ أقول ما يسمى بالشرعية الدولية لأنه لا توجد شرعية دولية بل شرعية أمريكية ـ صهيونية ، كما بينا سابقاً) .

والأغرب من ذلك أن بعض المسؤولين العرب ردوا على موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين (سواء أولئك الذي جُلبوا من أثيوبيا أو من السودان أو من الاتحاد السوفياتي ، سابقاً) بقولهم إنهم ليسوا ضد هجرة اليهود إلى « إسرائيل » متذرعين بالإنسانية ومتلبسين لبوس التحضر ، لأنهم (المسؤولين العرب) ، كما قالوا ، مع حق الإنسان في أن يقيم حيث يشاء ، ولكن اعتراضهم (الذي لم يجد نفعاً) كان على توطين هؤلاء في الأراضي المحتلة (ويقصدون في الضفة والقطاع ، ويذكرون على استحياء الجولان السورية ، وجنوب لبنان) . عجباً من هؤلاء المسؤولين ، فهل لو استوطن المجلوبون اليهود في أراضي الذين طردوا من أهل فلسطين في الجليل والمثلث والنقب ، مثلاً ، فإن هؤلاء المسؤولين العرب لا يعترضون على ذلك ؟! ألا يعني هذا تنازلاً ضمنياً عن حق الفلسطينين في العودة إلى أراضيهم وبيوتهم ؟! ثم من أحق بالعودة إلى فلسطين وبالوجود فيها ، أصحاب الأرض وأهل الوطن الذين ولدوا فيها وما زالوا أحياء أو أبناؤهم الذين ما زال تراب أرضهم عالقاً في ثيابهم وعلى أبدانهم ، والذين ما زالوا يناضلون ويجاهدون من أجل استرجاع أرضهم والعودة إليها ، أم هؤلاء اليهود الغرباء الذين لا علاقة لهم بفلسطين من قريب أو بعيد ، منذ أن سُجّلَ التاريخ البشري والجغرافي والسياسي والاقتصادي ؟! من أحق بفلسطين أيها المسؤولون العرب ، ويا قادة العالم ، ومن أحق بالعطف الإنساني ، وبصحوة الضمير المتحضر ، هؤلاء اليهود ، أم أصحاب الأرض الذين ما زالوا يحتفظون بوثائق التسجيل العقاري لأرضهم وبيوتهم ؟!

الهجرة اليهودية لن يوقفها خطاب ولا بيان ولا قرار ، ولا تزلف ولا تمسُّح بالحضارة والإنسانية ، الكيان الصهيوني لا يردعه بلاغ ولا يهزمه نداء . المطامع اليهودية العالمية لا يخفف من غلوائها تنازل أو مغازلة ، لقد أفحم الرئيس الأمريكي بوش العرب عندما قال بكل صراحة ووضوح تعليقاً على نجاح « إسرائيل » بجلب يهود « الفلاشا » الأحباش ، ورداً على احتجاجات العرب : « إنني فخور بنجاح عملية شلومو (وكلمة « شلومو » تعني سليمان وهو الاسم الذي أطلق على عملية نقل أربعة عشر ألفاً من يهود الفلاشا في أقل من ثمان وأربعين ساعة إلى فلسطين) ، وأعتز بالدور الذي لعبته بلادي والولايات المتحدة الأمريكية ، في إنجاح هذه العملية » ثم أردف قائلاً : « إن الولايات المتحدة الأمريكية مستعدة للمساهمة في عمليات مماثلة من مختلف أنحاء العالم » ، إضافة إلى ما دفعته أمريكا إلى الكيان الصهيوني لتمكينه من توطين هؤلاء اليهود المجلوبين من جميع أنحاء العالم ، وتقدر الدفعة الأولى من هذه المعونة بحوالي خمسمئة مليون (نصف مليار) دولار أمريكي .

إن الرد العملي ، حالياً ، على الهجرة اليهودية هو التشدد في طلب تنفيذ حق العودة لجميع اللاجئين الفلسطينيين وعدم التنازل عن هذا الحق ولو أدى ذلك إلى توقف ما يسمى بعملية السلام . فحقهم هذا إنساني وطبيعي ومعزز بقرارات من الجمعية العمومية للأمم المتحدة ومن مجلس الأمن الدولي .

إن نجاح العرب في إعادة اللاجئين الفلسطينيين إلى فلسطين يعد إحباطاً حقيقياً لاستراتيجية اليهود القائمة على إفراغ الأرض من أصحابها العرب (مسلمين ومسيحيين) لشغلها باليهود المجلوبين من جميع أنحاء العالم ، إنهم مدركون تماماً أن لا استقرار لهم في الأرض ولا ديمومة لاحتلالهم لها إذا بقي أصحابها فيها . وقد نبهنا القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في أكثر من موضع . فمثلاً جاء في سورة المائدة في الآيتين (22 ، 24) ما يلي :

﴿ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ،

فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾ [المائدة /22/] .

﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ [المائدة /24/] .

الكلام هنا على لسان قوم موسى الذين أُطلق عليهم اسم « يهود » ، والضمير « ها » يعود إلى الأرض التي أراد موسى وقومه احتلالها ، والقوم الجبارون هم أصحاب تلك الأرض ، والآيتان واضحتا الدلالة تماماً ؛ إذ تشيران إلى حقيقتين ناصعتين هما : 1 ـ أن اليهود أجبن من أن يواجهوا عدوّهم ، حتى لو كانوا متفوقين في السلاح وكان يقودهم نبي . 2 ـ أنهم لا يستطيعون البقاء في أرض يحتلونها ما دام أصحابها فيها ؛ إذن لا بد من إفراغ الأرض من أهلها أولا وتشريدهم بغض النظر عن الوسيلة التي يستخدمونها ، مهما كانت غير إنسانية أو غير مشروعة ، ومخالفة لجميع الأعراف البشرية والقوانين الدولية .

ومع ذلك لم يتنبه المسلمون إلى هذه الحقيقة ، فوقعوا في منزلقات الدعاية الصهيونية والإعلام المشبوه ، والخوف من الإرهاب ، الأمر الذي دَبَّ الرعب في قلوب الناس فهربوا حذر الموت وحذر افتضاح الأعراض . علماً أن الله سبحانه وتعالى قد حَذَّر أيضاً من الوقوع في هذا الفخ ، فخ الخوف من الموت ، إذ قال في كتابه العزيز :

﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ، ثم تُردون إلى عَالِم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ [الجمعة / 8/] .

إن الموت خارج الوطن كموت شجرة اقتلعت من جذورها وأُلقيت في العراء فتجف وتصبح حطباً للوقود ، أما الموت في أرض الوطن كسبات شجرة في فصل الخريف وهي ما زالت ضاربة جذورها في الأرض ، لا تلبث أن تورق وتزهر وتثمر لتملأ الأجواء بعبير الحياة والعطاء .

3 ـ إن أمتنا العربية والإسلامية (شعبا وقيادة) مصابة بداء الخوف من أمريكا ومن القوى الخارجية ، ومن اليهود ، وغفلت عن خوف الله الذي هو بحد ذاته تحرير من خوف كل مافي البسيطة والكون كله . وإني لأتساءل مستغرباً : لماذا كل هذا الخوف من القوى الأجنبية ؟! لماذا لا نتصدى لأمريكا ونوقفها عند حدها فنحرر أنفسنا والعالم من صلفها وغطرستها ، أنا لا أقول ينبغي أن نشن حرباً على أمريكا أو على سواها ، ولكني أقول ينبغي أن ندافع عن أنفسنا من فرض سيطرتها علينا وابتزازها لنا واستغلالها لثرواتنا ، وإن حاولت فرض ذلك علينا بقوة السلاح فلنقاتلها بكل شجاعة وإصرار وصبر ولو استشهد نصف عدد أمتنا فإن النصف الثاني سيعيش بحرية وبعزة ، وسوف يتكاثر فيعوض كل خسارة بشرية ومادية ؛ وذلك أفضل من أن نعيش كالأغنام تسمننا أمريكا لتذبحنا على موائدها ، بل تذبحنا دون أن تسمننا ، إن هزيمة أمريكا ، أو فرنسا أو الاتحاد السوفياتي (يوم كان قوة عظمى) ، أو غيرهم من القوى الأجنبية ليست بالأمر المستحيل ، ألم تهزم الولايات المتحدة الأمريكية في فيتنام ؟! ألم تهزم فرنسا في ديان بيان فو (في فيتنام أيضاً) ؟! ألم نقل نحن العرب أننا هزمنا بريطانياوفرنسا ومعهما إسرائيل في قناة السويس ؟! وهزمنا أمريكا وفرنسا وبريطانيا في لبنان؟! ألم يهزم الاتحاد السوفياتي في أفغانستان؟! إذن مقولة الدولة العظمى والجيش الذي لا يقهر ، إنما هي خرافة تخيف الجبناء والمتقاعسين عن الجهاد . يخيفوننا في أمور ينبغي أن تكون في واقع الأمر مصدر خوف لهم وليس لنا . فعلى سبيل المثال ، عندما أخافونا (أثناء أزمة الخليج) بأنه إذا ما نشبت حرب في الخليج فإنها سوف تكون مدمرة . فلو أمعنا النظر في هذا التهديد والتخويف لوجدنا أنَّ الحرب ستكون مدمرة لآبار النفط ، وبالتالي فهي مدمرة للغرب ولصناعة الغرب واقتصاده ، أي أنها مدمرة لقوته وجبروته وآلته الحربية ، إضافة إلى الخسائر البشرية التي سيمنون بها إذا نشبت حرب طويلة الأمد ، كان العرب والمسلمون فيها متوحدين في مواجهة

هذاالعدو المشترك فأغلقوا عليه ، كما ذكرت في فقرة سابقة ، قناة السويس وباب المندب وحصروا قواته في مصيدة قاتلة ما كان لهم أن يخرجوا منها إلا أمواتاً أو مستسلمين .

أما نحن العرب فماذا نخسر ؟! هل نخسر النفط إلى حين ؟! لنعد إلى « سراج الغولية(*) » الذي يوقد بزيت الزيتون وبفتيل عادي ، لنعد إلى الحطب نطبخ عليه ونتدفأ بناره ، وإلى الأعشاب نتغذى بها ، وإلى ما تنتجه أرضنا ومواشينا من طعام ولباس ومسكن وركوب ، ولن تطول تلك العودة ، لأن النصر يعوض الخسائر وأكثر ، فلو استطعنا وضع معادلة كتلك التي ذكرتها في فقرة سابقة ، فإن النتيجة ستكون خوف الغرب على مصالحه ومستقبله ، الأمر الذي سيجبره على التراجع أمامنا ، بل على استرضائنا ، وعندئذ نتمتع بخيراتنا التي يحرمنا منها الغرب ، وفي الوقت نفسه لن نحرم أحداً من البشر من الانتفاع بهذه الخيرات ضمن حدود العدل والعدالة الاجتماعية والأخوة الإنسانية ، إن أرضنا مغتصبة ، ونفطنا مغتصب ، إنساننا مضطهد ، فعلى ماذا نحن خائفون ؟! لقد حثنا الله سبحانه وتعالى على قتال هؤلاء المعتدين وعدم الخوف منهم بقوله في كتابه الكريم :

﴿ ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرّة ، أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ [التوبة / 13/] .

كما حذرنا الله عزَّ وجل ، من سيطرة الخوف على نفوسنا ومن تسلل اليأس وعدم الثقة بالنفس إلى قلوبنا ، إذ قال في كتابه العزيز :

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم

(*) سراج الغولية جذر نبات أشبه بمصباح علاء الدين ، يُجوَّف ، ويُملأ زيتاً ، ويوضع فيه فتيل ، ويشعل ليضيء المكان .

يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران : 173ـ175/] .

﴿ ولا تهنوا في ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليماً حكيما ﴾ [النساء /104/] .

﴿ إن يمسسكم قرح فَقَدْ مَسَّ القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ [آل عمران : 140/ ـ 142/] .

﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم ، هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوّمين ﴾ [آل عمران : / 125/] .

إضافة إلى كثير من الآيات الكريمة التي تحذر المؤمنين من الخوف من الدمار أو الخسائر التي يخوّفنا بها أعداؤنا ، ويطمئننا رب العالمين بأنه سوف يعوض على المؤمنين كل شيء أضعافاً مضاعفة ، فيقول ، جل جلاله ، في كتابه الكريم :

﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كُتِبَ لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ [التوبة / 121/] .

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون ﴾ [الأنفال / 60/] .

فمم نخاف بعد هذا ، إن كنا مؤمنين ؟! أم نحن من أولياء الشيطان حتى

نخاف ؟! الله مع الذي آمنوا وصبروا ، ومع الذين يخشونه ولا يخشون الناس ؛ إن تنصروا الله ينصركم ، إنه القوي العزيز .

وقبل اختتام هذه الفقرة لا بد لي من التنويه بأن الهيمنة الأمريكية لن تدوم إلى الأبد ، إنما يطول عمرها (وعمر إسرائيل معها) أو يقصر بقدر ما نعي أنفسنا ونسلك سبيل الله ونتبع هديه وننزع الخوف من نفوسناونعتصم بحبل الله ونسير في طريق الجهاد . فالشخصية الأمريكية مصابة بأمراض مزمنة سوف تقضي عليها في أول فرصة تتاح للعالم أن يغير موازين القوى فيه ، من هذه الأمراض أذكر ، على سبيل المثال لا الحصر ، ما يلي :

آ ـ أحادية الاتجاه ، بمعنى أن الشخصية الأمريكية ترسل ولا تستقبل ، تفرض خططها وثقافتها وبرامجها ومفاهيمها وغير ذلك علىٰ الآخرين ، وترفض تقبل أي شيء منهم أوالتفاعل معهم ، كما تفعل الشخصية العربية وتدعو إليه .

ب ـ التمييز العنصري المتأصل في الذهنية والنفسية الأمريكية ، قال لنكولن حوالي عام 1858م= 1287 م . ر : « إذا كنتُ لا أريد لامرأة سوداء أن تكون عبدة ، فهذا لا يعني أني أريدها زوجاً لي . إني سأقف حتى النهاية إلى جانب قانون حظر التزاوج بين البيض والسود ولن أكون من دعاة المساواة الاجتماعية والسياسية بين العرقين ، ولا من دعاة منح السود حق التصويت أو عضوية هيئات المحلفين وتأهيلهم بما يتيح لهم إمكانية شغل الوظائف التي يشغلها البيض » .

وما جرى في لوس أنجلوس حديثاً من تمرد السود احتجاجاً على التمييز العنصري دليل علىٰ استمرار هذه الروح حتى يومنا هذا .

ج ـ التعصب الثقافي ورفض التعددية الثقافية الكونية . لذلك رفضت الشيوعية وحاربتها ، وترفض الإسلام وتحاربه . وقد أعلن أركان الحكومة الأمريكية

أكثر من مَرَّة أن القرن القادم لا بد أن يشهد سقوط الإسلام كما شهد القرن العشرين سقوط الشيوعية .

د ـ العجز عن تفهم حاجات الأمم الأخرى الاقتصادية والتقنية والحيوية ، الأمر الذي سيجعلها عرضة للتصادم مع القوى الاقتصادية الأخرى في العالم : الحالية ، أو التي يمكن أن تظهر في المستقبل . وعلاقتها باليابان مثلاً ، دليل على ذلك فإن لم تكن اليابان قادرة الآن على أن تضع حداً لتدخلات الولايات المتحدة الأمريكية ، فإنها لن تظل كذلك إلى ما لا نهاية .

هـ ـ الغطرسة وشهوة السيطرة والهيمنة ، الأمر الذي جعل الأمريكان يتصورون أنفسهم أنهم شرطة العالم ، وقضاة الكون .

و ـ عجز قادة الأمة العربية والإسلامية ، وقادة الأحزاب والمنظمات عن وضع معادلات سياسية لكل حدث في الساحة الدولية أو القومية أو الإقليمية أو المحلية ؛ وقد أشرت إلى ذلك في فقرة سابقة .

ز ـ الافتقار إلى الحريات الأساسية التي لا يمكن لابن آدم أن يوصف بأنه إنسان بدونها(*) وسيادة الأنظمة الدكتاتورية في الوطن العربي والإسلامي سواء كانت دكتاتورية فردية أو حزبية أو عسكرية أو طائفية أو فئوية .

الدكتاتورية دائماً تؤدي إلى تخلف الإنسان وقتل قدرته الإبداعية ، لأنها تحوله إلى عبد ، والعبد لا يعطي ، وبالتالي يضعف الوطن . حتى تلك الدكتاتورية التي يحلو للبعض أن يصفها بأنها « متنورة » أو مخلصة ووطنية فإن غلطة واحدة من مثل هذه الأنظمة تهدم كل ما بنته وتلقي بالبلاد كلها إلى هاوية التردي والتخلف ، والتاريخ مليء بالأمثلة على ذلك ولا حاجة لذكرها هنا . يكفي أن ننظر إلى أنفسنا وما آلت إليه حالنا لندرك أهمية تمتع الإنسان بما

(*) انظر كتاب « القرآن حرر الإنسان » للمؤلف ، نشر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية .

وهبه الله من حرية وتكريم ، ولندرك خطورة استلابه لهذه الحرية وخطر امتهان كرامته .

والخلاصة ، يمكن القول إن العدو الصهيوني ليس متفوقاً علينا بالسلاح ولا بالرقعة الجغرافية ولا بالعمق الاستراتيجي ، ولا بالموارد الطبيعية ، ولا بالطاقات البشرية ، فكل ذلك نحن متفوقون عليه فيه ؛ وهذه كلها ميزات موجودة فينا ، رغم أننا لا نستخدمها ، بل تركنا أعداءنا يستخدمونها لصالحهم ويحرموننا من ثمراتها . ولكن العدو متفوق علينا في أمور ثلاثة هي :

1 ـ نجح في بناء شخصية حضارية (هي الشخصية اليهودية) من تفاعل الفكر التوراتي مع اللغة العبرية منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وعلى الرغم من أن هذه الشخصية عنصرية شوفينية وغير إنسانية ، إلا أنها متماسكة وغير مفككة . في مقابل الشخصية العربية (الإنسانية العالمية) ولكنها مفككة ، وأية شخصية متماسكة وسليمة تهزم أية شخصية أخرى مفككة وعليلة .

2 ـ كل يهود العالم متحدون ، وملتزمون بتوراتهم ، ومنضبطون بتنظيماتهم ، ومطيعون لقياداتهم الصهيونية العالمية ، وكلهم يعملون لهدف واحد مهما اختلفت في الظاهر انتماءاتهم ومواردهم ، في مقابل التفرق العربي والإسلامي ، وعدم الالتزام بالقرآن وبتعاليم الله ، كما أشرنا أعلاه في هذه الفقرة وما سبقها .

وبعبارة موجزة ، يستمد عدونا قوته من ضعفنا ، ويزيد استهتاره بنا كلما تعاظمت النزاعات فيما بيننا ، حتى بلغ الأمر بعالم اللسانيات المشهور الذي تدرس نظرياته اللسانية في جامعاتنا ، وهو اليهودي الأمريكي « تشومسكي » أن يقول أثناء حرب الخليج الثانية دون خجل : « علىالعرب أن يدركوا أننا نحن الأسياد ، وما عليهم إلا أن يطأطئوا ليمسحوا أحذيتنا » . وقال مسؤول يهودي آخر معلناً عن نوايا الكيان الصهيوني التوسعية : « على العرب أن

يعلموا أن ليس لدى إسرائيل أرض تقايض بها على السلام ، وعليهم أن يقايضوا سلاماً بسلام فقط » .

3 ـ يتمتع رعايا « إسرائيل اليهود بالديمقراطية فيما بينهم ، وبحرية التعبير والرأي ، والتعددية الحزبية والسياسية ، في حين أن معظم الأنظمة العربية تمارس على شعوبها القمع والكبت وتحرمهم حتى من التفكير » .

ثانياً : العلاج

تبين لنا في الفقرة السابقة أن قلاعنا التي كنا نتحصن بها قد هدمت ، أو تصدعت وآلت للسقوط ، ومن أبرز هذه القلاع وأهمها ثلاث هي :

آ ـ قلعة الوحدة .

ب ـ قلعة الفكر .

ج ـ وقلعة التربية .

إلا أن الشعوب الحية لا تستكين ، بل تتابع القتال دفاعاً عن حقوقها وكرامتها وهويتها . لا يعني القتال هنا ، الحرب العسكرية بالضرورة ، فالحرب مظهر من مظاهر القتال الذي أطلق عليه القرآن الكريم الجهاد ، القتال بمعنى الحروب كره على المؤمنين ، ولكنه ضرورة لردع أعداء الله وأعداء المؤمنين الذين لا هم لهم إلا التخريب والهدم . والجهاد باب من أبواب الجنة وهو فرض على المؤمنين لأنه يشمل العمل الجاد في كل مناحي الحياة لإعمار الأرض وردع الهدامين عن عرقلة عملية البناء والإعمار .

والشعوب الحية (وأقصد بكلمة « حية » هنا الواعية والمدركة لذاتها والمتمسكة بهويتها ، مهما كانت عقيدتها الدينية أو أيديولوجيتها الدنيوية) إذا هزمت في معركة أو في حرب أو في مرحلة من مراحل التاريخ فإنها تصمم على صنع نصر من قلب الهزيمة ، وتصمم على تحرير أرضها بالدم

وبأية وسيلة متاحة ، أو يبتكرها الشعب وقادته في حمأة المعاناة والألم . والأمثلة على ذلك كثيرة ، ولنأخذ من التاريخ الحديث ، ومن أحداث القرن العشرين نفسه أمثلة على ذلك . ففرنسا عندما هزمتها ألمانيا في الحرب العالمية الثانية ، وسقطت باريس العاصمة في أسبوع لم يستسلم الشعب الفرنسي ، رغم أن بعض العناصر تعاونت مع الاحتلال وشكلت حكومة في ظله ، وهم الفيشيون (لم يكونوا خونة ولكن كانت لهم وجهة نظر في كيفية التعامل مع الاحتلال ، لم يقبلها فريق آخر هم الديغوليون) ، فتابع الديغوليون الكفاح المسلح ضد ألمانيا حتى هزمت ألمانيا واستعادت فرنسا حريتها : وكذلك الأمر مع الروس الذين اكتسح هتلر بلادهم وهدد موسكو ، ومع ذلك لم يستسلم الشعب الروسي ، بل أخذ يطور أسلحته تحت قنابل الألمان وفي ظل غاراتهم الجوية إلى أن كان الروس من أسباب هزيمة ألمانيا .

ثم لنأخذ مثلين آخرين من أهم الأمثلة وأوضحها في التاريخ الحديث والمعاصر ، هما ألمانيا واليابان اللتان كانتا شريكتين في الحرب العالمية الثانية تحت اسم « دول المحور » وكانت معهما إيطاليا .

ألمانيا قُسّمَت إلى أربع مناطق احتلال ، خضع ثلاث منها إلى الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبريطانيا ، وعرفت بألمانيا الغربية ، أما المنطقة الرابعة فقد خضعت إلى الاتحاد السوفياتي ، وعرفت بألمانيا الشرقية ، فُرض على الغربية النظام الرأسمالي والأيديولوجية الغربية ؛ وفرض على ألمانيا الشرقية النظام الشيوعي والأيديولوجية الماركسية اللينينية . وكتمت أنفاس الألمان قوات عسكرية هائلة من حلف الأطلسي (الناتو) الغربي ، وحلف وارسو الشرقي ، وتصور الكثيرون أنه لن تقوم بعد ذلك لألمانيا قائمة لأنها لم تُقَسَّم جغرافياً فحسب ، بل قُسّمت فكريّاً أيضاً ، وفرض على الألمان فكر غير الذي كانوا يتبنّونه سواء في الشرقية أو

في الغربية ؛ وذلك في محاولة من المحتلين ألا يفسحوا المجال لألمانيا أن تخرج من الهزيمة كما خرجت من هزيمة الحرب العالمية الأولى أقوى دولة في أوربا ، بل في العالم ، إلا أن الألمان لم يستكينوا رغم خضوعهم الظاهر ، بل أخذوا يعززون اقتصادهم ، وثقافتهم الشعبية ، إلى أن أصبح المارك الألماني الغربي بقوة الدولار والجنيه الاسترليني والفرنك الفرنسي إن لم يكن أقوى منها ، وما إن لاحت أول فرصة تاريخية لهم بانهيار الاتحاد السوفياتي حتى سارعوا إلى تحقيق الوحدة ، رغم الفروق الأيديولوجية والاقتصادية والمعاشية ، حتى النقدية المالية التي كان من المفروض أن تعيق عملية الوحدة أو تؤخرها إن لم تمنعها (ليس كما فعلنا نحن العرب إذ تذرع قادتنا في عدم إقامة وحدة بين بعض الأقطار بالظروف المختلفة وبضرورة أن تكون الوحدة مدروسة . . . وغير ذلك من الذرائع غير المقبولة) . وأخذت ألمانيا تحتل مكانتها بين دول العالم الكبرى ، وأصبح احتمال احتلالها لمقعد دائم في مجلس الأمن الدولي وارداً وممكناً .

فما السر ؟! الأمر بسيط جداً ؛ وليس هناك أي سر . الشعب الألماني ظل ملتزماً بمواطنيته لألمانيا ، ورفض في قرارة نفسه الاحتلال وإن رضخ له ظاهرياً ، وشرع في بناء اقتصاد قوي وإنسان واع وسليم ، ملتزم بهدف محدد هو إعادة بناء ألمانيا الموحدة في المستقبل الذي ربما يكون بعيداً أو قريباً ، فكان جاهزاً لاغتنام الفرصة التاريخية التي لاحت له فحقق هدفه .

وكذلك اليابان ، دُمِّرت فيها مدينتان بالقنابل النووية ، هما هيروشيما وناغازاكي ، وأجبر إمبراطور اليابان على أن يعلن للشعب أنه ليس مقدساً كما يعتقد الشعب (أي أن اليابانيين أجبروا على التخلي عن عقيدتهم ، تماماً كما أجبر الألمان على التخلي عن أيديولوجيتهم) واحتُلت اليابان وما زالت ، وفرضت عليها شروط مذلة ؛ حتى إنها أجبرت حديثاً على الاعتذار إلى الصين وفيتنام عن الحروب التي نشبت يوماً فيما بينهم ، في

حين رفضت أمريكا الاعتذار عن ضرب اليابان بالقنابل النووية . ومع ذلك استطاع الشعب الياباني أن ينهض تحت حراب المستعمرين وفي ظل شروطهم القاسية ، وأصبحت اليابان أقوى من الولايات المتحدة الأمريكية التي تحتل اليابان والتي غدت القطب الوحيد في القوة العالمية المسيطرة ، وفاقتها في ميادين الاقتصاد والصناعة والتكنولوجيا (رغم أن موارد اليابان محدودة جداً ، وتعد من الدول الفقيرة في الثروات الطبيعية) ، حتى إن الولايات المتحدة نفسها أخذت تشعر بالهزيمة أمامها وبدأت تبحث عن وسائل لإجبار اليابان على اتباع سياسات اقتصادية معينة لحماية الاقتصاد الأمريكي من التدهور ، وكذلك أصبح « الين » الياباني (وحدة العملة اليابانية) أقوى من الدولار الأمريكي ذاته .

ونسأل ثانية : ما السر ؟! ومَرّة أخرى ليس في الأمر سر . كل ما هنالك أن اليابانيين قدَّسوا العمل وقدسوا الالتزام بمواطنيتهم لبلدهم ، واحترموا الإنسان فحققوا ما حققوا . واليابان الآن مرشحة هي الأخرى لاحتلال مقعد دائم في مجلس الأمن الدولي .

أما نحن العرب فلن نفعل كما فعل هؤلاء ؛ وفوتنا كل الفرص التي أتيحت لنا كي ننهض من جديد ، كما رأينا في فصول سابقة ، إلى أن هدمت قلاعنا وحصوننا ، وفُرض علينا السلام بشروط العدو .

وأول خطوة في العلاج هي الاعتراف بأننا مهزومون ونكف عن إيهام أنفسنا بأننا غير ذلك . ولكي نخرج من الهزيمة ، ونعتصر النصر من خلال الهزيمة ، لا بد أن نعيد النظر في سلوكنا وفي منهجنا في الحياة ؛ وأن نبدأ على الفور بإعادة بناء هذه القلاع إذ لا يمكن أن ننجح بدون ذلك ، أرى أنَّ على الأمة العربية أن ترفض السلام مع العدو الصهيوني ، ولو أدى ذلك إلى أن يقوم هذا العدو بدعم من أمريكا باحتلال الوطن العربي من المحيط إلى الخليج (ولن يستطيع ذلك ، ولكن لو فرضنا أن هذا قد حصل) ، فإن

استمرار الحرب وتصميم الشعب على القتال حتى آخر عربي ومسلم سوف يؤدي بالنتيجة إلى انتصارنا كما ذكرت في فقرات سابقة ، ولكن إذا ما فرض السلام على الأنظمة العربية ، فإن على الشعب أن ينظر إلى هذا السلام على أنه حرب من نوع آخر ، وعليه خوض هذه المعركة التي هي في واقع الأمر أخطر وأشد من المعركة العسكرية ، إذ إن المعركة العسكرية تحسم بجولة أو جولتين أو أكثر ، وتكون فيها مواقع العدو واضحة ومعروفة ، والأهداف محددة ، والأسلحة معروفة ، أما في معركة السلام فتنفتح عدة جبهات خفية تشمل الإنسان الفرد في ذاته ونفسه وفكره وسلوكه ومنهج حياته ، وتشمل المجتمع في عاداته وتقاليده وطرق معيشته وكيفية تعامله مع محيطه ، وتشمل الوطن أرضه ومياهه وهواءه ومزروعاته ومكنوناته ، وتكون الأسلحة فيها غير مرئية وأحياناً كثيرة غير معروفة تُدَسُّ في الطعام سُمّاً طيب المذاق ولكنه قاتل فتاك ، وتنسلُّ إلى البيوت عبر أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة مزينة مُعَطَّرَة ولكنها تُفسد العقول وتخربها تماماً كما يفعل الأفيون ، وتنسرب مع الكلمة عبر مناهج التربية وأساليب إعداد المعلمين والمدارس فتفسد الثقافة وتشوه الهوية الحضارية .

ونطرح الآن سؤالاً هاماً هو : كيف نعيد بناء هذه القلاع الثلاث وكيف نعيد تحصينها ؟! ما علاج هذه العلل التي أصابت أمتنا ؟ لا بد من التعامل مع المسألة على صعد ثلاثة رئيسة هي : صعيد الوحدة ، وصعيد الفكر ، وصعيد التربية .

آ ـ على صعيد الوحدة :

هل نستطيع إقامة وحدة عربية اندماجية كاملة الآن . هل نستطيع إقامة وحدة فيدرالية ، أو كونفيدرالية ، هل نستطيع إقامة أي شكل من أشكال الوحدة مهما كان رخواً ولكنه ثابت بعد هزيمة الأمة العربية في حرب

الخليج الثانية ؟! لم يعد ، كما رأينا ، بالإمكان في المدى المنظور إقامة أي نوع من الوحدة العربية ، لا ثنائية ، ولا أكثر من ذلك ، حتى أشكال الوحدات الإقليمية التي أقيمت والتي لم يبق منها سوى ما يطلق عليه اسم « مجلس التعاون الخليجي » أثبتت فشلها وهشاشتها وعدم جدواها عند التطبيق العملي ، إذ سرعان ما انهارت أمام أول اختبار وأبسط امتحان تعرضت له(*) . حتى ذلك الشكل الإقليمي المتبقي الذي يضم السعودية وقطر والبحرين والكويت وعمان والإمارات العربية المتحدة أصبح مشلول الإرادة الذاتية ، منقوص الاستقلال والحرية بسبب وجود قوات الاحتلال الأجنبي ، الأمريكية والفرنسية والإنكليزية على أراضي دوله بحجة الدفاع عن أمن الخليج ضد أطماع العراق وإيران . فقد تحولت دول هذا المجلس إلى محميات أمريكية ـ بريطانية ـ فرنسية بعد أن كانت قديماً محميات بريطانية فقط ، ثم تمتعت إلى حين باستقلال كنا جميعاً نفخر به ونعتز ، ولكنها الآن بانزلاقها وتورطها في حرب ، وبتعاملها مع أزمة الخليج والخلاف الكويتي العراقي ، بطريقة غير صحيحة ، قد خسرت حريتها الحقيقية ، وخسرت أموالها ، وخسرت السيطرة على نفطها ومورد رزقها ، فكان الخاسر الوحيد في الحرب هم العرب جميعاً ، سواء دول الخليج أو العراق أو كل الدول العربية بما فيهم الفلسطينيون ، وكان الرابح الوحيد هو « إسرائيل » وأمريكا ودول الغرب .

والمؤسف أن القادة العرب لم يدركوا بعد هذه الحقائق أو نفوسهم ما زالت مفعمة بالغضب والحقد والرغبة في الانتقام وعدم الصفح ، الأمر الذي يعقد الأمور ، ويحول دون التوصل إلى أبسط صيغة تآلف أو أبسط خطوة نحو التآلف .

(*) للمزيد من الاطلاع على هذه المسألة يمكن الرجوع إلى كتاب الإسلام « دين الوحدة » للمؤلف ، نشر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية .

ولهذا لا بد أن يكون العلاج على جرعات ، ربما تكون خفيفة في البداية إلى أن نصل إلى الصيغة الكاملة للعلاج (وهو تحقيق الوحدة العربية الشاملة) .

هنالك مجالات يمكن البدء في العمل انطلاقاً منها ، وهناك خطوات يمكن اتخاذها دون أن تمس أحداً أو تتعرض لأي نظام أو لانتمائه القطري ، أو أن تعد تدخلاً في الشؤون الداخلية لأي قطر ؛ ولكنها في الوقت نفسه تفتح آفاقاً عديدة أمام الشعب العربي الذي ليس له علاقة بكل الخلافات والنزاعات العربية ـ العربية وما نتج عنها ، وهو غير راض عن كل ما جرى ، تفتح آفاقاً أمام هذا الشعب كي يتفاعل ، فتنعش روح الوحدة في نفوس الناس وتشيع روح العمل المشترك بين الراغبين في هذا العمل المشترك أو بذاك من الأنظمة العربية . من هذه الخطوات ، نذكر ما يلي :

1 ـ إيقاف حملات التشكيك والتشويش والاتهامات المتبادلة بين الأنظمة العربية على جميع الصعد : في الصحف والإذاعة والتلفاز والخطب السياسية والمواقف السياسية، والكتب وغير ذلك خصوصاً في المرحلة الحالية التي أعقبت حرب الخليج الثانية لإتاحة الفرصة أمام الجيل الصاعد أن يكون بمنأىً عن الخلافات الشخصية بين قادة الأنظمة العربية التي أسهمت كثيراً في توريط الأمة في المآزق المدمِّرة ، ولإفساح المجال أمام عملية إرساء قواعد الاستقرار وخلق جو من الراحة والاطمئنان ، وإيجاد مناخ ملائم للتفاعل الودي بين أبناء الأمة العربية .

2 ـ فتح الحدود (التي رسمها في الأصل أعداء العرب والإسلام) بين الدول العربية أمام أبناء الشعب العربي بحيث يتمكن مواطنو أي قطر عربي من التنقل بحرية دون تأشيرات مسبقة ، حتى بدون الحاجة إلى جواز سفر إلا كوثيقة إثبات شخصية ، بحيث يمكن لبطاقة الهوية الشخصية أن تنوب عن جواز السفر . إن هذه الخطوة تقرب الناس بعضهم من بعض . يقول

المثل العامي : « البعد نسيان وجفاء ، والقرب محبة ووفاء » . الشعب العربي كله شعب واحد وأسرة واحدة رغم كل عوامل التجزئة والتفريق التي تمنع اتصالهم بعضهم ببعض ، إذ نجد العائلة الواحدة موزعة في عدة أقطار وتحمل عدة جنسيات قطرية ، بعضها في سورية وبعضها في لبنان وبعضها في مصر وبعضها في فلسطين وبعضها في المغرب . . .إلخ . نعم العائلة الواحدة يمكن أن تكون موزعة في جميع الأقطار العربية لأنه لم تكن هناك حدود ، وكان الناس يتنقلون ويقيمون حيث يشاؤون في هذاالوطن الرحب . أما إغلاق الحدود فيبعد الناس بعضهم عن بعض ، ويؤدي إلى سوء فهم فيما بينهم الأمر الذي يعرض الجميع للتأثر بالدعايات المغرضة التي تهدف إلى مزيد من التفريق والتمزيق . في حين أن فتح الحدود يقرب الناس بعضهم من بعض ويخلق جواً من المحبة والتفاهم والوفاء ، وبذلك تسد الأبواب على سوء الفهم لأن التعارف والتفاعل والتعامل يزيل كثيراً مما كان يُظن من سوء في الآخر . ولهذا حث الله على التعاون في كتابه العزيز القرآن الكريم ، (سورة الحجرات الآية 13) التي يدعونا بها الله جل جلاله ، إلى إحداث تفاعل بين الشعوب المختلفة فكيف نحرم أنفسنا من أن نتفاعل فيما بيننا ؟! أليس في ذلك مخالفة لرب العالمين ؟! كما أن فتح الحدود يعد خطوة لنسف خريطة سايكس بيكو ، والجنود الإنكليز الذين رسموا حدود دول الخليج ، ومحو هذه الحدود واقعياً وعملياً وإن ظلت مرسومة في الخرائط الجغرافية ، إذ يمكن أن تعد حينذاك بمنزلة حدود تقسيمات إدارية داخلية ، ولا تمس هذه الخطوة سيادة أي من الأنظمة على قطره .

3 ـ فتح أبواب الأقطار العربية أمام الأموال العربية لتستثمر في أرض العرب بدلاً من إيداعها في مصارف أوربا وأمريكا ، ثم لا نستطيع التصرف فيها ، إن فوائد الأموال العربية المودعة في تلك البنوك وحدها كافية لتسديد ديون

الدول العربية كلها وتفيض عن ذلك ، كما أسلفنا ، دون أن تُمَسّ رؤوس الأموال أو تنقص ، ومع ذلك نجد معظم الدول العربية ، بل كلها ، حتى دول النفط نفسها صاحبة تلك الودائع ترزح تحت ديون طائلة ، في حين يرتع أصحاب البنوك تلك ودولهم ومواطنوهم بخيرات أموالنا ويستثمرونها لتطوير بلادهم وترفيه شعوبهم ، وتزويد « إسرائيل » بعناصر القوة والتفوق علينا ، في حين أن الكثير من أبناء الشعب العربي ما زال يعاني من الفقر والحاجة والعوز ، والعجز عن التنمية والتطوير . فلو استثمرت هذه الأموال في مشاريع زراعية إنتاجية ، ومشاريع صناعية زراعية وغذائية وغير ذلك من المشاريع التي تسهم في تحقيق الأمن الغذائي (على الأقل) للوطن العربي لاستغنى العرب عن استيراد الغذاء ، بل لأصبحوا هم من مُصدري الغذاء للعالم ، فَلْيَعْمَل المالُ في الأرض ، ولْتُعطِ الأرضُ أصحاب المال . . . هكذا يتكامل الوطن العربي .

في المقابل ، لا بد من ضمان عدم الاستيلاء على الأموال المستثمرة أو المشاريع التي تستثمر فيها هذه الأموال تحت أية ذريعة أو باسم أي شعار ، لا بد من ضمان هذه الأموال ومشاريعها وحمايتها من أهواء المسؤولين وأصحاب السلطان .

إن اتخاذ مثل هذه الخطوة يسهم في تمهيد الطريق أمام التفاعل الاقتصادي إضافة إلى التفاعل البشري ، وفي خلق جو من الحب إذ يشعر كل فرد في الأمة العربية أنه يشارك في رفع الظلم الاقتصادي والاجتماعي عن الآخرين من أبناء أمته ، ويسهم في حمايتهم من خطر الجوع والفقر والجهل ، فتتعزز المحبة بين الناس ، ويشعر الجميع أنهم شعب واحد وأمة واحدة عملياً وليس كلامياً فقط ، رغم استمرار وجود جوازات سفر وهويات قطرية متعددة وأنظمة مختلفة حتى في مضمونها الاجتماعي والأيديولوجي ، إن فتح الحدود أمام الناس والمال والاقتصاد عموماً

لا يتعارض أبداً مع المضمون الاجتماعي لأي نظام سواء كان اشتراكياً أو رأسمالياً أو إسلامياً ، أو غير ذلك ، ولا يهدد أي نظام أو يتعرض له .

إن تنفيذ الخطوتين الثانية والثالثة يؤدي حتماً إلى الخطوة التالية وهي :

4 ـ إقامة سوق عربية مشتركة على غرار السوق الأوربية بحيث تسهم في تنشيط التفاعل والتكامل الاقتصاديين ، وتؤدي إلى تخفيض نسبة البطالة ، وفتح فرص جديدة للعمل أمام الشباب ، وإلى سد باب الهيمنة الأجنبية على موارد أمتنا واقتصادها ، وتعد هذه الخطوة أيضاً تمهيداً إلى التوصل بعد فترة زمنية تطول أو تقصر إلى إصدار عملة عربية موحَّدة ، كما هو حال أوربا التي أصدرت نقداً أوربياً مشتركاً تمهيداً لتوحيد عملات جميع دول السوق الأوربية المشتركة التي تعمل جاهدة على تحقيق وحدة سياسية . هم شعوب مختلفة ومع ذلك قطعوا شوطاً طويلاً نحو الوحدة فيما بينهم ، أفلا يجدر بنا ، نحن الشعب الواحد والأمة الواحدة ، أن نحذو حذوهم على الأقل ؟!

5 ـ تمكين الشعب العربي في كل قطر من ممارسة التعددية الحزبية والسياسية الحرَّة ، وليست تلك التي تصنعها الأنظمة وتفصلها لتناسب أغراضها ، لا بد من ممارسة الحرية : حرية الرأي ، والرأي الآخر ، ولا بد من تنشيط الحوار الحر بين المواطنين والفئات والأحزاب المختلفة ، لأن ذلك يخلق رقابة شعبية على القضايا الجوهرية للقطر نفسه من جهة وللأمة العربية كلها من جهة أخرى ، كما يعزّز الشعور بالمواطنية وبالالتزام بها ، وبالتمسك بالأرض والدفاع عنها ، لأن الأرض والوطن يرتبطان بحرية الإنسان ، فإذا ما فقد الإنسان حريته في بلده فإنه يفقد الإحساس بالمواطنية ويضعف ارتباطه بالوطن ، أما إذا تمتع الإنسان بحريته في بلده فإنه يشعر عندئذ أن حريته سوف تضيع وإنسانيته سوف تنتهك إذا ما أصاب الوطن ضيرٌ أو أذىً .

وفي الوقت نفسه يجب سن قوانين وتشريعات تمنع اعتقال أي شخص أو إيقافه أو سجنه أو تقديمه للمحاكمة بسبب رأيه السياسي أو بسبب دينه أو انتمائه الحزبي ، إلى جانب تشريعات وقوانين تنزل أقسى العقوبات وأقصاها بكل من يستخدم العنف أو القوة أو يلجأ إلى التهديد ، أو يسلك أساليب التخريب من أجل فرض رأيه أو دينه أو سياسته أو من أجل الوصول إلى السلطة ، وبكل من يتعامل مع العدو أو أية جهة أجنبية خارجية ضد مصالح الوطن العربي والأمة العربية ، إضافة إلى وضع مادة في الدستور وتعزيزها بتشريعات وقوانين تمنع السلطة الحاكمة من استخدام القوة لإحباط أية نتائج تتمخض عنها ممارسة هذه الحريات ، كالانتخابات ، مثلاً ، إذ ينبغي الالتزام بالمسلك الديمقراطي من قبل السلطة والشعب معاً ، وبذلك نستبعد احتمالات نشوب حرب أهلية ، أو وقوع أعمال عنف ، لأن القمع يولد التمرد ، وحرمان الإنسان من ممارسة حقوقه يضطره إلى اللجوء إلى العنف لإثبات وجوده وللدفاع عن حقه الإنساني كما أن لجوء السلطة إلى القوة والعنف ضد شعبها يولد عنفاً وحقداً ، ويسفر بالتالي عن تمزق البلاد وتشرذم الشعب ونشوب الحروب الأهلية .

6 ـ إصدار بطاقة هوية شخصية عربية ، وجوازات سفر عربية موحدة تكون فيها خانة تبين القطر الذي ينتمي إليه ، وذلك كي يشعر المواطن العربي بأنه عربي حقاً وليس سورياً أو فلسطينياً أو سعودياً . . . أو غير ذلك من المسميات التي تكرس الانفصالية والتباعد والتمايز ، إذ تصبح صفة المواطن « عربي من لبنان » تماماً كما يقول المرء الآن أنا « سوري من حوران » هذا التعبير السائد الآن يعزز الروح الانفصالية القطرية ، في حين أن التعبير الأول يعزز روح الوحدة ويعمق جذورها في النفوس .

إن تحقيق مثل هذه الخطوات يساعد على خلق جو من الحرية والعزة والطمأنينة ، الأمر الذي ينعش الوطن والشعب ويمهد الطريق إلى الهدف

الأساس وهو تحقيق الوحدة العربية الحقيقية شعبياً ، وليس بناء على رغبة الحكام وأهوائهم ، يوقعون اليوم صك وحدة وينقضونه غداً ، وينهالون بالاتهامات والتشهير بعضهم على بعض . الوحدة ينبغي أن تتحقق في النفوس وفي القواعد الشعبية ضمن عملية نمو طبيعية.

وفي حال نجاح هذه الخطوات التي تجعل الطريق ممهدة تماماً أمام الهدف الرئيس ، وهو الوحدة الشاملة الفعلية والحقيقية القوية التي لا تهزها الأحداث ، ولا تؤثر فيها مؤامرات شرق ولا غرب ، ولا تحول دونها رغبات قوى عظمى في العالم ، لأنها لن تكون عندئذ هي القوى العظمى أكثر مما نكون نحن الأمة العربية الموحدة ضمن هذه القوى العالمية العظمى ، يرهب جانبنا وينظر إلينا نظرة إكبار واحترام ، ويحسب لنا ألف حساب ، في حال نجاح هذه الخطوات السابقة يمكن وضع بعض المبادىء الأساسية البسيطة البدهية للتعامل فيما بين الأنظمة ، التي يسهل حينذاك التمسك بها والالتزام باتباعها ، لوجود أحزاب وهيئات شعبية حرَّة تراقب الأحداث وتؤثر فيها ، والتي سوف تشكل عتبة البوابة الواسعة التي تدخل منها الأمة إلى رحاب قلعة الوحدة المحصنة وغير القابلة للسقوط أو الانهيار . من هذه المبادئ أركز على مبدأين اثنين هما :

آ ـ النظر إلى أي خلاف يمكن أن ينشأ بين نظام في قطر عربي ونظام في قطر عربي آخر على أنه خلاف فردي بين أخوة اختلفت وجهات نظرهم حول مسألة معينة ، وبالتالي ينبغي حله عربياً كأي شأن داخلي ، دون اللجوء إلى القوة أو التهديد فيها ، أو الاستعانة بالأجنبي واستعدائه على النظام الآخر ، ويعد مثل هذا الاستعداء خروجاً على الأمة وإجماعها .

ب ـ استثمار الموارد الطبيعية العربية النفطية والمعدنية والبشرية والزراعية والمياه ، وما ينجم عن ذلك من ريوع مالية نقدية داخل الوطن العربي بهدف تعزيز الاقتصاد العربي وصموده ضد المخططات الاقتصادية المعادية ، وضد مؤامرات تجويع الشعب العربي وحصاره اقتصادياً ، كما يحدث الآن ، وضد محاولات أعدائنا استغلال ثرواتنا واستنزافها ، وبما

يكفل التفاعل والتكامل الإيجابيين والمثمرين بين المال (الثروات) والبشر (الطاقة البشرية) والأرض وما فيها من مكنونات (الموارد الطبيعية) من أجل بناء قاعدة اقتصادية زراعية صناعية تجارية صلبة على مستوى الوطن العربي كله ، فإذا ما فاض لدينا مال عن ذلك ، فإنه يمكن استثماره خارج الوطن العربي بما يخدم أيضاً تعزيز الاقتصاد العربي والمناعة العربية .

ب ـ على صعيد الفكر :

رأينا في الفقرة السابقة المعنونة بـ« التشخيص » أن الأمة العربية مصابة بانفصام الشخصية ، الأمر الذي جعلها لا تعرف « من هي » ولا أين تقف في هذا العالم ولا « أين تتجه » ؛ ولهذا أيضاً ضاعت الأهداف ولم تعد الأمة قادرة على تحديد ما تريده فعلاً ، بل انقلب تصرف معظم الأنظمة العربية إلى مجرد ردود فعل تكون في غالب الأحيان متسرعة وعشوائية ، وافتقدت القدرة على وضع معادلات سياسية للأحداث العالمية والمحلية وذلك كله يعود في الأصل إلى افتقاد القاعدة الفكرية الأساسية للأمة وبالتالي الافتقار إلى المعيار الذي تحدد بموجبه المواقف ، وغياب الوعي الاستراتيجي لما يجري في العالم .

فالعلاج الذي يشفي الأمة من هذه العلة ويعيد لها صحتها وعافيتها وقدرتها على مواجهة الأحداث ورسم مستقبلها بوضوح ووضع الخطط التنفيذية للوصول إلى ذلك المستقبل المنير ، هو تحديد القاعدة الفكرية التي ينبغي للأمة أن تقوم عليها .

الحقيقة التي لا مراء فيها ، والتي لا يستطيع أحدٌ إنكارها هي أن الهوية الحضارية العربية التي اصطلحتُ عليها بـ« الشخصية العربية »(*) قد تشكلت بفضل تفاعل الإسلام مع العروبة ، كما أسلفت في فصل سابق . إذن ، الإسلام هو القاعدة الفكرية التي ينبغي للأمة العربية أن تبني حياتها

(*) انظر كتاب « الشخصية العربية » للمؤلف ، نشر دار الفتح ، دمشق .

عليها . ذلك لأن « القومية » ليست حركة عقائدية ، بمعنى أنها لا تقوم على فكر يفسر وجود الكون وينبثق عنه نظام حياتي متكامل وشامل ، بل هي حركة سياسية تسعى لتوحيد الكيانات العربية المجزَّأة ؛ ولهذا فإن الدعوة القومية تعد خطوة على طريق بناء القاعدة الفكرية لأنها تتجه نحو مواجهة التجزئة والتفكك ، وبالتالي فهي مكملة لمنهج الإسلام التوحيدي والوحدوي ، وليست مناقضة ولا معادية له . ومن الميزات التي يتصف بها الإسلام والتي تعزز التوجه نحو تَبَنِّيهِ هو ، وليس سواه ، كقاعدة فكرية للأمة ، نذكر ما يلي :

1 ـ الإسلام ليس عنصريا عرقياً ، بل يصهر جميع العروق في بوتقة حَضارية واحدة ، فيلغي ذريعة الذين يطالبون بالانفصال عن جسم الأمة على أساس عرقي وقومي .

2 ـ الإسلام ليس طائفياً ، وبالتالي ، فهو مع كونه ليس عنصرياً عرقياً أيضاً ، ينفي مفهوم الأقليات السائد في الغرب ويرفضه رفضاً قاطعاً ، لأن الإسلام ينظر إلى جميع الناس نظرة المواطنية والانتمائية إلى هوية حضارية واحدة ، يحترم الجميع ويصون حقوق كل أبناء الشخصية العربية الحضارية (من مسلمين : عرب وغير عرب ، ومسيحيين ويهود وغيرهم من ذوي الأصول العرقية والدينية المختلفة) ويحتضنهم جميعاً بوصفهم شعباً واحداً وأبناء شخصية حضارية واحدة . **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**(*) و«لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»(**) والتاريخ شاهد على ذلك إذ لم يلق « اليهود » ، على سبيل المثال ، الذين هم اليوم سبب شقائنا والذين هم يغتصبون أرضنا وحقوقنا ويشردون شعبنا ، لم يلق هؤلاء في تاريخهم رعاية واحتراماً ومعاملة إنسانية ، ومساواة مثلما لقوها عند المسلمين وإبان

(*) الآية 13 من سورة الحجرات .

(**) حديث شريف : انظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ؛ أ . ي . ونستك ؛ وي . ب . منسنج ، نشر بروخمان . الجزء الخامس ، 1965 .

ازدهار الشخصية العربية ، حتى هؤلاء الذين يدعمونهم اليوم في عدوانيتهم علينا هم الذين مارسوا أشد أنواع الاضطهاد عليهم .

الإسلام ، إذن ، يحرر الإنسان ولا يستعبده .(*) إنه لا ينفي عروبة العربي ، وفارسية الفارسي ، وكردية الكردي ، ولكنه ينفي العرقية والتعصب العرقي : لأن الإسلام جاء للناس كافة وليس لعرق معين أو فئة معينة . فكما أن رابطة الأسرة لا تنفي ذاتية الفرد فيها ولا خصائصه الفردية ، وكما أن رباط القرية أو المدينة لا ينفي ذاتية المحافظة وخصائصها ، كذلك رابطة الإسلام ورابطة الشخصية العربية لا تنفي ذاتية الشعوب وخصائصها ، بل تُحدث تفاعلاً فيما بينها لإنتاج شخصية حضارية متجانسة تماماً كما يتفاعل الأكسجين والهيدروجين لِيَنتُجَ الماء .

3 ـ الإسلام ثورة حضارية إنسانية لصالح الناس كافة ، يدعو باستمرار إلى التفاعل بين الحضارات المختلفة والأديان المتعددة ، ويدعو إلى التواصل الدائم التاريخي والحضاري ، الأمر الذي يلغي ، أيضاً ، ذريعة الذين يطالبون بالانفصال عن جسم الأمة بدعوى الدين ، ويلغي ذريعة الذين يثيرون حروباً طائفية داخل الشعب الواحد ، كما أنه ، بعالميته وشموليته يسقط ذرائع الحروب بين الأمم ويحل محلها التواصل والتجاور والتفاعل والتكامل لبناء حضارة إنسانية يسودها العدل ويختفي فيها الاستغلال .

4 ـ يعد الإسلام نقيضاً حاسماً للاستعمار (لأنه يستغل الشعوب ويبتز ثرواتها) وللصهيونية العالمية (لأنها عدوانية وهدامة وتعمل دائماً ضد مصالح الشعوب التي تحتضنها) ونقيض للشيوعية (لأنها إلحادية دكتاتورية) وللانفصالية عموماً (لأنها تمزيقية ومبددة للقوى البناءة ضمن الأمة الواحدة) . فهو إذن الفكر الوحيد الذي يساعدنا على القضاء على التغريب ، ويحررنا من التبعية لأية جهة أو قوة مهما كانت ومهما بلغت من طغيان وغطرسة .

(*) انظر كتاب « القرآن حرر الإنسان » وكتاب « الإسلام دين الوحدة » للمؤلف .

5 ـ الإسلام ينفي الصراع الطبقي ، بل ينفي فكرة الصراع بين الناس ، سواء على صعيد طبقات المجتمع الواحد ، وفئاته ، وعشائره ، أو على صعيد الشعوب والأمم المختلفة ، وذلك استبعاداً لشبهة التقاتل والتخريب والهدم ، ويدعو بدلاً من ذلك إلى التفاعل والحوار بالتي هي أحسن تعميقاً لفكرة البناء والإعمار . فهو من منطلق هذا المفهوم أكثر فكر ديمقراطي في العالم ولا يمكن أن يضاهيه فكر في هذا المجال ، كل الناس لديه سواسية ؛ سخر الناس بعضهم لبعض ، فلا يحق لأحد ان يتعالى على الآخر بحكم موقعه الاجتماعي أوالوظيفي أو بحكم درجته العلمية أو بفضل مهنته إذ إن كل امرئ في هذا الكون مسخر للآخر يقدم له خدمات ويتلقى منه خدمات دون فضل لأحد على أحد (إلا بالتقوى) . وكما هو حال الأفراد في المجتمع الواحد ، كل منهم مسخر للآخر ، كذلك الحال فيما يتعلق بالشعوب والأمم في المجتمع الإنساني ، إذ كل منها مسخر للآخر ، يقدم له خدمات ويتلقى منه خدمات ، كل من الشعوب يسهم بما لديه وحسب إمكاناته في بناء الحضارة الإنسانية المتفاعلة ودياً ، وفي إسعاد نفسه وإسعاد الآخرين ، ولا يجوز لأية أمة أن تتعالى على الأمم الأخرى ولا يجوز لأي شعب أن يستغل شعباً آخر ، لا بسبب التفوق العلمي أوالاقتصادي أو التقني ولا لأي سبب كان ، لأن الأمم والشعوب كالأفراد ، مسخر بعضها لبعض من أجل مصلحة الجميع ومصلحة الإنسانية قاطبة ، قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ [الزخرف / 23 /] .

6 ـ نلاحظ ، تاريخياً ، أن العرب كانوا دائماً في طليعة شعوب الأرض في عملية البناء والإعمار ، عندما كانوا يتبنون الإسلام قاعدة فكرية لشخصيتهم الحضارية ؛ وبالمقابل كانت الشعوب الإسلامية دائماً في طليعة الشعوب تقدماً عندما كانوا يحملون راية العروبة بما فيها من لغة القرآن الكريم ومن

حضارة ومعطيات بوصفها العنصر الثاني من عنصري تكوين الشخصيّة العربية الإسلامية الحضارية .

وباختصار يمكن وصف العلاج بعبارة واحدة جامعة هي : « إعادة بناء الشخصية العربية الحضارية » المؤلفة من تفاعل « الإسلام والعروبة » . ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو : « كيف نعيد بناء هذه الشخصية ؟! وما هي آلية البناء ؟! خصوصاً أن العرب والمسلمين قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه من التشرذم والتعادي والتنازع والضعف والهوان . الجواب يكمن في الخطوات التالية :

1 ـ ما دام الإسلام هوالقاعدة الفكرية الأساس للأمة العربية وشخصيتها الحضارية ، لا بد أن تكون هذه القاعدة متماسكة وصلبة وقوية وقادرة على دفع الحركة نحو البناء ، ولكي يتحقق ذلك ينبغي اتخاذ الخطوات التالية :

آ ـ إلغاء الالتزام بالفرق والطوائف الدينية الإسلامية ، وإلغاء جعلها أدياناً قائمة بحد ذاتها (كما هو حاصل بالفعل وإن لم يُصَرَّح بذلك علناً ، لأن السلوك الذي يسلكه أتباع كل مذهب أو طائفة يدل على أنهم ينظرون إلى مذهبهم أو طائفتهم على أنها دين مستقل بذاته ، ويكفرون أحياناً سواهم) . وينبغي حصر أي خلاف ينسب إلىالمذاهب والطوائف في إطار اختلاف الرأي غير الملزم ولا يتجاوز ذلك ، فهل هناك مجتهد لم يختتم رأيه واجتهاده بعبارة « والله أعلم » ؟ أي أنه هو نفسه لم يلزم نفسه بما اجتهد فيه ولم يلزم الآخرين ، وكان على استعداد للتخلي عن رأيه وتبني رأي أصوب يصدر عن مجتهد آخر ، فكيف نلزم نحن أنفسنا ونجعل لهذا الرأي أو ذاك مشايخه وأتباعه ومساجده ، ومدارسه يتصارعون فيما بينهم ، ويصل الأمر ببعضهم إلى الاقتتال بالسلاح : بين سنة ، وشيعة ، وعلوية . وجعفرية ، وحنفية ، وشافعية ، وختمية . . . و . . . و . . . إلى آخر ما هنالك من مسميات . وإني أتساءل وأسأل الجميع : « هل كان محمد (ﷺ) وخلفاؤه من بعده (رضي الله عنهم جميعاً) بما فيهم علي (كرم الله وجهه) وأهله والتابعون سنيين أو شيعيين أو علويين أو دروزاً أو

أحنافاً أو شافعيين أو مالكيين أو جنبليين ؟! لم تكن هذه الأسماء قد وجدت أصلاً . فمن أوجدها ؟! أليس هذا التفرق خروجاً على الدين ومخالفة صريحة لنصوص القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من أمامه ولا من فوقه ولا من تحته ؟! قال الله ، جل جلاله ، في كتابه العزيز :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ [آل عمران / 103/] .

الفُرقة والتنافر والتنازع يضع الناس على شفا حفرة من النار ، فهل يصر المسلمون اليوم ألا يكتفوا بالوقوف على شفا حفرة من النار ، بل يريدون إلقاء أنفسهم فيها لتحرقهم وتدمر كل مساعيهم ؟!

﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ [آل عمران 105/] .

﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً ، فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فَتَفَرَّق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ [الأنعام / 153/] .

﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم في شيء ، إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ [الأنعام / 159/] .

﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفُن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ [التوبة / 107/] .

﴿ . . . . ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [الروم / 31 ، 32/] .

جاءت الآية هذه مكملة لآيات سابقة لها في الترتيب تحث المؤمنين

من المسلمين على ألا يكونوا من الذين فرقوا دينهم .

﴿ شرع لكم من الدين ما وصّىٰ به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ [الشورى /13/] .

نلاحظ من هذه الآيات أن تكريس الفرقة وتحويل اختلافات الاجتهاد إلى مذاهب ومدارس تصل إلى حد التعصب والتزمُّت كل بمذهبه ومدرسته ، الأمر الذي يقربها من أن تصبح أدياناً مختلفة يقتل أتباعها ويسفك بعضهم دماء بعض ، يُعَدُّ ذلك خروجاً عن الدين وعليه ، بحيث يمكن القول إنهم جميعاً لم يعودوا مسلمين ولا مؤمنين ، لأن الرسول (ﷺ) لن يكون منهم في شيء ، فماذا يبقى لهم ؟!

أنا لا أدعو إلى إلغاء كل ما أنتجه الفكر الإسلامي والمفكرون المسلمون والمجتهدون . لا . بل أدعو إلى الإفادة من كل ما توصلوا إليه من آراء واجتهادات ووجهات نظر في إغناء الفكر وتطويره ليكون قادراً على مواكبة الزمن والتطور البشري والحضاري . أقول إنه ينبغي لأي اجتهاد أو رأي أن يكون ينبوع عطاء للاجتهاد الآخر والرأي الآخر ، وإذا ما استخدمنا كلمة « مذاهب » فإن كل مذهب يجب أن يكون مصدر ثقافة للمذهب الآخر لا أن يتحول إلى عقيدة أخرى أو دين آخر ، إضافة إلى أنه من الضروري بل من الأمور الجوهرية التي تجعل الفكر الإسلامي حياً عبر الزمن إلى يوم الدين ، أن يستمر الاجتهاد ولا يغلق بابه شريطة الالتزام بما أسلفت من مفهوم والالتزام بالأخذ من المنبع الأصيل القرآن الكريم وسيرة الرسول (ﷺ) .

إنني أطالب المسلمين من كل الطوائف والمذاهب والمدارس والزوايا والتكايا ، الظاهريين منهم والباطنيين ، ومهما اختلفت المسميات أن يدفعوا بهذه المسميات التفريقية إلى عالم النسيان ، وأن يندرجوا جميعاً تحت اسم

واحد هو « الإسلام » . هذا ، إذا كان المسلمون يريدون الخير لأنفسهم وأن يتجنبوا الوقوع في النار التي هم على شفا حفرة منها . أليس ربنا واحداً ، هو الله الواحد الأحد ؟! أليس كتابنا واحداً ، هو القرآن الكريم ؟! أليس نبينا واحداً ، هو محمد ﷺ ؟!

فلماذا هذا التفرق إذن ؟! ومن الذي صنعه سوى عدوّنا وعدو الله الذي أمرنا الله أن نُعِدَّ له ما استطعنا من قوة ؛ ومن أهم عناصر القوة وحدة المسلمين جميعاً تحت راية واحدة واسم واحد .

وهنا يبرز سؤال قوي وصارخ هو : من ذا الذي يستطيع القيام بمثل هذه الخطوات ؟! والجواب بكل بساطة وصراحة هو ، فئتان : « الحكام وعلماء الدين » . إذ على الحكام أن يأمروا علماء الدين بالدعوة إلى هذه الخطوة التوحيدية (فيكون الحكام عندئذ هم أولو الأمر من الذين علينا طاعتهم) لا أن يأمروهم بإصدار فتاوى لتسويغ مواقفهم وتعليل أهوائهم ولو كانت مخالفة للدين (عندئذ لن يكونوا أولي أمر منا وليس لهم علينا طاعة) . أليست هناك قاعدة فقهية تقول : « إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » ؟! إذن ، يتحمل الحكام هذه المسؤولية أمام الله وأمام شعوبهم .

أما علماء الدين ، فهم في الأصل ميزان الأمة ، وحراس الدين يوقفون كل منحرف عن جادّته عند حده ولو كان سلطاناً . وهم الرقباء وهم الأمناء على تعاليم رب العالمين ورسوله الكريم . هكذا ينبغي أن يكونوا .

هم الذين يأمرون الحكام ، وليس العكس ؛ هم الذين يقررون مشروعية الحكم أو عدم مشروعيته ؛ هم الذين يثبتون الحاكم في موقعه أو يسقطونه اعتماداً على مدى التزامه بكتاب الله وسنة رسول الله . ولكن الواقع غير ذلك .

هناك علاقة جدلية بين القادة الدينين والقادة السياسيين يؤثر كل منهم في الآخر ، ويؤثر كلاهما في مسار الأمة . فالأقوى من الفريقين هو الذي يوجه

الآخر ، وهو الذي يتحمل العبء الأكبر من المسؤولية . لذلك ينبغي لهاتين الفئتين أن تدفع كلٌّ منهما الأخرى في اتجاه توحيد الناس تحت راية واحدة (المسلمين تحت راية الإسلام ، والمسيحين تحت راية المسيحية) لأن ما قلناه في المسلمين ينطبق كذلك على المسيحين الذين تفرقوا شيعاً وطوائف أصبحت أدياناً متنافرة متنازعة . لذلك أدعو المسيحيين العرب أولاً ، ومن بعدهم مسيحيي العالم ، إلى أن يتوحدوا تحت اسم واحد هو « المسيحية » .

ب ـ بعد توحد المسلمين جميعاً تحت اسم واحد هو « الإسلام » وتوحد المسيحين جمعياً (العرب كخطوة أولى) تحت اسم واحد هو « المسيحية » ينبغي إحداث تفاعل بين جميع المسلمين العرب والمسيحين العرب ، وتعزيز نقاط التلاقي بينهم . ودفع نقاط الخلاف إلى الوراء لكي يحلها الزمن ؛ ولن يجدوا نقاط خلاف تستحق الذكر ، خصوصاً إذا اتخذوا مفهوم « الإيمان » الذي سأشرحه في بند « التربية » القادم قاعدة للحوار والتفاهم المشترك والانتماء الواحد للوطن الواحد .

وبذلك يصبح العرب قوة فاعلة يحترمها العالم بأسره ، ويقتدي بهم كما كان يفعل في فجر تكوُّن الشخصية العربية ، ويغدو الوطن العربي قلعة حصينة عصيّة على الأعداء والمتآمرين .

ج ـ اتخاذ جميع الخطوات ، وعلى جميع الأصعدة الفكرية والتربوية والتاريخية التي تبرز خصائص الشخصية العربية الحضارية الإنسانية ، بما في ذلك البدء بالتأريخ منذ مولد الرسول محمد ﷺ الذي يؤكد هوية هذه الأمة .

وقد سبق القول إن العروبة والإسلام صنوان لا ينفصلان ، فالعروبة جسم الأمة والإسلام روحها ؛ وإذا كان الأمر كذلك ، فماذا يعني ميلاد الرسول ﷺ وماذا يعني الانتماء للتاريخ بميلاده ؟ وأيا كان الأمر فإن الإجابة عن هذين السؤالين لا تستدعي طول بحث وعناء ، وإن أيسر ما يمكن قوله وتأكيده هو أن التأريخ بمولد النبي محمد ﷺ يُعَدُّ حقاً قومياً وعقيديا ، وواجباً عربيا

إسلاميا لا يجوز التغاضي عنه أو التفريط فيه ، خصوصاً في هذا العصر الذي تواجه فيه الأمة العربية غزواً فكرياً وثقافياً وهجمةً مركَّزَةً لتدمير الهوية الحضارية العربية واقتلاعها من جذورها . إضافة إلى أن ولادة الرسول الأعظم تعد أعظم حدث في تاريخ البشرية كلها ذلك لأن رسالته ، عليه الصلاة والسلام ، احتوت الشرائع السماوية جميعها وتميَّزت عنها بعالميتها ، وبأنها أخرجت الناس كافة من الظلمات إلى النور . وما كان دخول العديد من القادة والعظماء والحكماء والفلاسفة والباحثين الكبار ورجال الدين المسيحي وغيرهم في الإسلام سوى دليل بسيط على شمولية هذا الدين وعالميته . أفلا يحق لهذه الأمة أن تفخر بمولد نبي الله ورسوله إلى الناس أجمعين وأن تخلد ذلك المولد عن طريق التأريخ به ، بل ألا يجدر بالعالم كله أن يؤرخ بهذا الحدث الذي لم تشهد البشرية له مثيلاً ومكانة ومجداً وعزة وكرامة ؟!

إن من يستقرىء التاريخ وينظر في تاريخ الأمم والشعوب المختلفة يجد أنه ما من أمة إلا كان لها أمجاد وعظماء أرخوا بميلادهم . فقد أرخ الفرس والروم وغيرهم بتواريخ ميلاد ملوكهم وأباطرتهم وقادتهم وفلاسفتهم . فالهند ، مثلاً ، أرخت بميلاد « بوذا » الذي ولد عام (563) ق.م ، ذلك لأن بوذا ارتبط بظهور عقيدة جديدة صبغت حياة أتباعه بصبغة جديدة وصنعت لهم هوية مَيَّزتهم عن سواهم . وكذلك الصين التي أرخت بمولد فيلسوفها الشهير « كونفوشيوس » الذي ولد عام (561) ق.م . ذلك لأنه كان زعيماً روحياً ودينياً جعل للصين هويتها الخاصة بها التي احتلت مكانة مرموقة في سلم الحضارة العالمية . واليابانيون ، أيضاً ، أرخوا بميلاد أول إمبراطور ياباني اعتقدوا أنه نزل من الشمس وعَدُّوه من صفوة الخلق . أما الفُرس فقد عَدُّوا مولد فيلسوفهم زرادشت عام (660) ق.م. تاريخا مقدساً وحاسماً في نشوء عقيدة تصدت بكل قوة لأعمال الكهنة والسَّحَرةَ . وعندما ظهر « ماني » عام

(216) ق.م أرخوا بميلاده لأنه كان في نظرهم أيضاً صاحب عقيدة عرفت باسمه وهي العقيدة « المانوية » .

وإذا ما عرفنا أن التأريخ السائد اليوم بميلاد السيد المسيح (عليه السلام) هو موضع خلاف كبير ، إذ إن المسيح قد ولد في (12/25) من السنة على الأرجح ، بيد أن التأريخ الميلادي حسب من بداية الشهر الأول من السنة الشمسية ؛ وإذا ما علمنا أن جميع المصادر المسيحية بما فيها الأناجيل الأربعة المعتمدة لم تشر إلى التأريخ بميلاد السيد المسيح (عليه السلام) ، وأن الباحثين لم يتفقوا على الوقت الذي بدأ التأريخ الميلادي به في أوربا ، أدركنا أهمية التأريخ بمولد الرسول ﷺ . علماً أن التأريخ بميلاد السيد المسيح (عليه السلام) لم يكن انطلاقاً من محبة المسيح ولا من تقديسه واحتسابه حدثاً تاريخياً عظيماً أثر في مجرى الزمن واتجاهات الإنسانية ، لأن الغربيين ينظرون إلى ولادة المسيح على أنها عمل إلهي ومعجزة ، وليس لها علاقة بالتاريخ وأحداثه . إضافة إلى أن أمتنا العربية لم تكن تعرف التأريخ الميلادي المعمول به حالياً ولم تؤرخ به أصلاً إلا بعد سيطرة الغرب على وطننا وأمتنا بعد حروب شرسة عديدة شنها ضد الأمة العربية واغتصاب ما قدمته هذه الأمة من إسهامات مضيئة في الحضارة العالمية التي ما تزال تشع إلى اليوم رغم التعتيم والتضليل الذي يمارسه الغرب المغتصب لأرضنا وثرواتنا وثقافتنا وحضارتنا . والمؤسف أن العرب والمسلمين قد نسوا ما فعله الغرب بعظماء أمتنا وأمجادها ، وما ارتكبه في حقها من تقتيل وتشريد وتزوير للحقائق وطمس لمعالم هذه الأمة الحضارية ، ومعالم تاريخها الحافل بالأمجاد والعدل والتسامح والبناء . والمؤسف أكثر أن نرى العرب والمسلمين يحتفلون برأس السنة الميلادية على الطريقة الغربية ، ولا يكادون يذكرون رأس السنة الهجرية مثلاً ، ولا مولد الرسول الكريم ﷺ . إننا بأسفنا هذا لا نعني أبداً طعناً بالسيد المسيح ، فالمسلمون هم أكثر من يُجله ويقدره ويقدسه أكثر من

المسيحيين أنفسهم ، إذ لا تكتمل عقيدة المسلم إلّا إذا آمن بالمسيح ومن سبقه من أنبياء الله ورسله ، ولكن أسفنا هذا ما هو إلاّ تعبير عن الألم الذي يحز في نفوسنا ونحن نرى كيف أن الغرب قد حطم هويتنا وفكّك عناصرها وألقانا في متاهة الضياع فلم نعد نعرف من نحن ، ولا أين نقف في هذا العالم ، ولا إلى أين نسير . فليعلم المنساقون وراء الغرب وتقاليده وثقافته أنهم لن يكسبوا رضى الغرب عنهم ولو نزعوا ثيابهم أو جلودهم ولبسوا جلوداً غربية ، بل بالعكس لن يكتسبوا من الغرب إلا مزيداً من الاحتقار والإذلال .

ثم أليس من العجيب أن يعترف المنصفون من غير المسلمين وغير العرب بعظمة الرسول ﷺ . مثل المستشرق الأمريكي إدوارد دورمي الذي يصف الرسالة الإسلامية بأنها عالمية إذ يقول : « جاء محمد شارحاً للعالم رسالة الواحد القهار ، حاملاً بيده اليمنى الهدى والفرقان ، وبيده اليسرى نور المدنيّة الوضّاء » . ولا يلتفت المسلمون إلى عظمة هذا الرسول الكريم . ألا يعد موضع اعتزاز وفخر لا يرقى إليهما أي شعور بالعزة والكرامة ، أن يؤرخ العرب والمسلمون بمولد النبي محمد ﷺ بموجب التقويم الشمسي الغريغوري الأقرب إلى الدقة . ويتم ذلك بفضل طرح (571) وهو تاريخ مولد الرسول ﷺ من التأريخ الميلادي الشمسي الغريغوري المعمول به حاليا ، فيكون لدينا مثلاً عام 1424م . ر . موافقاً لعام 1995م .

هذا اقتراح جدير بالاهتمام والأخذ به وبيان فضائله . علماً أن للتقويم القمري أهمية كبرى في تحديد مواعيد العبادات كالصوم والحج وغير ذلك ، لأن لهذا التقويم مزيّة تنقيل أوقات الصيام والحج من شهر إلى شهر ، ومن فصل إلى فصل على مدار السنين ، وهي حكمة أرادها الله للمسلمين ينبغي عدم التخلي عن مرامي مثل هذه الحكمة الإلهية . وبالتالي يمكن اتباع تأريخ قمري بموجب مولد الرسول ﷺ ، كما هو الحال في اتباع تأريخ قمري بموجب يوم هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، شريطة أن يعمل علماء المسلمين على تحديد

بداية كل شهر قمري ونهايته بدقة حتى نزيل أي سبب للفرقة وأي أثر للخلاف ، ويُحكمُ رباط الوحدة والأخوة الإنسانية .

ج ـ على صعيد التربية

١ ـ تمهيد

التربية هي عملية بناء الإنسان نفسيا وثقافيا وسلوكيا منذ ولادته حتى يغدو رجلاً مسؤولاً يحمل على عاتقه عبء تربية من يأتي بعده من الأجيال ، ويحمل جزءاً من عبء بناء الأمة إنساناً وأرضا ، كي تستمر عمليه البناء الذاتي للأمة وتتجدد على الدوام دون أن يصيبها الوهن أو الانحراف فتذهب ريحها .

يقولون : « أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض » . وأقول : « أبناؤنا مرآتنا فيما هو آت من الأيام » . فهم إما أن يجعلوا المستقبل مضيئاً إن نحن أضأنا قلوبهم وأذهانهم ، أو معتما إن نحن أطفأنا نور الحياة في صدورهم وعقولهم .

الإنسان جهاز معقد أكثر مما يستطيع الإنسان نفسه أن يتصور : عقل يفكر ويحلل ويركّب ويستنتج ويكتشف ويبتكر ؛ ونفس ذات مشاعر وأحاسيس وعواطف تتفاعل فتنعكس سلوكا متلونا بألوان المواقف والمواجهات ، وردود فعل مختلفة حتى تجاه مواقف متطابقة .

هذا هو الإنسان ، مخلوق متميز عن بقية خلق الله ، ذو قدرة على التعبير عن عواطفه ومشاعره وخلجات نفسه ونبضات قلبه وومضات عقله بتعابير الوجه والعينين ، وبالإشارة ، والحركة ، والكلمة المنثورة والمنظومة ، وبالريشة والإزميل ، وبوسائل أخرى قد لا تخطر على بال ولا يقدر على استخدامها غير الإنسان . وهذا يعني أن كل ما يتعلق بنشاط الإنسان الذهني والنفسي والسلوكي ، وكل ما ينتج عنه متجدد أبداً وإبداعي دائماً ، ولا يمكن أن يخضع لقانون وضعي أو قاعدة .

وبما أن للتربية الدور الأكبر ، بل كل الدور ، في تشكيل الذات الإنسانية فهي أكثر المهمات تعقيداً وتمرداً على كل القواعد والمبادىء والقوانين التي يضعها المربون والخبراء أو يصوغها علماء النفس المختصون . وتعد التربية من أهم وأخطر العمليات التي يتعرض لها المرء منذ أن يرى النور ويأتي إلى هذه الدنيا (بل هناك آراء طبية حديثة تقول إن الجنين في بطن أمه يتأثر بالحالات النفسية للأم تماماً كما يتأثر بما يصيب جسمها من أمراض فيزيولوجية) إلى أن يغادرها إلى برزخ القبر . فالطفل الواحد مثلاً ، تختلف معاملته من لحظة إلى أخرى ، ومن حادثة إلى أخرى ، حتى لو تشابهت الحوادث وتطابقت ، كما أن استجابة الطفل الواحد لما يحيط به من أحداث ومواجهات تختلف من حالة إلى حالة ، ومن حين إلى حين ولو تشابهت الحالات وتطابقت . فكيف الحال فيما يتعلق بأطفال كثر ذوي مشارب مختلفة ومنابع متنوعة ؟!

إن واقع الأمر يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنه لا يوجد طفل متماثل ومتطابق تماماً مع طفل آخر ولو كانا توأمين حقيقيين وترعرعا في بيئة واحدة .

ويمكننا القول إن هناك عناصر ثلاثة رئيسة تتفاعل في الطفل ومعه وتسهم في تحديد هويته الإنسانية هي :

أ ـ ذاته : وتتمثل في نفسه وفي انفعالاته واستجاباته وسلوكه وطريقة عمل دماغه ، وقدرة ذهنه ، وغير ذلك مما له علاقة بالذات ، أي بالنفس والعقل .

ب ـ بيئته : وتتمثل في الطبيعة والمجتمع اللذين ينشأ فيهما ، وفي المحيط الذي يترعرع فيه .

ج ـ ثقافته : وتتمثل في ما يتلقاه من بيئته من تجارب ومعارف وعلوم ،

وفي ما يبدعه نتيجة تفاعل هذه العناصر الثلاثة فيما بينها ، من جهة ، وفيما بينها وبين الطفل من جهة ثانية .

يولد الإنسان كأي مخلوق بيولوجي آخر ، ولكن الفرق يكمن فيما ذكرناه آنفاً من خصائص تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات . إذا يبدأ هذا المخلوق البشري بالتفاعل مع محيطه منذ أن تتفتح عيناه على ما حوله ، ويأخذ وعيُه وإدراكه ينموان باستمرار إلى أن يبلغ قمة الوعي ، بل إلى أن يخرج من هذه الدنيا إلى العالم الآخر . وبالتالي فإن صناعة الإنسان وبناء الجيل وتحديد معالم المستقبل تبدأ منذ الولادة عبر السمع والبصر ، والوعي والإدراك والاستيعاب . فتبدأ شخصية الطفل بالتكون منذ تلك اللحظة ، وتنمو مفهوماته عن الكون والحياة وما يحيط به عبر أول معلم له وأول مُرَبٍّ بشري وأول أديب هو « الأم » .

فالأم من خلال أغنياتها لطفلها بهدف إسكاته أو تسليته أو مساعدته على النوم ، وعبر تصرفاتها تجاهه ، وتجاه إخوته وأخواته وأفراد الأسرة الآخرين وغيرهم ممن لهم علاقة بهم ، ومن خلال مداعبتها للطفل وإرضاعها إياه ، وضمه لصدرها ، ومدة احتضانه والبقاء معه ، عبر ذلك كله تؤثر الأم في طفلها وتضع اللبنة الأولى في صرح شخصيته ، وتنثر البذور الأولى في ثقافته ومفهوماته عن الكون والحياة ، وترسم الخطوط الأولى في مسار عواطفه وصحته النفسية وطريقة انفعالاته وسلوكه .

ولا يقل الأب عن الأم أهمية ، رغم أن الوقت الذي يقضيه الأب مع الطفل أقل بكثير من الوقت الذي من المفروض أن تقضيه الأم (قلت من المفروض ، لأن الأم في هذه الأيام ليست أقل غياباً عن الطفل وابتعاداً عنه من الأب بسبب انشغالها بعملها خارج البيت) . فالأب ، في الأصل ، هو الحكم الفصل في أية قضية تنشأ في الأسرة وتتعلق بسلوك الطفل ، فبقدر ما تكون ثقافته عاليه وواسعة ، ومنسجمة مع ثقافة الأمة كلها ، وبقدر ما يكون صدره

رحبا ، وأفقه واسعاً ، تكون مهمته التربوية أكثر نجاحاً .

إضافة إلى طبيعة العلاقة بين الزوجين التي لها أكبر الأثر في بناء صحة الطفل النفسية ، فبقدر ما تكون هذه العلاقة سوية ، قائمة على التفاهم والتعاون ، والمشاركة في بناء الأسرة ، وإعمار البيت ، وتنشئة الأولاد ، تكون ثمار التربية يانعة ناضجة طيبة ، أما إذا كانت مغايرة لذلك فإن الثمار ستكون زقوما وحميماً وغسّاقا . وإذا ما كان الجدان للأب أو الجدان للأم أو واحد منهم حيا ، فإن علاقة الوالدين بالأجداد ومعاملتهما لهم تؤثر كثيراً في نفسية الطفل وسلوكه ، وتكوين شخصيته وأخلاقه الفردية والاجتماعية ، فإما أن يكون التأثير إيجابيا إن كانت العلاقة قائمة على البرّ والإحسان كما أمر القرآن ، أو أن يكون التأثير سلبيا ، إذا كانت العلاقة قائمة على العقوق والجحود والإساءة خلافاً لما أمر به الله . قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنيّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . ووصّينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إليّ ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ [لقمان 13-15] .

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً . ربُكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً ﴾ [الإسراء 23-25] .

وعندما يشب الطفل يخرج إلى المدرسة وإلى الشارع . في المدرسة يتفاعل أولاً مع المعلم الذي ينظر إليه الطفل نظرة احترام وإكبار وتقديس .

لذلك تراه يلتزم بتوجيهات معلمه ويقتدي به أكثر من اقتدائه بوالده أحياناً . وهنا في المدرسة تستكمل عملية بناء الطفل أو هدمه . فإذا كان المعلم مؤهلاً جيداً ومنسجماً مع ثقافة المجتمع وحضارته وكان آمنا غوائل الأيام من الناحية المادية ومستقراً من الناحية النفسية وآمناً من بطش السلطة وأجهزة مخابراتها ، وله مكانته عند الدولة وعند المجتمع ، فإنه يعطي عطاء جيداً ويسهم في عملية البناء إسهاماً فعّالاً .

أما العنصر الثاني في المدرسة الذي يؤثر في الطفل فهو المنهاج والكتاب والأسس التربوية . ولكي يكون المنهاج التربوي والتعليمي ناجحاً ونافعاً وبناء ينبغي أن تكون أهدافه واضحة وأسلوبه سلساً ومواده وموضوعاته متفقة مع فكر الأمة .

ثم تأتي العناصر الفرعية الأخرى مثل وضع المدرسة من جهة استكمالها للشروط الصحية وتوافر وسائل الإيضاح وغيرها من الوسائل التعليمية وغير ذلك من مستلزمات المدارس بما يتلاءم مع التطور الحضاري الإنساني ومتطلبات العصر من أجهزة مخبرية وحاسوبية وعوامل التحفيز والتنشيط .

وفي المدرسة يبدأ الطفل بالاختلاط بمجتمع أوسع نطاقاً من البيت ، ويتخذ أصدقاء ورفاق مقعد وصحبة ملعب . ثم يخرج إلى الشارع ، أو إلى الحي حيث يلتقي أنماطاً أخرى من الناس غير الذين ألفهم في البيت وفي المدرسة ، وتبدأ أذناه تسمع مفردات غريبة ، منها المهذب ومنها غير المهذب ، ويأخذ بالتفاعل مع سلوكيات متنوعة ، منها ما ينسجم مع ما ألفه في البيت وفي المدرسة ومنها ما هو جديد عليه . وهنا تبدأ شخصيته بالانفتاح على عالم أرحب ، وتبدأ الأسس التي قامت عليها تربيته في البيت والمدرسة بالتفاعل مع البيئة والمحيط والعناصر الأخرى ، وتنشأ في هذه المرحلة أهمية الأقران وأهمية تدخل الوالدين والأهل بطريقة غير مباشرة ، أو مباشرة إن لزم الأمر ، في من يصاحب طفلهم ؛ كما تبرز أهمية تعاون البيت والمدرسة في كل

ما يتعلق بأنشطة الطفل ، سواء على صعيد الدراسة والتعليم ، أو على صعيد السلوك .

وينبغي ألا ننسى أثر الطبيعة ذاتها على طريقة تفكير الطفل وسلوكه ومواجهته للأحداث . فهناك فرق بين مؤثرات الطبيعة الريفية عموماً ، والريفية السهلية ، أو الريفية الجبلية ، أو الريفية في بادية أقرب إلى الصحراء خصوصاً ، ومؤثرات الطبيعة المدينية عموماً ، والمدينية الصناعية ، أو المدينية التجارية ، أو المدينية السياحية خصوصاً وهناك فرق بين الطبيعة البدوية عموماً ، والبدوية الأقرب إلى الاستقرار ، والبدوية المتنقلة الأقرب إلى الحياة الرعوية خصوصاً ، والبيئة الحضرية بشكل عام .

وعندما يأوي الطفل إلى البيت أخيراً فإنه سوف يجلس وجهاً لوجه مع التلفاز الذي يخاطب الطفل رغماً عنه وعن أسرته ، ويحشو في ذهنه ونفسه ما شاء مؤلف البرنامج ومخرجه ومنتجه أن يحشو ، ويوجهه بالطريقة التي تريدها الدولة وبما يتلاءم مع منهجها السياسي والفكري ولو كان ذلك المنهج مناقضاً لمنهج الشعب وفكره . إن التلفاز لا يجذب الصغار فقط بل يجذب الكبار أيضاً . حتى إن عدد الكبار الذين يشاهدون برامج الأطفال ربما يفوق عدد الصغار . ولهذا فإن التلفاز يسهم إسهاماً لا يستهان به في عملية البناء ، أو عملية الهدم .

2 ـ منابع التربية

نستخلص من التمهيد هذا ، أن المنابع الأساسية للتربية والميادين التي نعمل فيها يمكن تحديدها فيما يلي :

أ ـ الأسرة :

1 ـ الأم .

2 ـ الأب .

3 ـ العلاقة الأسروية : بين الزوجين ، وبين الوالدين والأولاد ، وبين الوالدين والأجداد .

ب ـ المدرسة :

1 ـ المعلم .

2 ـ المنهج والكتاب .

3 ـ الأقران .

4 ـ حالة المدرسة : إنشائياً ، وصحياً ، ووسائل الإيضاح والوسائل التعليمية الأخرى .

ج ـ البيئة :

1 ـ البداوة : المستقرة أو المتنقلة .

2 ـ الحضر .

3 ـ الريف : السهل أو الجبل ، أو البادية أو الصحراء .

4 ـ المدينة : صناعية ، أو تجارية ، أو سياحية .

د ـ الفن :

1 ـ نوعيته : رسم ، تصوير ، موسيقى ، نحت ، غناء ، رقص ، إبداع كتابي كالشعر والقصة والرواية والحكاية والمقالة . . . الخ .

2 ـ وسائل نقله : الصحف والمجلات والكتب ، الإذاعة والتلفاز وغير ذلك مما تبتكره عقول العاملين في هذا الميدان .

هـ ـ الإنسان نفسه الذي إذا ما أردنا معرفته على حقيقته من أجل معرفة أهداف التربية وأسسها وأسلوبها التي ينبغي إعدادها له ، لا بد من النظر إليه بمعزل عن هويته الجماعية وبيئته الاجتماعية والمكانية والزمانية . عندئذ نرى الإنسان بصورته البيولوجية ثم يُعرف بعد ذلك بروحه التي نفخها الله فيه ،

وبأدوات المعرفة التي زوّده الله بها من سمع وبصر وفؤاد . قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ **ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ما تشكرون** ﴾ (السجدة / 9/) .

﴿ **ألم نجعل له عينين . ولساناً وشفتين . وهديناه النجدين** ﴾ (البلد / 8-10/) .

ثم يُمَيّز الإنسان بالإرادة الأخلاقية القائمة على حرية الاختيار التي تعد سبب تفضيله على كل المخلوقات ، وسبب استخلاف الله له في الأرض ، ومحرّك قيام الإنسان بمهمة إعمار الأرض التي كَلَّفَهُ الله بها . قال تعالى في كتابه الكريم :

﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً** ﴾ (الأحزاب / 72/) .

والأمانة هنا هي حرية الاختيار . إذ إن الإنسان ، خلافاً لغيره من المخلوقات بما فيها الملائكة ، قرر أن يكون حراً في اختيار سبيله ، في حين أن بقية المخلوقات اختارت الالتزام والخضوع إلى القانون الكوني العام الشامل الذي وضعه الله دونما أي اعتراض أو محاولة لاختيار الطريقة التي تتعامل بها مع هذا القانون الإلهي . لكن الإنسان أراد أن يكون حراً في كيفية التعامل معه ، فمنحه الله ذلك وزوّده بكل ما يلزمه ليمكنه من ممارسة هذه الحرية : عقل ، ونفس ، ومعرفة إذ علمه الأسماء كلها وبين له سبيل الخير وسبيل الشر ، وأوجد له إبليس ليزين له سبيل الشر ويحرضه على التحدي . ومن هنا كان قوله تعالى لإبليس :

﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين** ﴾ (الحجر / 42/) .

أي إن الذين يتمسكون بهدي الله وبما يأتيهم به رسله من توجيهات لن يستطيع الشيطان خداعهم أو تزيين ما ليس حسناً .

أما الإنسان فيدرك حقيقة ذاته من خلال معرفة الكون والبحث عن الحقيقة المطلقة (الله) والفصل بين الكفر والإيمان ، وبين الشرك والتوحيد . ونستطيع القول دون مجازفة كبيرة إن تاريخ الحضارة البشرية ليس سوى سجل لمحاولات الإنسان فهم هذا الكون وما وراءه ، وصراع بين عقيدة الإيمان بالله وعقيدة الإلحاد ، أو عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك . ولهذا حث الله الإنسان على التزود بالعلم والمعرفة ، وعلى البحث والاستكشاف ، سواء في الأرض أو في السماء أو في البحر أو في الأجواء والآفاق ، أو في نفس الإنسان ذاته ، لأن ذلك يساعده على التوصل إلى حقيقة هذا الكون ومبدعه ، وعلى التوصل إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، إله الناس جميعاً : المؤمن والملحد ، الموحد والمشرك ، الشاكر والناكر ، الأسود والأبيض ، الأصفر والأحمر ، إله الناس كافة . قال تعالى في فاتحة كتابه الكريم :

﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ (الفاتحة/ 1/) .

ولم يقل رب العرب أو الأوربيين أو السود أو البيض أو المؤمنين أو غير المؤمنين (كما قال بنو إسرائيل زوراً إن الله هو ربهم فقط) ، بل قال تعالى : ﴿ **رب العالمين** ﴾ بلا استثناء .

3 ـ أسس التربية وأهدافها

انطلاقاً من هذه المعرفة وهذا الإدراك يمكن أن يُعَدَّ « الدين » القاعدة التي تقوم عليها الأسس التربوية . ذلك لأن الدين عموماً والإسلام خصوصاً يُعَدُّ نظام معرفة ، ونظام مسؤولية شخصيّة ، إذ إن الإنسان يتوصل إلى الدين ويؤمن به وهو على وعي تام بقدراته العقلية ، كما أنه يكتسب الدين باستخدام هذه القدرات استخداماً كاملاً . ولهذا نظر الإسلام ، بوصفه آخر الأديان

وشاملاً لمضامينها ومبادئها جميعاً ، إلى الدين عموماً على أنه محرر للإنسان من أية سلطة بشرية ، أو نظام بشري دنيوي (بعكس ما هو واقع حال الناس اليوم الذين يجعلون من دينهم قوقعة وسجناً وقيداً ، أو يجعلون من الدنيا وسلطانها معبوداً من دون الله) . الإسلام ينهى نهياً قاطعاً عن الحجر على فكر الإنسان وعن المس بحريته أو تقييد عقله . بل يحرض العقل على التفكير واتخاذ القرار ، ولو كان ذلك القرار يتعلق بالإيمان به أو بالكفر به . قال تعالى في كتابه الكريم :

﴿ وقل الحقُّ من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً ﴾ (الكهف / 29/) .

إن القرآن الكريم يخاطب دائماً أولي الألباب ، ويحث الإنسان على التأمل والنظر والتفكير للوصول إلى الحقيقة ولاستكشاف القوانين التي وضعها الله لهذا الكون واستخدامها في عملية إعمار الأرض ، ونهاه عن محاولة تبديل هذه القوانين أو تحويل هذه السنن لأن ذلك سوف يؤدي إلى دماره ودمار الأرض ويدخل الإنسان في متاهة التخريب بدلاً من أن يدخل في رحاب الإعمار . قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ (فُصِّلت / 53/) .

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت ، وإلى السماء كيف رُفعت . وإلى الجبال كيف نُصبت . وإلى الأرض كيف سُطحت ﴾ (الغاشية / 17-20/) .

﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبلُ ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ (الأحزاب / 62/) .

﴿ استكباراً في الأرض ومكرَ السَّيِّء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل

ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ (فاطر / 43/) .

كما يحث القرآن الكريم على عدم التقليد الأعمى وعدم التمسك بما كان عليه الآباء والأجداد من غير أن يستخدم الإنسان عقله ووعيه ويميز منه ما ينفع الناس وما لا ينفعهم في الزمان الذي هم فيه . وفي ذلك إشارة واضحة إلى ضرورة فهم معنى الالتزام بالقرآن الكريم ، الذي لا يعني أبداً الالتزام بما اجتهده الأولون ولا بما يجتهده المعاصرون في معالجة الأمور أو حلولهم لبعض القضايا إلا بقدر ما يكون ذلك الاجتهاد أو الحل متوافقاً مع ما جاء في القرآن الكريم . لأنه لو كان مفهوم التمسك بالدين هو اتباع الأولين في كل ما فعلوه وقالوه ، فإن ذلك يعني تجميد القرآن الكريم وإلغاء صفة الديمومة والصلاحية لكل زمان ومكان ولكل مجتمع وبيئة ومحيط . قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ (لقمان / 21/) .

﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ (الأعراف / 28/) .

فالنظام التربوي ، إذن ، ينبغي أن يكون مسؤولاً عن حياة الإنسان من المهد إلى اللحد ، وعن نموّه في العلم والمعرفة ، وعن تطوره في تسخير العلم والمعرفة لصالح الإنسان والبشرية جمعاء وفي عملية الإعمار والبناء ، ومسؤولاً عن تعزيز قدرة الإنسان على ترويض النفس وتصعيد هذا النمو واستمراريته ؛ وبالتالي لا بد أن تتطابق أهداف التربية مع هذه الرؤية ، فمثلاً على صعيد الأخلاق والتربية العامة ، قال تعالى في كتابه الكريم :

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ﴾ (آل عمران / 104/) .

ونرى من هذه الآية أن أبرز أهداف التربية تتمثل في :

أ ـ إشاعة الخير وتعميمه : الخير الاجتماعي ، والخير الاقتصادي ، والخير السلوكي ، والخير السياسي ، والخير العلمي والتقني وغير ذلك من ميادين الخير والفلاح .

ب ـ الحيلولة دون ظهور المنكر ، وهو عكس الخير ، بكل دلالاته ومعانيه ، وإيقافه إن ظهر والتصدي له ومحاربته كيلا ينتشر الفساد والشر ، والتخريب .

أما على صعيد علاقة الإنسان بالإنسان بدءاً من مستوى الجماعة الصغيرة إلى مستوى الأمة ، ومستوى العلاقات الدولية ، فقد قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾ (الحجرات /13/) .

وقال رسول ﷺ : « كلكم لآدم وآدم من تراب » نستخلص من هذه الآية الكريمة ، وهذا الحديث النبوي الشريف المبادئ والأسس التربوية التالية :

آ ـ الناس جميعاً متساوون ، فلا تمييز ، ولا تعالي ، ولا كبرياء ، ولا هيمنة ، مهما كان مصدر هذه الصفات أو نوعها أو سببها ، فالناس جميعاً متشابهون ومتماثلون في خلقهم ، كلهم من ذكر وأنثى ، وكل البشر ينتمون إلى أب واحد هو « آدم » وأم واحدة هي « حواء » ؛ وكلهم نشأوا من أصل واحد وهو « التراب » لذلك ينبغي ألا يفكر أحد في أنه خير من سواه أو أفضل من غيره ، إلا بالتقوى ، وهذه يقدرها الله وليس الإنسان .

ب ـ إن الحياة لا تسير في طريق الخير ، وكذلك عملية الإعمار لا يمكن أن تتحقق إلا بفضل التفاعل الودي الإنساني بين الأفراد والشعوب ؛ والحضارات

(التعارف) ، وليس عن طريق التبعية والحقد والعدوان والقهر ، ولا بالحروب والاغتصاب والهيمنة . فكل هذه الأساليب شر وهدم وتخريب ، ويجب محوها من النفوس وإسقاطها من الممارسة العملية بفضل التربية .

ج ـ لا يمكن تحقيق أسلوب التعارف هذا الذي أوصانا به القرآن الكريم إلا بالتقوى التي تعني أن يحسب الإنسان حساباً للبارئ عَزَّ وجلّ في كل ما يصدر عنه من قول وفعل وسلوك وتفكير ، وأن يتوخّى دائماً في كل ذلك مرضاة الله الذي لا يرضى إلا إذا اتبع الإنسان هديه ونفذ أوامره وانتهى عما نهى عنه التي لا يمكن إلا أن تكون في صالح البشرية جمعاء وصالح عملية إعمار الأرض وإفشاء السلام والحب في ربوع الكرة الأرضية . فإذا ما التزم الإنسان بالتقوى كان حتماً عنصر خير وبناء في المجتمع .

وعلى صعيد السياسة العالمية ، وكشف الذين يقاومون منهج الله والحق ، ويعيقون عملية إعمار الأرض أو يحبطونها ، ويخربون ما ينجح الإنسان في بنائه ؛ ثم التصدي لهؤلاء ومواجهة مؤامراتهم ، وإحباط خططهم ، فقد قال تعالى في كتابه الكريم :

﴿ لتجدنَّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾[المائدة/ 82/] .

نتبين من هذه الآية أموراً عديدة تدخل في صلب المفاهيم والأسس والأهداف التربوية نذكر منها :

آ ـ اليهود هم أشد عداء للمؤمنين ولم تقل الآية « للمسلمين » ، وهذا يستدعي توضيح مفهوم كلمة « المؤمنين » وبيان من المؤمن حتى لا يحدث التباس

في المفهوم أو سوء فهم للآية الكريمة . المؤمن هو ذلك الذي يتبنى الحقائق التالية عقيدة وعملاً والتزاماً :

1 ـ أن هذا الكون بما فيه ومن فيه مخلوق خلقه الله الواحد الأحد .

2 ـ أن الله تعالى قد عرض الأمانة على الكون ومخلوقاته فرفضها الجميع إشفاقاً منها ، إلا الإنسان فقبلها (وقد شرحت هذه المسألة في فقرة سابقة ، وبينت أن الأمانة تعني الحرية ، حرية الاختيار ، وتحمل مسؤولية هذا الاختيار) .

3 ـ بعد أن قبل الإنسان هذه الأمانة استخلفه الله في الأرض وكلفه بإعمارها .

4 ـ الإعمار لا يتم إلا بالتفاعل الحضاري الإنساني الودي السلمي ، أما الحروب فهي مدمرة دائماً . لذلك كان القتال كرها للمؤمنين ؛ وما كتبه الله عليهم إلا من أجل أن يردعوا المخربين الهدامين ويوقفوا محاولاتهم إعاقة عملية إعمار الأرض . قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [البقرة/ 216/] .

كل من يؤمن بهذه الحقائق يعد من المؤمنين ، من عشيرة السلام والبناء : المؤمنون هم الذين يعملون على إعمار الأرض بدءاً من أصغر خلية بشرية وهي الأسرة إلى أكبر خلية وهي المجتمع الإنساني الشامل ، وبدءاً من أصغر بقعة في الأرض وهي التي يقف عليها الفرد والبيت الذي يعيش فيه ، حتى أوسع بقعة وهي كوكب الأرض بأكمله . هؤلاء هم المؤمنون سواء كانوا من أتباع محمد (ﷺ) أو من أتباع عيسى (عليه السلام) أو موسى (عليه السلام) أو من أتباع حكماء ومصلحين ، وليس بالضرورة أن يكونوا أنبياء أو رسلاً .

وفيما يلي أستشهد بآيتين تعززان ما ذهبنا إليه من مفهوم لكلمة « المؤمن » .
قال ، جل جلاله ، في كتابه الكريم :

﴿ قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يَلِتكُم من أعمالكم شيئاً ، إن الله غفور رحيم ﴾ [الحجرات / 14/] .

أي إن هناك فرقاً بين أن يكون المرء مؤمناً أو مسلماً ، أو مؤمناً ومسلماً معاً .

﴿ وإن من أهل الكتاب لَمَن يؤمن بالله وما أُنزِل إليكم وما أُنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ [آل عمران / 199/] .

أي إن المؤمنين ليسوا فقط من أتباع سيدنا محمد(ﷺ) بل ربما يكونون من أتباع سيدنا موسى أو سيدنا عيسى (عليهما السلام) .

ب ـ أن النصارى هم كذلك هدف الحقد اليهودي . ومن يرجع إلى التلمود يرى هذه الحقيقة ناصعة نصوع الشمس .

ج ـ دعوة إلى تعاون إسلامي مسيحي لمواجهة اليهود وإحباط الروح العدوانية عندهم وتعطيلها .

فهل يشرع المفكرون والمربون وواضعو المناهج وعلماء الدين والقادة السياسيون بالعمل على تحقيق هذا التحالف والتفاعل على الصعيد العربي أولاً ، ثم توسيع نطاقه ليشمل العالم كله فنتخلص ، ونخلص معنا البشرية كلها ، من خداع اليهود وهيمنتهم التي حققوها بأن سبقوا المسلمين والمسيحيين في الوطن العربي إلى إحداث مثل هذا التفاعل والتحالف المشبوه بين اليهودية والمسيحية في أوربا الاستعمارية ؟!

لقد أمرنا الله ، سبحانه وتعالى ، أن نستعد لمواجهة غير المؤمنين

والحيلولة دون تمكينهم من إعاقة عملية إعمار الأرض بقوله ، جل جلاله ، في كتابه الكريم :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنت لا تُظلمون ﴾[الأنفال/ 60/] .

نفهم من هذه الآية الكريمة أن إعداد القوة ليس بهدف شن حروب على الآخرين وفرض الهيمنة عليهم والسيطرة على مقدراتهم ومصائرهم واستغلال ثرواتهم كما يفعل الغرب وأمريكا من تعزيز قدراتهم العسكرية وإنشاء فرق للتدخل السريع ، ودعم لإسرائيل وغير ذلك من أساليب القمع والإرهاب الدولي ، لا . ليس المقصود بهذه الآية ذلك ، بل الهدف من إعداد القوة هو ردع أعداء المؤمنين الذين هم بالتالي أعداء الله والذين يسعون لإفشال مهمة الإنسان التي كلفه الله بها عندما استخلفه في الأرض ، الغاية إذن هي إيقاف أولياء الشيطان عن مساعيهم التخريبية . كذلك فإن كلمة « قوة » جاءت غير معرفة بـ« أل » دلالة على الإطلاق في مفهوم القوة التي تشمل حسب التعبير القرآني كّل عناصر القوة ومقوماتها من اقتصادية وبشرية وثقافية وتربوية وعلمية وعسكرية . . . إلخ .

ونستطيع الجزم هنا أن معرفة عدو الله وعدو المؤمنين وكيفية ردعه تعد جزءاً أساسياً من العملية التربوية ، بل تُعَدُّ واحدة من قواعد التربية وأسسها وأهدافها .

واختتاماً لهذه الفقرة يمكننا تلخيص المبادئ والأسس والأهداف التربوية التي تجعلنا ننجح في إعادة بناء قلاعنا الثلاث : الوحدة ، والفكر ، والتربية ، وتحصينها بإعادة بناء الشخصية العربية الحضارية بفضل إحداث التفاعل المناسب بين الإسلام والعروبية ، على النحو التالي :

1 ـ التربية والتعليم من جهة والدين من جهة أخرى هما صنوان لا تناقض بينهما ، كما كان يصور لنا أعداؤنا . لأن الدين ، كالتربية والتعليم (التي هي في الأصل جزء لا يتجزأ من الدين) حياة وعلم وحركة وثقافة ، وإعمار ، ومُمَيِّزٌ حضاري ، وبناء ، وتفاعل إنساني ؛ وليس قوقعة وزوايا ، ولا تكايا وانعزالاً وجموداً ، ولا فتاوي نَزَوِيَّة لخدمة مصالح ذاتية سلطوية أو فئوية .

2 ـ إن تحديد العدو الاستراتيجي وكيفية التغلب عليه وردعه يعد عنصراً جوهرياً من عناصر التربية والتعليم .

3 ـ إن توحيد فكر الأمة ومناهجها التربوية وكتبها التدريسية يعد أساساً من أسس التربية والتعليم وهدفاً من أهدافها الذي يعني في حقيقة الأمر الوصول إلى الوحدة البشرية والجغرافية والاقتصادية .

4 ـ التفاعل مع العالم والحضارات الأخرى ينبغي أن يكون انتقائياً ، نأخذ ما ينفعنا ونصهره في بوتقة حضارتنا وهويتنا نتمثله جيداً ، وننبذ ما لا ينفعنا ونتجنب ما يضرنا .

5 ـ الإنسان وحده هو القادر على التغيير ، وهو المسؤول عن إحداث عملية التغيير أو تعطيلها . قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ له معقّباتٌ من بين يديه ومن خلفه ، يحفظونه من أمر الله ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مَرَدَّ له ومالهم من دونه من وال ﴾[الرعد/ 11/] .

6 ـ بما أن الإنسان هو وحده القادر على التغيير ، ومطالبٌ من قبل خالقه رب العالمين بقيادة حركة التطور والتغيير ، لذلك لا بد لهذا الإنسان من التمتع بكامل حريته ، لأن الحرية هي المناخ الذي يستطيع الإنسان فيه أن يبدع ، ولأنها هبة الله للإنسان ، وهي أمانة في عنقه يتحمل مسؤوليتها تجاه خالق الأكوان أجمعين . وقد رأينا كيف أن أمتنا العربية والشعوب الإسلامية قد

تخلفت واستعبدت وانتهكت حرماتها ومقدساتها وكرامتها عندما تخلت عن الحرية وخنعت للدكتاتورية . وأي شعب من شعوب الأرض مسلماً كان أو غير مسلم يتخلى عن الحرية يتخلف وينهار والشعوب التي تتمتع بالحرية تحقق تقدماً في الحياة الدنيا .

7 ـ على هذا الإنسان أن يسعى دائماً لاكتشاف سنن الله وقوانينه في هذا الكون واستخدامها في عملية الإعمار ، وليس في عملية الهدم . وعلى علماء الدين ألا يتحجروا ويضعوا حواجز أمام العلم واكتشافاته ، إن الله سبحانه وتعالى قد فتح كل الآفاق أمام الإنسان وحثه على النظر فيها وأبعد عنه غرابة ما يكتشف بقوله تعالى :

﴿ اقرأ بسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، عَلّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [العلق / 1 ـ 5/] .

﴿ أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ [الزمر / 9/] .

8 ـ إن معرفة قوانين الكون والعلاقات الفيزيائية والكيميائية والحيوية وغير ذلك من علاقات تعد سبيلاً من سبل البناء والإعمار، أما محاولة تغيير هذه القوانين والعلاقات في تدمير المنجزات الإنسانية ، مثل استخدام الذرة في التدمير بدلاً من استخدامها في التعمير ؛ واستخدام النار في حرق بيوت الناس والعالمين ، بدلاً من استخدامها للتدفئة وطبخ الطعام للناس ، يعد هدما وعداء لله وللمؤمنين .

9 ـ الربط بين القول والعمل ، فالإسلام دين عمل لا قول فحسب . إذ لا يقبل الإسلام أبداً من الإنسان أن ينطق الشهادتين ويؤدي فروض العبادة وسننها منزوياً لا يعمل ، معتمداً على سواه في إعالته . حتى العبادات في الإسلام كلها مقترنة بالعمل . من وضوء وصلاة وصوم وحج وزكاة وغير ذلك ، إضافة إلى

أن الإسلام يحث على العمل ويقدره أعلى تقدير ، وينهى عن الخمول والكسل وينفّر منه . قال تعالى في كتابه الكريم :

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالِمِ الغيب والشهادة فينبئكُم بما كنتم تعملون ﴾[التوبة / 105/] .

10 ـ إقامة نظام تربوي موحد يقوم على توثيق العلاقة بين الحياة وبين الدعوة الإسلامية بهدف الإعداد إلى المستقبل من خلال المفهوم القرآني ، وبطريقة منهجية تسهم فيها كل المؤسسات التربوية في جميع مراحلها ، ووسائل الإعلام وأجهزة الإعلام ، والمساجد والأسر والمفكرون والكتاب والأدباء والفنانون والعلماء ، وكل خلية من خلايا الأمة .

11 ـ ضرورة حصر هدف التيار القومي في تحقيق « الوحدة السياسية » للوطن العربي ، بعيداً عن أية نزعة عرقية أو عصبية قومية ، والتخلي عن ضرورة وجود مضمون فكري للحركة القومية باتجاه الوحدة ، كيلا يحدث تعارض مع الدين ، وكيلا يضطر التيار القومي إلى الوقوف في صف أعداء الإسلام . وهذا ينطبق كذلك على الحركات الوطنية القطرية أو الإقليمية التي ينبغي أن تحصر هدفها في بناء القطر أو الإقليم وتطويره دونما حاجة إلى مضمون فكري ، ذلك لأن الإسلام سيكون دائماً هو المضمون الفكري للأمة كلها وقاعدة انطلاقها نحو أي هدف سواء كان الهدف محلياً أو نظرياً أو إقليمياً أو إنسانياً .

12 ـ ضرورة قبول التيارات الدينية عموماً ، والتيار الإسلامي خصوصاً ، بوحدة عربية لا عنصرية ؛ والنظر إلى الدعوة القومية على أنها مكملة للدعوة الإسلامية طالما هي ضمن إطار الشخصية الحضارية الواحدة ، وبعيدة عن النزعة الانفصالية التي هي بحد ذاتها نزعة هدامة . وضرورة أن ينظر العروبيون إلى الإسلام على أنه صنو العروبة وليس نقيضها .

13 ـ أن يقوم مفهوم الحكم والسلطة على أساس أن النظام الحاكم ما هو إلا لخدمة الناس والوطن ، وليس لسيادتهم والهيمنة عليهم وقهرهم

وامتصاص ثروات البلاد لصالح النظام وعناصره . قال رسول الله(ﷺ) .

« إن أحب الناس إلى الله وأقربهم إليه مجلساً يوم القيامة إمامٌ عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر » (الترمذي ـ أحكام 4 أحمد بن حنبل ـ 3 ، 22) .

ولهذا لا يجوز إضفاء صفة القداسة على الحاكم أو النظام ولو كان إسلامياً ، كما لا يجوز أن يكون الحكم وراثياً ، بل يقوم على الأحقية وعلى الجدارة والكفاءة .

14 ـ تحرير الإنسان من عقدة الخوف التي رأينا كيف أنها سيطرت على الأنظمة العربية فأقعدتهم عن الجهاد ، فَشُنَّت عليهم الغارات وأصيبوا بالتخاذل وبالتواكل على الغير . قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ [قريش] .

إن الإسلام يحرر من جوع إطلاقاً سواء كان ذلك الجوع طعاماً أو سُلطةً أو مالاً أو شهوات أو من أي نوع من أنواع الجوع والطمع والجشع ونزعات التملك ولو على حساب الآخرين ، كما يحرر الإسلام الإنسان من خوف إطلاقاً سواء كان ذلك خوفاً من سهلطان ، أو من فقر ، أو من زمان أو كان خوفاً من أي مجهول أو من أي عدو من أعداء الله والمؤمنين مهما بلغت قوته ومهما بلغ عنفوانه وهيمنته . إن الإنسان عندما يؤمن بالله ويضع ثقته الكاملة به ويؤمن إيماناً لا يتزعزع بأن الله لن يخذل المؤمنين به والمتوكلين عليه والعاملين بما أمر والمنتهين عما نهى ، لن يخذلهم في حرب مع عدو ، ولن يخذلهم في سعيهم للرزق ولن يخذلهم في قول الحق أمام سلطان جائر . . إلخ . عندئذ يشعر الإنسان أنه حر تماماً وأنه قد تحرر من كل قيد مادي أو نفسي ، فلا يعود يخشى جوع غد ، ولا غوائل غد ، ولا يخشى عدواً ، الأمر الذي يجعل المؤمنين يقدمون على عملية إعمار

الأرض بكل متطلباتها ، وعلى الحياة بكل مستلزماتها بثقة وطمأنينة وشجاعة وأمل لا يخبو أبداً .

وبهذا ، وبكل ما تحدثنا عنه من أسس وأهداف تربوية ، نكون قد وضعنا الوعي البشري التربوي والعلمي في مساره التاريخي ، وأخذنا نسير نحو هدف واضح بمنهجية مدروسة تكون لنا دليلاً واسعاً لمجال واسع وأفق بعيد قادر على احتواء الأوضاع التاريخية المتغايرة ، والاستفادة من كل ما هو مفيد لنا وإيجابي من التراث العالمي واستيعابه ووضعه في المسار الصحيح نحو الهدف المأمول مستنيرين بتوجيهات خالق الكون مستلهمين كتابه الكريم وهدي المرسلين ، وخاتم الأنبياء أجمعين ، محمد (ﷺ) والله خير المربين؛ أليس هو رَبُّ العالمين ؟!

وهكذا نستطيع توديع القرن العشرين الذي ولجنا بمجيئه نفقاً مظلماً مليئاً بالكوارث والهزائم ، لنُقبلَ على القرن الواحد والعشرين ، وقد خرجنا من ذلك النفق إلى فضاء مضيء ، رحبٍ ، بفضل نجاحنا في إعادة بناء الشخصية العربية الحضارية التي ترفرف عليها راية الإسلام الواحد والعروبة الواحدة وأعلام النصر والعزة والكرامة .

لمزيد من الاطلاع :

1 ـ الأدبيات الماسونية ، حسين عمر حمادة ، دار الوثائق ، دمشق ، 1995م .

2 ـ الأسد : الصراع على الشرق الأوسط ، باتريك سيل ، ترجمة المؤسسة العامة للدراسات والنشر والتوزيع ، 1988م .

3 ـ الإسلام دين الوحدة ، د.إبراهيم يحيىٰ الشهابي ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، 1991م= 1401و.ر .

4 ـ البداية والنهاية : نشوء القوى العظمىٰ وانحطاطها ، موسى الزعبي ، دار الشادي ، دمشق 1990م .

5 ـ الروتارية والروتاريون ، د.حسين عمر حمادة ، دار قتيبة ، دمشق ، 1980م .

6 ـ الشخصية العربية ، د.إبراهيم الشهابي ، دار الفتح ، دمشق ، 1981م .

7 ـ الصراع العربي ـ الإسرائيلي والشرعية الدولية ، د.غازي حسين ، دمشق ، 1995م .

8 ـ الصهيونية غير اليهودية ، ريجينا الشريف ، عالم المعرفة ، رقم 96 ، ديسمبر (كانون أول) ، 1985م .

9 ـ القرآن حرر الإنسان ، د.إبراهيم يحيى الشهابي ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية طرابلس ، الجماهيرية العظمى ، 1399 و.ر= 1995م .

10 ـ العالم الثالث : حقائق ومتناقضات ، موسى الزعبي ، 1989م .

11 ـ الكتاب الأبيض الأردني ، عمان 1991م .

12 ـ الكتاب الأخضر ، معمر القذافي ، المركز العالمي لدراسات وأبحاث

الكتاب الأخضر ، طرابلس ، الجماهيرية ، يناير ، ٤٨٩١م .

13 ـ الماسونية والماسونيون في الوطن العربي ، د.حسين عمر حمادة ، دار قتيبة دمشق 1986م .

14 ـ جريدة الأسبوع الأدبي ، اتحادالكتاب العرب ، دمشق ، أعداد 1995م .

15 ـ جريدة البعث ، وجريدة الثورة ، وجريدة تشرين (السورية) الأعداد من عام 1990 ـ 1995 .

16 ـ حرب الخليج : أوهام القوة والنصر ، محمد حسنين هيكل ، 1992 .

17 ـ حرب العالمين الأولى : حرب ضد بلد عربي مسلم من العالم الثالث ، شركة الأرض للنشر المحدودة ، 1991م .

18 ـ حرب تلد أخرى : التاريخ السري لحرب الخليج ، سعد البزاز ، الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، 1992م .

19 ـ شهادات ماسونية ، د.حسين عمر حمادة ، دار قتيبة ، دمشق ، 1980م .

20 ـ شهود يهود ، د.حسين عمر حمادة ، دار قتيبة ، دمشق ، 1990 .

21 ـ طارق عزيز . . . جيمس بيكر : نصوص الحرب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1992م .

22 ـ كتابات حول قضايا عربية ، وصفي التل ، عَمّان ، 1980م .

23 ـ كيلا ننسى التاريخ ، لأن التاريخ لا ينسى ، موسى الزعبي ، بيروت ، 1992م .

24 ـ ما الذي تغير في الحضارة الغربية : الاستراتيجية أم التكتيك ؟! موسى الزعبي ، دار الشادي ، دمشق ، 1995م .

25 ـ مفهوم الحرب والسلام في الإسلام ، د . إبراهيم يحيى الشهابي ، مؤسسة مي للطباعة والتوزيع ، 1399و.ر. 1990م .

26 ـ من التشرد إلى الدولة ، د. إبراهيم يحيى الشهابي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1990م .

27 ـ نظام دولي جديد ، أم هيمنة أمريكية جديدة ؟ موسى الزعبي ، بيروت ، 1994 .

28 ـ نقاط على حروف في الصراع العربي الصهيوني ، د. إبراهيم يحيى الشهابي ، دار الأدهم ، دمشق ، 1986م .

29 ـ وثائق التدخل الأجنبي في الوطن العربي ، مكتب الثقافة والدراسات والإعداد الحزبي ، حزب البعث العربي الاشتراكي ، دمشق .

30 Asurvey of Palestine: Prepared for the Information of the Anglo- American Committee of Inquiry, Printed by the Government Printer, Palestine, 1946.

31 Between Arab and Israeli, by lieutenat General E.L.M. Burns, D.S.O, O.B.E., M.C, The institution for Palestine studies, Beirut, 1969.

32 Foreign Policy (Magazine), April, 1991.

33 From Haven to Conquest, by Walid Khalidi, The institute for Palestine Studies, Beirut, 1971.

34 New york Times (Magazine), March 8, 1992.

35 Palestine and the international Law, by Henry Cattan, 2nded, 1972.

36 The New Federalist (News paper), August 31, 1992.

37 The palestine Question and the Interational Law, by P.L.O. R.S. Beirut, 1950.

38 United Nations, library Documents, U.N. 956, 9-A658.

أعمال المؤلف

أ ـ دراسات : (نشرت)

1 ـ الإسلام دين الوحدة ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس ، الجماهيرية العظمى ، 1401و. ر= 1991م .

2 ـ الشخصية العربية ، دار الفتح ، دمشق ، 1981م .

3 ـ القرآن حرر الإنسان ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس ، الجماهيرية العظمى ، 1319و. ر= 1990م .

4 ـ كيف نودع القرن العشرين ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس ، الجماهيرية العظمى ، 1995م= 1424م. ر .

5 ـ لوبية ، مطبعة الاتحاد الشرقي ، دمشق ، 1954م .

6 ـ قرية لوبية ، من سلسلة القرى الفلسطينية المدمّرة (رقم 17) ، جامعة بيرزيت ، مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني ، بدعم من الإيسيسكو ، 1994م .

7 ـ مفهوم الحرب والسلام في الإسلام ، مؤسسة مي للطباعة والتوزيع ، 1399و. ر= 1990م .

8 ـ من التشرد إلى الدولة ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1990م .

9 ـ نقاط على حروف في الصراع العربي الصهيوني ، دار الأدهم ، دمشق ، 1986م .

10 ـ استراتيجية القرآن في مواجهة الصهيونية العالمية . (قيد النشر) .

ب ـ أعمال إبداعية :

11 ـ الصبي وديك البان (رواية) ، دار السؤال ، دمشق ، 1984م .

12 ـ جزيرة العمالقة (مجموعة قصص قصيرة) ، دار السؤال ، دمشق ، 1948م .

13 ـ على الدرب (رواية) ، مكتبة أطلس ، دمشق ، 1954م .

14 ـ مقالات نقدية أدبية ، وسياسية متنوعة ـ قصص قصيرة ـ قصائد شعرية نشرت في جريدة الأسبوع الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، وفي الصحف العربية الأخرى .

ج ـ أعمال أكاديمية :

15 ـ مطابع الوحدة الحكومية ، 1979 . An Approach To English Grammar.

16 ـ مطبعة جامعة دمشق ، 1991 ، Islam and Life

17 ـ دار الفتح ، دمشق ، 1976 ، Islamic conceptions

18 ـ مطابع الوحدة الحكومية ، 1979 ، Literary Readings

19 ـ مطبعة جامعة دمشق ، 1992 ، Studies In English

د ـ ترجمات من العربية إلى الإنكليزية :

20 ـ القرآن واليهود ، محمد عزة دروزة ، 1959م .

21 ـ البعد الخامس في الإسلام ، د. أسعد علي ، 1981م .

22 ـ في أضواء القرآن ، د. أسعد علي ، 1981م .

23 ـ صلوات الصحراء ، د. أسعد علي ، 1982م .

24 ـ أبجديات الإيمان ، د. أسعد علي ، 1982م .

25 ـ مجمع خادم الحرمين الشريفين لطباعة المصحف الشريف ، 1990م .

26 ـ حروف التنزيل ، د. أسعد علي ، 1991م .

27 ـ مقدمة نهج البلاغة ، د. أسعد علي . 1995م .

28 ـ سعادة بلا موت ، د. أسعد علي ، 1991م .

هـ ـ ترجمات من الإنكليزية إلى العربية :

29 How To Understand your Car, Atlas Library, Damascus, 1975.

30 Poetry and the Common Life, M.L.Rosenthal, Ministry of Culture, Damascus, Syria, 1982.

31 The international Jew, Ford I, the Centre of Studies, P.L.O, Damascus, Syria, 1982.

32 Reactor Physics Constants, University of Chicago, U.S.A, Administration of Military Works, Damascus, Syria, 1984.

33 How to Read A film, James Monaco, Oxford Universty, Landon, U.K, Lebanon, Beirut, 1959.

34 Tortilla Flat, Tohn Steinbek, Dar- AL-Adham, Damascus, 1986.

35 Science Now, Midlevant, Switzerland, 1985.

36 Agricultural Pulicies in Developing Countries, Frank Illis Ministry of Culture, Damascus, Syria (Underprint).

37 The international Economy, Peter B. Kenen, Ministry of Culture, Damascus (Under Translation).

38 Short Stories, critical essays, and political articles Published in Al- Adab Al- Ajnabia, Damascus and other Arab magazines.

محتويات الكتاب